

الإسكندرية عبر العصور

في

ذاكرة المجلة

الإسكندرية عبر العصور

في

ذاكرة المجلة

(المجلد الثاني)

مجلـــة كليـــة الآداب

مجلة • فصلية • علمية • محكمة

فهرست الموضوعات

تقديـــم

بقلـم ••

رئيـس التحريـر

•• يحتوى هذا المجلد على مجموعة من المقالات التى تتكامل مع المقالات التى صدرت فى المجلد الأول، وتشكل فى مجملها رؤية متكاملة عن الإسكندرية ... المدينة والحضارة.

أما المقالة الأولى وهى مقالة الدكتورة عنايات محمد فنجدها تتحدث عن صورة فريدة للإسكندر الأكبر مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة، حيث رسمت رأس ملكية للإسكندر الأكبر، وكما تقول صاحبة المقال، ليس لها مثيل فى الأعمال الفنية الأخرى. والوعاء الفخارى المرسوم عليه الراس عبارة عن طبق مقعر القاعدة، والوعاء من مادة الفخار المغطى بطبقة زجاجية رقيقة باللون الأبيض العاجى. وأهم ما يميز الوعاء تناسق تكويناته، فهو مقسم عن طريق الخطوط الهندسية المزخرفة إلى ثلاث دوائر مختلفة المساحات، تشغل الدائرة الأولى قاع الإناء، وتشغل الدائرة الثانية المساحة الواقعة بين قاع الإناء وحافة الإناء، أما الدائرة الثالثة فتشكل حافة الإناء المسطحة. ومن الملاحظ ان صورة الرأس الملكية تشغل قاع الإناء وهى مرسومة باللون البنى الضارب بالسواد، وقد صارت فى وضع جانبى متجهاً ناحية اليسار.

وأما مقالة الدكتور السيد عبد العزيز سالم بعنوان «منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة، فيبرز الأهمية التى ظلت تشغلها منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى، وهو ما لفت أنظار الرحالة المسلمين من أهل المغرب والأندلس الذين زاروا مصر وهم فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة لأداء فريضة الحج، أو تلقى العلم، أو الاشتغال بالتجارة. وتبين المقالة أعمال الترميم والإصلاح التى أمر بها الحكام والسلاطين على مر العصور للمنارة.

أما كيف خططت مدينة الإسكندرية القديمة فهو سؤال مهم أجاب عنه

الدكتور/ محمد عبد الحميد الحناوى فى بحثه بعنوان «تخطيط ومواقع الاسكندرية القديمة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى». حيث يشير إلى أحياء المدينة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى واهمها الحى الملكى وحى اليهود والحى الوطنى. ثم يتناول أسوار المدينة واهميتها مبيناً أنه من المرجح أن الأسوار ابتدأ فى اقامتها ايام الإسكندر ثم تمت فى عهد البطالمة وزاد الرومان فى تحصينها. ويصف البحث أبواب المدينة والحصون والقلاع والتى منها قلعة الفنار وحصن المنارة وقلعة الركن وكوم الناضورة وكوم الدكة، ويصف بالإضافة إلى كل هذا الميناء القديم والميناء الجديد.

وتثير الدكتورة فكرية صالح فى بحثها بعنوان «رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى» بعض التصورات المهمة عن الحياة الأدبية وتشعبها إذ تؤكد ان الاتجاه الرومانى والذى أصبح سمة من سمات الأدب السكندرى، كان سبباً وراء ظهور هذا النوع من أنواع الرثاء، فالرومانسية تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الإنسانية، وهى تفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية، وأن التعاطف امتد فى هذا الإطار إلى الحيوانات. ومما أدى إلى تطور هذه الحركة تطور فن الابجراما.

ويذكر الدكتور محمد بهجت قبيسى فى بحثه «قانون كرك اللا ومذبحة الإسكندرية ٢١٥م» ضرورة القراءة المنهجية لأحداث التاريخ بعيداً عن روح التعصب والعداء، ولذا يتعقب الأحداث التى وقعت فى تلك الفترة ووضع مدينة الإسكندرية السكانى الاجتماعى حيث ينتهى إلى تبرئة كرك اللا من دم المصريين الأصليين أصحاب الأرض، على خلاف كافة المؤرخين.

ويدرس الدكتور هابيل فهمى عبد الملك مسالة مهمة وهى «الزواج

السياسى فى مصر الهيللينستية من عصر الإسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة»، حيث يكشف لنا أن الزواج السياسى لعب دوراً هاماً فى تحريك الأحداث على المسرح السياسى فى العصر الهللينستى بصفة عامة، وفى مصر بصفة خاصة، وقد انعكس هذا على الحياة السياسية فى مصر منذ عام ٣٣٢ ق.م. وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام ٣٠ ق.م.

ولكن هل هناك تشابه بين مدينة الإسكندرية القديمة وبعض المدن الأخرى؟ سؤال أجابت عنه الدكتورة سحر عبد العزيز سالم فى بحثها بعنوان «صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح»، حيث تقارن بين مدينة الإسكندرية وكل مظاهر الحياة فيها ومدينة رباط الفتح الأندلسية. والبحث يمتاز بالتحليل العميق والمقارنة الدقيقة بين المدينتين منذ القدم، ويدل على عقلية تاريخية عميقة.

وقد اختارت الدكتورة سهير محمد ابراهيم فى بحثها بعنوان «الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب للإسكندرية فى العصور الوسطى» أن تبين مكانة مدينة الإسكندرية فى أدب الرحلات، وما تمتعت به من أهمية خاصة فى هذه الكتابات، وتكشف لنا أن الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة، وقد التزموا جانب الموضوعية والدقة فى وصف هذه المدينة العريقة، وجاء تركيزهم بشكل أساسى على الأهمية الاقتصادية والأهمية التحصينية.

وبعد، فإن مجموعة الدراسات والبحوث فى هذا العدد تشكل جانباً متنوعاً من الدراسات التاريخية التى اهتمت بها كلية الآداب على امتداد سنوات طويلة، والتى فى إطارها دارت بحوث طويلة وعميقة عن الإسكندرية المدينة والحضارة. والخيط الرفيع الذى يربط كل هذه الدراسات ببعضها هو رؤيتها التحليلية

والعميقة للجوانب الثقافية فى الإسكندرية منذ نشأتها كمدينة أيام الإسكندر الأكبر وعلى امتداد العصور التالية.

ومع صدور هذا العدد الممتاز من الدراسات العلمية التى نشرت فى مجلة الكلية، واجب علىّ أن أقدم الشكر للأستاذ الدكتور/ فتحى عبد العزيز أبو راضى عميد الكلية على كل ما بذله من جهد لتذليل العثرات، وللنهوض بمجلة الكلية بإعتبارها الواجهة الثقافية لكل الآداب. هذا وقد كانت للنصائح الطيبة للأستاذ الدكتور/ محمد عباس إبراهيم وكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب، أبلغ الأثر والأهمية فى ترتيب أفكار أسرة تحرير المجلة أثناء العمل.

كما يطيب لى أيضاً أن أتوجه إلى زملائى أسرة تحرير المجلة على الجهد الذى بذلوه، والمعاونة الصادقة التى إن دلت على شئ إنما تدل على أن أسرة تحرير المجلة تمثل طاقة مبدعة وخلاقة، وهو ما انعكس بالضرورة على منظومة العمل بالمجلة لإعداد وترتيب وإخراج الأعداد التذكارية للإحتفال بمكتبة الإسكندرية العالمية.

رئيس التحرير

أ.د. ماهر عبد القادر محمد على

صورة فريدة للإسكندر الأكبر
مرسومة على وعاء فخارى من مجموعة خاصة*

دكتورة

عنايات محمد أحمد

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

رُسمت رأس ملكية للإسكندر الأكبر - ليس لها مثيل فى الأعمال الفنية الأخرى (شكل «١٠») على وعاء فخارى عبارة عن طبق مقعر القاعدة شكل الوعاء من مادة الفخار المغطى بطبقة زجاجية رقيقة باللون الأبيض العاجى[١]. يبلغ قطر الأناء ٢٢,٥ سم أما أرتفاعه فيبلغ ٢ سم.

يتميز الإناء بتناسق تكويناته حيث تم تقسيمه بواسطة خطوط هندسية زخرفية[٢] إلى ثلاث دوائر مختلفة المساحات، تشغل الدائرة الأولى قاع الإناء أما أسلوب الزخرفة فهو عبارة عن خطين بداخلهما مربعات صغيرة بداخل كل واحد منها مربع صغير تم تظليله باللون البنى الضارب للسواد يتصل كل مربع بالأخر عن طريق خط صغير رفيع وهذا النمط من الزخرفة انتشر بكثرة على الأوانى الأثينية والأتيكية فى العصر الهندسى[٣] (١٠٠٠-٧٠٠ق.م.) وظل يستخدم حتى العصر الروماني.

تشغل الدائرة الثانية المساحة الواقعة بين قاع الإناء وحافة الإناء أى أرتفاع الإناء البالغ ٢ سم ويحددها خط زخرفى عبارة عن خطوط هندسية متداخلة بداخلها مستطيلات يتخلل كل واحد منها مستطيل آخر صغير تم تظليله كلية باللون البني الضارب للسواد ولقد اشتهرت كل من أثينا وأتيكا بهذا النمط من الزخارف الهندسية[٤] خلال العصر الهندسى وما تلاه من عصور.

وتُشكَل الدائرة الثالثة حافة الإناء المسطحة حيث يحدها على حافة الإناء الخارجية إفريز زخرفى هندسى على هيئة الأفريز السابق. ويشغل قاع الإناء - الذى يشكل الدائرة الداخلية - صورة شخصية لرأس ملكية، ورسمت باللون البنى الضارب إلى السواد أيضا. وصُورت الرأس فى وضع جانبى (بروفيل) متجها ناحية اليسار، وأمامها نقش باليونانية ΑΛΕΞΑΝΔΡΟΣ (الإسكندر) وخلفها كلمة ΟΜΕΤΑΣ (الأكبر) وبذلك أمكن التعرف على هوية الشخصية المصورة وهى الإسكندر الأكبر .

يذكرنا تنفيذ رسم هذه الصورة بالصور التى رسمها رسام الإسكندر الأكبر Apples (٥) والتى أخبرنا عنها بلينى Pliny (٦) ، وتذكرنا أيضا بالأعمال التى نفذها النحات ليسبوس Lysippos للإسكندر الأكبر والتى تظهر تشابها كبيراً فى محاكاة الرقبة المستديرة والنظرة الفياضة المعبرة لعين الإسكندر الأكبر كما وصفها بلوتارك Plutarch، وربما تكون انعكاس لتلك الطرز التى نفذها كل من ليسبوس فى الأعمال النحتية وأبليس فى الرسم.

وتظهر الصورة (شكل «٢») الإسكندر فى وضع متزن للغاية حيث يتجه الرأس ناحية اليسار، وتبدو على الوجه المثالية والدماثة، الشفاه منفرجة قليلا وتتخذ شكل المنجل ومثقوبة عند الأركان، ترسم عليها أبتسامة صغيرة، الأنف طويلة بصلية الشكل، العين حالمة تتجه بنظراتها إلى أعلى، الذقن بارزة حليقة أسوة بالآلهة والأبطال الشباب مثل ديونيسوس، هرقل وأخيليس. أما الشعر الطويل الأسدى الطراز - الذى يميز هذه الرأس -

وهو من السمات التى ميزت أشكال الإسكندر الأكبر البطولية، فلم يظهر منه سوى خصلة فوق الأذن اليمنى منسدلة على الرقبة وتتخذ شكلا لولبيا من أسفل واختفى بقية الشعر تحت الخوذة فيما عدا خصلات من الشعر تغطي أسفل الرقبة وتتدلى على الكتف فى تموجات لولبية.

يرتدى الإسكندر على رأسه خوذة من الطراز الأتيكى عبارة عن غطاء رأس مستدير لها ثلاث من الأفاريز القائمة من الأمام وتنتهى أعلى الأذن على شكل لولبى Volutes تاركة الأذنين عاريتين ومزودة خلف الرقبة بواق يتخذ شكل زخرفى عبارة عن مربعات صغيرة متتالية ربما كانت هذه نوع من المفصلات التى يمكن بواسطتها نزع هذا الواقى فى زمن السلم. ولقد رسمت على الجانب الأيمن وسط الخوذة جريفون Griffon يبدو كأنه ينطلق للأمام ويزين أعلى الخوذة ثلاث عروف حيوانية.

هذه الخوذة التى يرتديها الإسكندر الأكبر على رأسه خاصة بالمعبودة اثينا المحاربة Athena Promachos حيث صورت وهى ترتديها فوق رأسها التى تظهرها كإلهة للحرب (٨) .

رُسمت أسفل صورة الإسكندر الأكبر مباشرة صاعقة زيوس فى وضع أفقى. وتعد هذه الصاعقة أولى الانتسابات الإلهية التى أتخذها الإسكندر الأكبر مخصصا له، ليس فقط باعتباره ابن للمعبود زيوس بل للقوة الممثلة لزيوس ذاته على الأرض، وهى النظرية التى اتبعها كل من أبليس وليسبوس فى تنفيذ أعمالهم الخاصة بالإسكندر الأكبر. ويؤكد ذلك تلك الصورة التى نفذها أبليس للإسكندر الأكبر لتكون طبق الأصل لتمثال

زيوس Zeus Keraunophoros الذى قام بعمله النحات فيدياس Pheidias والمقام فى معبد زيوس بأوليبيا (٩) Olympia ، استبدل فيها أبليس رأس زيوس برأس الإسكندر ووضعت فى معبد أرتميس Artemis فى إفسوس Ephsos لتأكيد صفة الإسكندر الإلهية وأضفاء قوة زيوس عليه (١٠) . وهكذا فإن أشكال الإسكندر تكاد أن تعلن «انظر إلى زيوس، لقد وضعت الأرض تحت سيطرتى، أما أنت فقد أحتفظت بحبل أولب».

الدائرة الوسطى والتى تشكل ارتفاع الوعاء تقريبا (٢سم) لا تحتوى على أية رسومات لصور شخصية أو رموز إلهية وحربية وأنما تركت خالية تماماً.

أما الدائرة الثالثة والتى تشكل الحافة الخارجية للوعاء فهى تشتمل على مجموعة من الصور الشخصية والانتسابات الإلهية والأدوات الحربية. فى منتصف المساحة الداخلية للدائرة من أعلى وفوق رأس الإسكندر الأكبر مباشرة رسم رأسان لرجل وامرأة، الرجل يظهر منه الوجه فقط، أما المرأة فقد صورت بشكل نصفى Bust، صور وجه الرجل بالمواجهة (فى مواجهة المشاهد) الوجه مستدير، له لحية خفيفة، وتغطى ذقنه جزء من جبهة المرأة المصورة أسفل بالمواجهة أيضا.

هاتان الصورتان الشخصيتان لا يوجد نقش يؤكد هويتهما ولا يحملان علامات ملكية يمكن من خلالها التعرف على شخصيتهما ولكن النقش الذى يحيط بهما ربما يساعد على التعرف عليهما، فهو عبارة عن دعاء بالمؤازرة لشخصية هامة لابد أنها الإسكندر الأكبر، ولابد أن مقدمى

الدعاء هما والدى الإسكندر الأكبر فيليب وأولمبياس ونص الدعاء كالآتى ΣΨΝ ΑΘ ΗΝΑ ΚΑΙ ΞΕΙΠΑ ΚΙΝΕΙ وترجمته «معك أثينا تشد أزرك» (شكل ٣). والمعروف أن فيليب كان يصور ملتحيا(١١) على غرار موضة عصره على عكس ابنه الإسكندر، الذى أبدى رغبته فى أن يكون أكثر شبابا ووسامة فكان يصور حليق الذقن ولقد تشبه به خلفاؤه حتى المتقدمون منهم فى السن.

عند نهاية خصلات الشعر المنسدلة على كتف المرأة رسم فرع من ورق الغار على كل جانب متخذا الشكل النصف دائرى ويكمله الفرع الموجود على الجانب الآخر مكونا ما يشبه الدائرة حول كل من الرجل والمرأة. والمعروف أن غصن الزيتون هو أحد انتسابات المعبودة أثينا(١٢) . باعتبارها طبقا للأساطير اليونانية القديمة أول من ابتدعت زراعة الزيتون فى اليونان حيث أدخلت زراعة شجرة الزيتون فى أتيكا.

رسمت صورة شخصية ملكية على يمين صورتى الرجل والمرأة وعلى بعد مسافة قصيرة فارغة أمكن التعرف على هويتها من خلال النقش المحاط بها من أعلى والذى سُجل باليونانية أيضا داخل ما يشبه شريط ذو نهايات مطوية ويشير إلى أن صاحب الصورة هو سليوكس ΣΕΛΥΚΟΣ (شكل ٤) : الصورة توضح سليوكس بعد أن أتخذ اللقب الملكى إذ أنه يرتدى العصابة الملكية DIADEM الخاصة بالملوك. ويتجه الملك ورأسه منحنيا تجاه اليسار، الوجه مربع والخدود ممتلئة، تنظر العين لأعلى، الأنف مستقيم به تقوس خفيف، الذقن بارزة بها غور فى المنتصف وحليقة على غرار صور

الإسكندر، الشفاه رقيقة ومنفرجة ولكن يوجد خطوط عند الأركان، وكذلك عند الأركان الخارجية للعين ربما دلالة على تقدم السن فقد أعلن سليوكس نفسه ملكا على سوريا عام ٣٠٦ ق.م. وكان فى الثانية والخمسين من عمره على الرغم من تصويره فى مرحلة الشباب أسوة بالإسكندر. الشعر عبارة عن خصلات غير منتظمة على الجبهة وحول الوجه ويتوج الرأس عصبة[١٣] ملكية عبارة عن شريط مسطح من القماش الأبيض يربط حول الرأس ويعقد من الخلف فى نهايات متدلاة متراخية. وطبقا للأساطير اليونانية فإن ابتكار هذه العصبة ينسب للمعبود ديونيسوس وأرتداء الملوك الهلينسيتى لها يعنى تشبههم بديونيسوس الذى ينسب إليه إسطوريا[١٤] فتح الشرق فهى بالنسبة لهم رمز الإنتصار باعتبارهم هم أيضا فتحوا الشرق صورت خصلات الشعر خلف العصبة على شكل بوكلات كثيفة، أما الرقبة فهى غليظة تتخللها ثنايات ربما نتيجة لاستدارة الرأس قليلا تجاه اليسار. وتتشابه هذه الصورة المرسومة لسليوكس مع كثير من الرؤوس[١٥] المنحوتة والمرسومة لشخصية الملك.

يلى صورة سليوكس وعلى مسافة أخرى صغيرة درع عليه مجموعة من الانتسابات الإلهية وخوذة حربية ربما كانت خاصة بالإسكندر الأكبر أو أحد قواده الذين لم يصوروا هنا لسبب أو لآخر حيث إن هذه الأنتسابات التى اتخذها الإسكندر لتؤكد سموه على البشر أصبحت الأساس الشرعى لخلفائه من حكام الممالك الهلنيستية باعتبار أن كل منهم يدعى أنه وريث الإسكندر المؤله فقد أظهروا انتماءاتهم لمجموعة الآلهة والأبطال التى نسب

الإسكندر نفسه إليها، كما ظهروا فى مظهر الشباب أسوه بالإسكندر حتى المتقدم منهم فى السن كما سبق وأن رأينا.

الدرع من الطراز المقدونى البيضاوى ΘυpEos الذى كان يأخذ الشكل البيضاوى الضيق ويُصنع عادة من الجلد ولإعطائه الصلابة كان يحيط بحافته إطار معدنى [١٦] (شكل ٥) يتسلح به الآلهة اليونانية وبصفة خاصة الآلهة أثينا المحاربة. يخرج من أسفل الدرع أغصان الزيتون الخاصة بالمعبودة أثينا وصاعقة زيوس ويوجد فوق الدرع عصا هرقل وشعلة ديونيوس Thyrsus وهما أيضا من الأنتسابات الإلهية التى أتخذها الإسكندر الأكبر مخصصا له واعتبرت من الرموز الآلهية الأساسية لخلفائه فهرقل صاحب البطولات الخارقة فى الأساطير اليونانية وابن زيوس فى نفس الوقت. وكما اعتبر الإسكندر الأكبر نفسه ابن زيوس فقد تشبه بهرقل الذى قهر النفوذ البربرى، فى حين أن الإسكندر قهر الأمبراطورية الفارسية وبذلك فإن أعماله البطولية تشبه تلك التى قام بها هرقل ولذا فهو جدير بالألوهية.

ولقد وضعت خوذة حربية من الطراز التراقى[١٧] فوق الدرع. الخوذة مستديرة فى مقدمتها جزء منخفض مثلث الشكل ينتهى على جانبى الرأس بلولبيين ويداخل هذا الشكل المثلث شكل آخر مثلث أيضا ينتهى عند اللولبيين ويداخله ثلاثة من المسامير. وللخوذة واق للوجنتين يعلوها عرف حيوانى.

وعلى مسافة قصيرة من هذه المجموعة من الانتسابات الإلهية

والأدوات الحربية الوقائية رسمت صورة (شكل ٦) لشخصية أخرى من قواد الإسكندر الأكبر الذين حكموا أقاليم إمبراطوريته بعد وفاته Diadochoi. وقد سجل اسم هذه الشخصية باليونانية ΚΑΣΣΑΝΔΡΟΣ داخل شريط يتخذ الشكل النصف دائرى أعلى رأسه مباشرة. الشخصية المرسومة هى كاسندروس الذى حكم مقدونيا فى الفترة من ٣١٩ ق.م. حيث خلف أباه أنتيباتروس Antipater بعد وفاته عام ٣١٩ ق.م. ولابد أن تكون هذه الصورة قد رسمت قبل أن يدبر كاسندروس قتل أولمبياس Olympi-as أم الأسكندر الأكبر عام ٣١٦ ق.م. [١٨]، ولابد أنها نقلت عن صور شخصية رسمها له كبار رسامى العصر الهلينسى إذ يخبرنا بلينى [١٩] Pliny بأن الرسام فليوكسينيوس من أرتريا Philoxenos of Ertria رسم صور شخصية لكاسندروس. تبدو الصورة فى وضع جانبى (بروفيل) Profile متجهة ناحية اليسار، يرتدى فوق رأسه الخوذة الأتيكية ينسدل من أسفلها الشعر الطويل الأسدى الطراز أمام الأذن وعلى الرقبة. الرقبة مستديرة، تتجه العين إلى أعلى، الأنف طويل، الشفاة تنفرج قليلا وبها ثقوب عند الركان والذقن صغيرة. يظهر أعلى الصدر حد العباءة Cloak.

ويلى صورة كاسندروس بمسافة صغيرة مجموعة أخرى مماثلة لسابقتها من الانتسابات الإلهية والأدوات الحربية والتى هى عبارة عن درع مقدونى، صاعقة زيوس، عصا هرقل، شعلة ديونيسوس وخوذة أتيكية الطراز (شكل ٧).

الصورة التالية لهذه المجموعة من الانتسابات والأدوات الحربية

لبطليموس الأول (شكل ٨) الذى كتب اسمه باليونانية داخل شريط ذى نهايات متدلاة ويتخذ الشكل النصف دائرى ΠΤΛΕΜΑΙΟΣ . حيث صور فى وضع جانبى (بروفيل) تظهر ملامح الوجة الشخصية فى منتصف العمر تقريبا والشعر عبارة عن خصلات خفيفة تنسدل على الجبهة وحول الوجنتين وتظهر الخصلات أكثر كثافة فوق الرأس وخلف العصبة الملكية diadem التى تحيط برأسه، وقد عقدت من الخلف بنهايات متدلاة الرقبة غليظة، الذقن كبيرة، الأنف طويلة مسطحة والعين صغيرة. تجمع الصورة بين المثالية والواقعية فى وقت واحد على نمط صور الحكام فى ذلك الوقت. وبالرغم من كبر سن بطليموس الأول إلا أنه يبدو كما هو الحال فى كثير من الرؤوس الممثلة له أصغر بكثير من سنه الحقيقى حيث توج ملكا على مصر وهو فى الستين من عمره فى سنة ٣٠٥ ق.م.[٢٠] .

وتتكرر نفس الانتسابات الإلهية والأدوات الحربية للمرة الثالثة إذ أن الرسام قام برسم صورة لأحد حكام الممالك الهلينسية ثم كرر رسم نفس المجموعة ربما لملأ فراغات حتى لا تكون المسافة كبيرة بين الصورة والأخرى وربما بهدف معين كان يقصده الرسام.

الشخصية الأخيرة التى صورت على هذا الإناء هى صورة أنتيجونوس والتى أمكن التعرف عليها ايضاً من خلال الاسم المسجل أعلاها داخل شريط ذى نهايات مطوية ويتخذ الشكل النصف دائرى ΑΝΤΙΓΟΝΟΣ . ويبدو أن بعض الحكام آثروا الظهور بالمظهر الحربى إذ أنه بالرغم من أن أنتيجونوس أعلن نفسه ملكاً على آسيا الصغرى عام

٣٠٦ ق.م. وارتدى العصبة الملكية diadem [٢١] قبل منافسيه من قواد الإسكندر الأكبر سليوكس وبطليموس وليسماخوس الذين أعلنوا أنفسهم ملوك بعده بفترة قصيرة[٢٢] . ويستبعد أن تكون هذه الصورة قد رسمت له قبل اتخاذه لقب ملك حيث إن كلا من سليوكس وبطليموس يظهران هنا، كما سبق وأن رأينا، على هذا الإناء بالعصبة الملكية. على أية حال فإن أنتيجونوس يبدو على هذه الصورة مؤلها كما سنوضح فيما بعد.

صور أنتيجونوس فى وضع جانبى (بروفيل) Profile، الوجة مربع، الأنف طويل أفطس، الشفاه منفرجة قليلا، الرقبة طويلة وتظهر بوضوح (تفاحة آدم)، العين مستديرة، الحواجب مقوسة على نمط حواجب هرقل، تغطى الجبهة خوذة من الطراز المقدونى الهلينسى ينسدل من أسفلها الشعر على الكتف فى شكل خصلات مموجة وكذلك حول الوجة. الخوذة محكمة على الرأس لها كاب مثلث الشكل من الأمام وواق للعنق من الخلف، يقبع أعلى الخوذة أسد وهو رمز هرقل، وخلف الخوذة رسم المعبود بان Pan إله الرعى[٢٣] .

ومن المعروف أن الإسكندر وخلفاءه كانوا يعتبرون أنفسهم من نسل الإله هرقل ولذلك اتخذوا من انتسابات هذا الإله البطل مخصصات لهم. ومن الجدير بالذكر أن نفس الشكل القابع للأسد [٢٤] . له مثيل على مقبرة تذكارية فى آسيا الصغرى (كنيدوس) Cnidus أطلق عليها مقبرة الأسد يعتقد أنها تمجد معركة بحرية ونحن نعرف أن أنتيجونوس قد خاض معركة بحرية انتصر فيها واتخذ بعدها اللقب الملكى[٢٥] . زخرف خلف الخوذة -

كما سبق وأن ذكرنا - برأس للمعبود بان Pan الذى يعتبر الإله الراعى للأسرة الأنتيجونية حيث أسسوا عيداً رسميا لهذا الإلـه فـى ديلوس Delos[٢٦] . ارتبط بان بالحرب [٢٧] فقد كان يبعث الرعب فى نفس العدو، وينذره بالفزع الفجائى المستمر من اسمه «بانك» بمعنى المفزع. كما أن تأسيس مملكة مقدونيا يعزو أسطوريا إلى ذلك الإله[٢٨] . ويحدثنا كل من هيرودوت[٢٩] وبلينى[٣٠] بأن الإسكندر وخلفاءه اتخذوا الإله بان الراعى لهم لمساعدتهم فى الحرب ضد الفرس عام ٤٨٠ ق.م. كما صور الإسكندر الأكبر يرافقه المعبود بان. وجدير بالذكر أيضا أن الإله بان كان يربط بينه وبين الإله ديونيسوس رابطة قوية فطبقا للأساطير اليونانية القديمة فقد كان لبان خبرة فى خدمة ديونيسوس إذ كان رفيق طفولته وسار هناك ارتباط بين بان وديونيسوس فكلاهما يرتبط بفتح الشرق[٣١] . وكلاهما أبناء زيوس الذى إدعى الإسكندر الأكبر أنه من نسله وكلاهما أيضا ارتبطا بإمبراطورية الإسكندر. صور بان على خوذة أنتيجونوس برأس آدمية يخرج منها قرنا ماعز قصيران ويحيط بالجبهة لحية كثيفة. ويلتف حول كتفى أنتيجونوس جلد أسد تتدلى مخالبه Lion Scaple على الكتف الأيسر وهى ترمز إلى الإله البطل هرقل[٣٢] .

أما عن صناعة هذا الوعاء فإن المادة التى استخدمت فى تشكيله هى نوع من الطفلة النقية جدا ذات اللون الأبيض غالبا طفة جيرية Calcare-ous Mud تقل فيها نسبة المواد العضوية وترتفع فيها نسبة سليكات الألمونيوم المائية وكربونات الكالسيوم، يكون لونها رمادى وهى مبتلة، ويتغير

اللون إلى الرمادى الضارب إلى الصفرة بعد الاحتراق، ويتكون هذا النوع نتيجة لنزع مكونات الطفلة من الجبال بفعل مياه الأمطار والسيول وترسيبها فى المنخفضات والوديان. وهذا النوع من الطفلة ظهر فى مصر فى العصر البطلمى نتيجة لحركة اتصال التجمعات البشرية ببعضها والذى أعقبه نوع من الإدراك لمواصفات الطفلة الجيدة بل والبحث عن مصادرها، بالإضافة إلى الدور الذى قامت به الإسكندرية فى صناعة الآنية الفخارية وكذلك منطقة الدلتا حيث عثر على العديد من القمائن الخاصة بصناعة الفخار فى كوم قرين (جنيكابوليس) وفى غرب الدلتا ومنطقة دمنهور (نقراطيس القديمة)[٣٣]. على أننا لا ننكر الدور الذى قامت به مصر الفرعونية فى مجال صناعة وتطور الآنية الفخارية على مدى أكثر من ثمانمائة ألف عام مضت. وتوجد هذه المادة بكثرة فى صعيد مصر والواحات[٣٤]، وبصفة خاصة فى قنا والبلاص والواحات الخارجة بالصحراء الغربية[٣٥] .

تم طلاء الإناء بمادة زجاجية عاجية اللون وقد حاول الصانع تقليد النسيج السطحى Surface texture المشابه لنفس طبيعة الأحجار الجيرية ونقل فكرتها الزخرفية بخطوط غير منتظمة رسمت على سطح الفخار تبدو كما لو كانت تشرخات متتابعة فى طبقة التزجيج يعرف بالتشرخ Carving. وجدير بالذكر أن مصر عرفت فن التزجيج قبل غيرها من البلاد الأخرى فهى عريقة فى صناعة الخزف[٣٦] وبالتالى قديرة على اختراع هذا النوع من الزخرفة.

أما عن رسم الأشكال على الإناء فربما تم رسمها عليه مباشرة أو طبعت بواسطة قوالب تحتوى على هذه الأشكال الغير غائرة والتى تعبر عن

مدى الروعة والجمال ودقة الرسم إلى الحد الذى يثير الاعجاب. ولما كانت العادة قد جرت على كتابة اسم الصانع على أعماله الخزفية اعتزازا منه بصناعته وقيمتها الفنية فقد سجل خلف الإناء نقش باليونانية ΑΔΕΛΦΟΙ ΚΑΛΟΚΑΙΡΙΝΟΙ ΥΓΑ إشارة إلى أن أثنين من الأخوة قاما بصناعة وزخرفة هذا الإناء.

فيما يختص بتأريخ الإناء فلابد أنه صنع بعد ٣٦٠ ق.م. وهى السنة التى اتخذ فيها حكام الولايات الهلنيستية لقب ملك وقاموا بارتداء العصبة الملكية كما هو واضح من خلال صورتى كل من سليوكس وبطليموس الأول. ومن ناحية أخرى فلابد أنه نفذ بعد وفاة الإسكندر الأكبر ذلك أن فكرة طبيعته الألهية(٣٧) والتي ظهرت في مرحلة متأخرة من حياته كانت قد أصبحت نظرية ذات أهمية سياسية(٣٨) . وبصفة خاصة فى مصر التى يقوم الحكم فيها على مبدأ الحق الالهى. ومن ثم فقد عبد الإسكندر الأكبر باعتباره مؤسس مدينة الإسكندرية والسلف السياسى للبطالمة والإله الحامى لمصر.

وقد يكون هذا الإناء نسخة رومانية لأصل هلينستى، كما سبق أن ذكرنا، فمن المعروف أن الرومان قد نسخوا أشكال الإسكندر وبعض قواده المتميزين(٣٩) أمثال أنتيجونوس وسليوكس وكاسندروس وبصفة خاصة تلك التى رسمها أبليس للإسكندر والمنسوجة فى رسم بومبى(٤٠) وعملين آخرين للإسكندر نفذهما أيضا الرسام أبليس نسختا ووضعتا فى ميدان أغسطس Forum Augusti بروما (٤١)

وربما أن هذا الإناء الذى يحمل صورة الإسكندر الأكبر وأربعة من حكام الولايات غالبا المؤلهين(٤٢) . ربما كان نوع من التمائم(٤٣) التى وضعت فى المنازل لجلب الحظ الحسن فلقد سار الاعتقاد فى العصرين اليونانى والرومانى أنه من يمتلك صورة للإسكندر الأكبر يحالفه الحظ وبناء على ذلك فقد جرت العادة ليس فقط على المستوى الشعبى ولكن أيضا على المستوى الرسمى ارتداء أو ملكية صورة للإسكندر الأكبر كتميمة لجلب الحظ(٤٤) . وقد استمرت هذه العادة حتى عام ٤٠٠ م صدر بعدها قرار(٤٥) بمعاقبة كل من يرتدى صورة الإسكندر الأكبر كتميمة لجلب الحظ . وليس أدل على انتشار هذه العادة من وفرة الأعمال الفنية المختلفة المكتشفة فى مصر والتى تظهر الإسكندر الأكبر كإله حامى لمدينة الإسكندرية والشخصية المحببة لسكان الإسكندرية(٤٦) الذى كانوا يعتبدونه داخل بيوتهم إذ كان يحتفل بيوم وفاته كعيد دينى رسمى فيه تقام الطقوس الدينية الإغريقية. كما أن عبادته اعتبرت أيضا دينا رسميا إغريقيا. وعلى المستوى الرسمى يحدثنا سوتينيوس Suetonius بأن الإمبراطور أغسطس كان خاتمه الشخصى يحمل صورة الإسكندر الأكبر. كما أن الأباطرة التاليين لأغسطس كانوا أكثر ولعا بصورة الإسكندر الأكبر فالبعض تشبه بهيئته كالإمبراطور تيبريوس والبعض الآخر أضاف إلى اسمه اسم الأسكندر. كما أن الإسكندر سفيروس وضع صورة الإسكندر الأكبر فى ضريحه إيمانا منه بأنها ستساندة فى كل عمل.

وهناك من الدلائل ما يؤكد انتساب هذا الإناء إلى مصر، فلو أننا

دقـقنا النظر فى الأشكال المصـورة عليـه سـوف نلاحظ كـبـر حـجم صـورة الإسكندر الأكبـر عن باقى صـور الحكام الآخرين ويبـدو أن الرسـام نفـذها طبقا للنظرية[٤٨] الفرعونية، فقد اعتاد الفنـان الفرعونى أن يصـور الشـخصية المهـمـة بحـجم أكبـر من الشـخصـيات الأخرى. ومن ناحـيـة أخـرى فـإن الإسكندرية أول من اعترفت بأن الإسكندر الأكبر ابن زيوس[٤٩] وأخيراً فإن الإلهـة أثينا أعتبـرت حـامـيـة لمدينة الإسكندرية التى تحولت إليـهـا الثـقـافـة اليـونانيـة بإنشـاء دار الحكمة والمكتبـة. وقد ظـهـرت على عـمـلات الإسكندر الأكـبـر المعـبـودة أثينا المحـارية (بروماخـوس) كنوع من الاشـارة إلى أن البطالمة لم يرثوا فقط السلطة عن الإسكندر بل ورثوا أيضـا الثقافة عن أثينا، وكلهـا أمور تتـضح من خـلال الصور والزخـارف الموجودة على الإناء، الذى نحن بصـدد الحديث عنه، فالإسكندر الأكبر يرتدى الخوذة الحربية الخاصـة بالمعبودة أثينا، كما أن غصن الغار الخاص بها يتكرر فى كل وحدة زخرفية خاصـة بالانتسابات الإلهية بالإضافة إلى الاستعانة بأثينا لمؤازرة الإسكندر كما سبق وأن رأينا.

References

1- Beazly, Attic white lekythoi, Oxford 1938, p. 13.

2- Richter, G. M. A., A Handbook of Greek Art, pp. 293, 325.

3- Rasmussen, T., Spivey, N., Looking at Greek Vases, Cambridge, 1991, p. 37.

4- Ibid.

5- Lauffer, S., Alexander der Grosse, Germany, 1978, pp. 54, 197.

6- Pliny, NH, 7, 125.

7- Plutarch, Alexander, 4.1.

8- Hamlyn, P., Greek Mythology, New York, 1968, p. 107; Lenardon, J. Classical Mythology, London, p. 523.

9- Pollitt, J.J., Art In The Hellenistic Age, Cambridge (1988), p. 22.

10- Pliny, NH, 53, 92.

11- Smith, R.R.R., Hellenistic Sculpture, London (1991), pp. 21, 63, 148.

12- Hamlyn, op. cit., p. 33.

13- Smith, op. cit., p. 20; pollitt, op. cit., p. 28; Krug, A., Binden in der griechischen Kunst, Mainz (1968), S. 114-18, Kray, C.M., Hirmer, M., Roman Coins (1978) p.8, P. 1.7, 1.3.

14- Hamlyn, op. cit., p. 111.

15- Smith, op. cit., cat. nos. 21-2, pl.16.

16- Hausmann, U., Zur Eroten Und Gallier-ikonographe in der Alexandrinschen Kunst, Alexnadria e il mondo ellenistico, vol V (1984) pp. 283-295, tav, li, figs. 1.4.

17- Hanlman, G.M.A., New Fragments of Alexandrian Wall Paintings, Alexnadria e il mondo ellenistico, vol v, Roma (1984), p. 250, Fig 2.

18- Hammond, N.G.L., Sources for Alexander The Great, An Analysis of Plutarch's Life and Arrian's Anabasis AlexandrAu, Cambridge (1993), p. 13.

19- Pliny, N.H., 35,110

20- Smith, op. cit., p. 64.

21- Plut, Dem, 17, 2-18, 1.

22- Bouder, D., Who was who in the Greek World (776 B.C- 30 BC), Oxford (1991), p. 42.

23- Smith, op. cit., p. 32.

24- Lawrence, A.W., Greek Architecture, London (1957), p. 196 f., Fig. 108.

25- Smith , op. cit., p. 37.

26- Bruneau, P., Recherches Sur Les Cultes de Délos a l'époque Hellenistique et à l'époque Imperiale, (1970), pp. 558f., 583.

27- Polyb, 20, 6, 12; Pliny, NH, 35. 106.

28- Diod. Sic., 7, 16; Griffith, G.A., A History of Macedonia, II, 1979, pp. 5-14.

29- Herodotus, 6-106.

30- Pliny, NH, 35,106.

31- Hamlyn, op. cit., p. 32.

32- Smith, op. cit., p. 40.

33- El-Khashab, A.el.M., Ptolemaic and Roman Baths of Kom El-Ahmar, 1959.

34- Burton, W., Ancient Egyptian Ceramics, J. Royal Soc. of Arts, vol. LX, 1912, p. 54.

٣٥- الفريد لوكاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين - ترجمة زكى إسكندر، دار الكتاب العربى ، القاهرة ١٩٤٥، ص ٧٩٢.

36- Martin, C., Luster on Glass and Pottery, p. 14 f.

37- Külerich, B., Physiognomies and the iconography of Alexander the Great, Symbolae Osloenses, 63, 1988, pp. 51-66.

٣٨- يقول أرسطو معلم الاسكندر فى كتابه عن السياسة «إذا وجد مواطن فى أى دولة يتميز بسموه على الآخرين فى الفضيلة والمقدرة السياسية، يجب ألا يعتبر فرداً عادياً فى الدولة، لأن ذلك لا يعد إنصافا له بل يساويه مع غيره ولابد من أن يعتبر إلها بين البشر «وهذه الأفكار سيطرت على عقلية الإسكندر الأكبر.

Aristotle, Politics, III, 13, 1284 a.

39- Smith , op. cit., p. 63 f.

40-Mingazzini,p.,Una copia dell Alexandros Keraunophoros di Apelle, Jahrbuch der Berliner Museen 3 (1966) 7-17.

41- Pliny, N.H., 35, 49.

٤٢- كان خلفاء الإسكندر يعتبرون سلطتهم مستمدة من عصور إلهى طالما أن الإسكندر إله فكانت الجماعات الأغريقية تقيم لهم المعابد وتنصب فيها التماثيل ويعين لهم كهنة وتقدم فيها القرابين وتقام لهم الحفلات الدينية فنحن نعرف أن أنتيجونوس أقيم له هيكل نصب بداخله تمثال لـه فى سكبيس Scepsis يلوس وخالكيس

Chalics وساموس Samos كما أن بطليموس الأول الذى ألهه أهل الكلاديس وأضفوا عليه اسم الإله المنقذ كان يحاول جاهدا إثبات أن سلطته مستمدة من عصور إلهى. كما عبد كاسندروس فى كاسندريا.

عن تأليه الإسكندر الأكبر وخلفاؤه أنظر

Tarn, Hellenistic Civilization , 1930, p. 9 f;

إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٤٦، ص ٢١٦ وما بعدها.

43- Smith, op. cit., p 28.

44- Ibid, p. 92.

45- Ibid.

46- Ibid.

47- Suetonius, Divine Augustus, 50.

48- Aldred, C., Egyptian Art, London, 1980, pp. 11, 35.

49- Smith, op. cit., p. 26.

لوحة رقم ١



لوحة رقم ٢



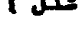
شكل ٢



شكل ٣

لوحة رقم ٢





شكل ٤



شكل ٥

لوحة رقم ٩



شكل ١

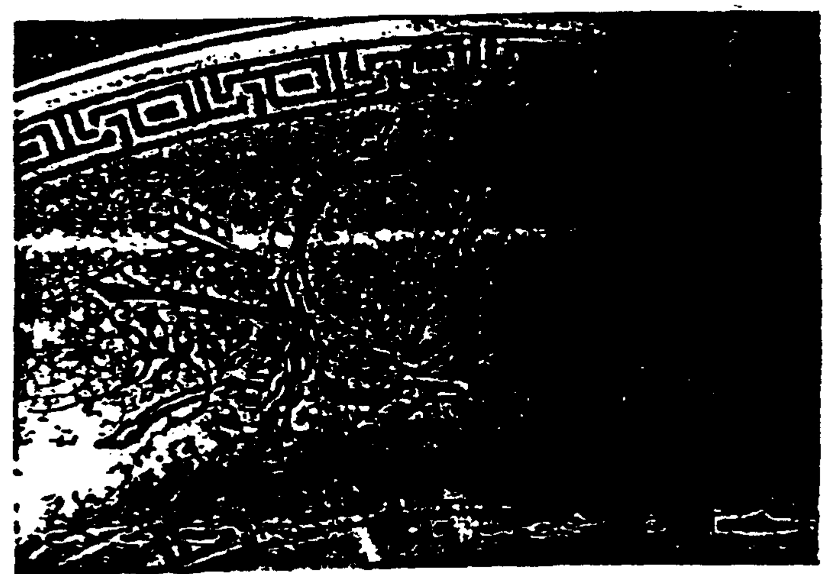


شكل ٢

لوحة رقم ٩



شكل ٨



شكل ٩

لوحة رقم ٩



شكل ١٠



منار الإسكندرية فى رؤية بعض الرحالة المغاربة*

دكتـــور

السيد عبد العزيز سالم

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

كان منار الإسكندرية منذ إنشائه فى عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ق.م. - ٢٧٩ ق.م.) أحد المعالم البارزة فى العمران السكندرى بحيث اعتبر لضخامة بنيته، وارتفاع هامته، ولما كان يؤديه من مهام عظام أحد أعاجيب الدنيا السبع، ولهذا شدت إليه الرحال، وأقبل على وصفه عدد كبير من مشاهديه، فتعددت أوصافه فى المصادر المختلفة : اليونانية واللاتينية والعربية، وقلدت صوره فى منارات أخرى ومن بينها منار قادس الذى كانت صورة مصغرة منه[1]، ورسمت صورته بالفسيفساء فى كنيسة سان ماركو بالبندقية، وأصبح موضوعا وصفيا لدى كثير من الجغرافيين والرحالة المسلمين فى العصور الوسطى لاسيما المغاربة منهم والأندلسيون، تباروا فى وصفه، وأسبغوا عليه من فيض كتاباتهم ما جعله بحث أسطورة من الأساطير ومعجزة من معجزات العالم فممن وصفه من الجغرافيين : اليعقوبى، وابن الفقيه الهمذانى، والمسعودى وابن رسته، وابن حوقل، والبكرى، وياقوت الحموى، والحميرى، والمقريزى، والسيوطى، ومن الرحالة : الهروى، وابن جبير، وبنيامين التطيلى، والعبدرى، وابن سعيد المغربى، وابن بطوطة، وابن رشيد السبتى، والبلوى، ومن الباحثين الحديثين الفريد بتلر،

(١) الزهرى ، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، دمشق، ١٩٦٨، ص ٩٠، وانظر : السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الاسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد، مدريد، ١٩٨٦، عدد ٢٣، ص ١٨٤ وسحر السيد عبد العزيز سالم، مدينة قادش ودورها فى التاريخ السياسى والحضارى للأندلس فى العصر الاسلامى، الاسكندرية، ١٩٩٠، ص ٩، ٤٠.

وتيرش، وبريشيا . وقد اهتم تيرش بجمع معظم ما كتب عن المنار فى المصادر المختلفة لاسيما العربية منها، وانتهى برسم صورة للمنار ظهر فيها كبرج حجرى ضخم يبلغ ارتفاعه الكلى نحو ١٢٤ مترا، ويتألف من طابق رئيسى مربع الشكل تميل جدرانه إلى الداخل كلما ارتفعت، ويبلغ ارتفاعه ٦٠ مترا، وكان يضم بداخله عددا ضخما من الغرف يصل إلى ٤٠٠ غرفة، ويعلوه طابق مثمن الشكل ارتفاعه نحو ثلاثين مترا، ينتهى من أعلى بشرفة، ويعلوه طابق ثالث أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة من الجرانيت، تعلوها قبة بداخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران المشتعلة بالمواقد بأعلى المنار لهداية السفن الضالة فى البحر، ويتوج القبة تمثال ضخم من البرونز، يبلغ ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون. وكان يتخلل جوف المنار طريق صاعد يتسع لفارسين أو ثلاثة، يرقى الراقون من خلاله إلى أعلى المنار، «لايكاد الراقى يعلم فيه هل هو راق أو ماش»(١).

وظل منار الإسكندرية فى العصر الإسلامى موضع اهتمام كل من زار الإسكندرية من الرحالة المسلمين من القاصدين لأداء فريضة الحج من أهل المغرب والأندلس أو من طلاب العلم الذى يسعون إلى السماع على شيوخ العصر فى مختلف مراكز العلم بالمشرق الإسلامى أو التجار الذين يتنقلون فى أنحاء المشرق للتكسب بالتجارة، وواصل المنار أداء وظيفته التى أنشئ من أجلها وهى هداية السفن الضالة فى البحر إلى الأمان، ولكنه

(١) مجهول، «كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار» تحقيق د.. سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ٩٦.

تعرض لكثير من الأضرار التى سببتها الزلازل المتعاقبة، فقد تهدم طابقه العلوى فى سنة ١٨٠ هـ نتيجة زلزال عنيف تسبب فى سقوط رأس المنار، وظل كذلك نحو ٨٠ عاما دون ترميم إلى أن تولى أحمد بن طولون ترميمه بأن أقام بأعلاه قبه من الخشب لم تلبث أن تهدمت بعد فترة قصيرة من إقامتها بفعل الرياح العاتية والعواصف(١)، كما تهدم جزء من زاوية المنار الغربية مما يلى البحر فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون، فجدد بناءها(٢). ويذكر المسعودى أن ما يقرب من ثلاثين ذراعا من أعلى المنار تهدم بتأثير الزلزال العنيف الذى حدث فى أيامه فى شهر رمضان من سنة ٣٤٤هـ(٣)، وقدر للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس أن يقوم ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته الرابعة لثغر الإسكندرية فى سنة ٦٧٣هـ، فرتب البناء على الممشى الذى يدور حول المنار من أدناه عند المطلع(٤)، وأقام مسجدا بأعلى المنار فى الموضع الذى كانت تشغله القبة الطولونية(٥).

كانت أعمال الترميم والإصلاح التى أمر الظاهر بيبرس بتنفيذها ضرورية للحفاظ على سلامة المنار، فقد ذكر السيوطى أن وجه المنار البحرى

(١) جلال الدين السيوطى، كتاب حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، مصر، ١٣٢١هـ، ص ١٤٧ – تقى الدين المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، ج١، ص ١٥٧ وما يليها. (والنص الذى اعتمد عليه السيوطى منقول من كتاب مباهج الفكر).

(٢) المسعودى، كتاب التنبيه والاشراف، طبعة بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٨.

(٣) المسعودى، المصدر السابق.

(٤) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق د. قسطنطين زريق، مجلد ٧، بيروت، ١٩٣٨، ص ٣٥ – المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦١٦.

(٥) المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٧٧.

كان قد تداعى، كما تداعى الرصيف الذى كان يتقدمه من جهة البحر، وكادا يتهاويان .. ومع ذلك فإن هذه الإصلاحات التى أجريت على المنار لم تجده نفعا بعد زلزال ثالث تعرضت له مصر فى سنة ٧٠٢ هـ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وأحدث أضرار جسيمة بعمران الإسكندرية، وكان من العنف بحيث تسبب فى إنهيار قطاع من السور البحرى يشتمل على ٤٦ بدنة و ١٧ برجا، وأتلف مد البحر قماش التجار بالقصارين(١)، كما تسبب فى طغيان مياه البحر على عمران الإسكندرية(٢)، وأدى تلاطم الأمواج واصطدامها بالجدار البحرى للمنار إلى سقوطه(٣). فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى العام التالى ٧٠٣هـ. ويبدو أن اصابة المنار كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم، فلم يلبث أن أنهار قسم من الجانب البحرى من المنار بعد سنوات قليلة، ولم يحاول السلطان الناصر محمد بن قلاوون اصلاحه مرة أخرى، ربما لفداحة الأضرار التى ترتبت على الزلزال وتساقط أجزاء كثيرة من الترميمات، ويبدو أنه شرع فى إقامة منار مثله بازائه(٤)، فعاقه الموت عن إتمامه(٥). وقد شاهد الرحالة المغربى ابن بطوطة

(١) أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، صيدا، ١٩٥٩، ص ٦٠.

(٢) ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة أن البحر طلع «إلى نصف البلد وأخذ الجمال والرجال وغرقت المراكب» (السيوطى، المصدر السابق، ج٢ ص ٢٧٨).

(٣) كان تأثير الزلزال على المنار بالغا، فقد ذكر المقريزى فى السلوك أن المنار انشق وسقط من أعلاه نحو الأربعين شرفة (السلوك، ج١، قسم ٣، ص ٩٤٣).

(٤) ذكر النويرى السكندرى أن صلاح الدين خليل بن عرام والى الإسكندرية فى سلطنة الأشراف شعبان أقام حصنا دائرا حول أساس هذا المنار الجديد الذى لم يكن العمل قد استكمل فيه وركب لهذا الحصن بابا ضخما اقتلعه القبارصة أثناء غزوتهم للإسكندرية فى سنة ٧٦٧هـ.

(٥) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة دار صادر - بيروت، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢١.

جانبا مهدما من المنار فى أثناء زيارته الأولى للإسكندرية سنة ٧٢٥هـ ثم شاهده عند زيارته الثانية لها فى سنة ٧٥٠ هـ وقد «استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه»[١]. ولم يبق من المنار فى زمن النويرى السكندرى (سنة ٧٧٥هـ) سوى أطلال دارسة قائمة على أسسه، التى ظلت قائمة حتى أيام المقريزى[٢]. وفى عهد الأشرف قايتباى استغل هذه الأسس الباقية من المنار لبناء قلعته المشهورة الموسومة باسمه حماية للاسكندرية من أى غزو بحرى يتعرض لها من البحر خاصة بعد أن ساءت علاقاته بالدولة العثمانية فتم بناء القلعة ٨٨٤هـ[٣].

كان منار الاسكندرية بحق هداية للقادمين إليها من البحر، فقد كان المؤشر لنهاية رحلة العذاب التى يجتازها المسافرون فى البحر، إذ كان ارتفاعه الشاهق مرشدا لقادة السفن المقبلة من بعيد والمتجهة الي ثغر الإسكندرية وعلى مسافة تزيد على سبعين ميلا إلى بر الأمان[٤]. ذلك أن أرض الإسكندرية تخلو من المرتفعات، وظهور المنار للسفن القايمة سواء

(١) ابن بطوطة ، نفس المصدر، ص ٤٠.

(٢) المقريزى، الخطط، ج١، ص ٢٧٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٤٥٨.

(٤) ذكر بنيامين التطيلى أن منار الإسكندرية كان فى زمنه ما يزال يهدى السفن القادمة والرائحة، ويشاهد على بعد مائة ميل نهاراً، وكان ينبعث منه أثناء الليل ضوء ساطع يهتدى به الملاحون. ويذكر أركولف المتوفى سنة ٦٨٠ هـ أن المسافرين فى البحر كانوا يشاهدون المنار من مسافات بعيدة، وكان يشتغل فيه بعض الأفراد، يقومون بإشعال المشاعل التي كانت ترشد الملاحين إلى البر، ويريهم المدخل إلى الميناء. وقد أشار اليعقوبى إلى هذه المواقيد وذكر أن على المنارة مواقيد توقد فيها النيران، إذا نظر النواظير إلى مراكب فى البحر إلى مسافات بعيدة.

أثناء النهار بارتفاعة الشاهق، أو أثناء الليل بالأضواء التي ترسلها المواقيد بأعلاه، كان يعين الملاحين على الوصول إلى بر الإسكندرية. وكثيرا ما أنقذ منار الإسكندرية في العصر الاسلامي سفناً كانت قد ضلت طريقها الي الثغر ، وتلاعبت بها العواصف والأنواء ، وعرضتها لغرق محتوم ، ولكن رؤية ركابها وملاحيها للمنار كان ينقذها من هذا المصير،

ويهمني أن أعرض رؤية بعض الرحالة المغاربة للمنار، فاخترت منهم رحالتين وصلا الي الثغر السكندري عن طريق البحر ، أولهما أندلسي هو أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي المعروف بابن جبير، الذي زار الإسكندرية في عهد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[(١)]، والثاني مغربي من أصل أندلسي غرناطي هو أبو البقاء خالد بن عيسي البلوي الذي رحل إلي الحجاز لأداء فريضة الحج في ١٨ صفر سنة ٧٣٦ هـ وأبحر من تونس الي الإسكندرية وشاهد المنار السكندري قبل انهياره تماما بسنوات معدودة، وقد عبر كل من الرحالتين بصدق عن حالة اليأس والقنوط من النجاة التي كانت تسيطر علي ركاب سفينتيهما وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك ، الي أن ظهر منار الإسكندرية ، فنزل خبر ظهورة بردا وسلاما عليهم، واستشعروا عند رؤيتهم له علي بعده بالأمان، ويشهد بذلك الرحالة الأندلسي ابن جبير في قوله : «ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها (أى الإسكندرية) المنار الذى وضعه الله عز وجل على يدى من سخر لذلك آية

(١) سجل ابن جبير ملاحظاته عن المنار والدور الذى يقوم به فى رحلته الأولى الى المشرق فيما بين عامى ٥٧٨هـ، ٥٨١هـ (السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ٢٢٠ وما يليها).

للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلا»[١].

ويقول فى موضع آخر عند وصوله إلى الإسكندرية فى رحلته الأولى: «وفى صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور (شهر مارس سنة ٥٧٨ هـ) أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمدا يقتضى المزيد من فضله، وكريم صنعه»[٢].

كذلك يشهد الرحالة المغربى الأندلسى خالد بن عيسى البلدى فى رحلته إلى المشرق الإسلامى فى سنة ٧٣٦ هـ الموسومة بتاج المفرق فى تحلية علماء المشرق بدور منار الإسكندرية فى هداية السفن إلى بر الأمان، وذلك بعد صدوره من قبرص فى طريقه إلى الإسكندرية، يصور البلوى حالة اليأس والقنوط التى استولت على ركاب سفينته، وذلك عندما أيقن الجميع بالهلاك، إلى ظهر منار الإسكندرية فاستشعر المسافرون عند رؤيته بالأمان، وفى ذلك يقوم البلوى : «فما انفصلنا عنها (يقصد جزيرة قبرص) إلا وقد أدركهم الجهد والإعياء، ولحقهم العطش الشديد والعناء، وقد كانوا رموا جميع ما كان بقى لهم من الماء المعد للشرب، فطلبت قطرة من الماء توجد، فما رض ضلوعى، ولا فضر دموعى إلا أطفال يضطربون بالبكاء، ويستغيثون من العطش ومن الماء حتى أشرف الناس على الهلاك بالعطش، وتجرع

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليام رايت، ليدن، ١٩٠٧ص ٤١.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ٣٨.

بعضهم من ماء البحر، فكنت أراهم مطروحين يعالجون سكرات الموت، فتمكن اليأس، وعظم البأس، وسقط فى أيدى الناس فضجوا بالدعاء ونقص لهم النصف من تلك الجرعة التى كانوا يأخذونها من الماء، واختلفت إليهم أنواع الهلاك والبلاء، فلما رأيت تلك الشدة، جمعت الأصحاب من قراء القرآن، فاجتمع منهم نحو الثلاثين رجلا، فقلت لهم ما لنا إلا الالتجاء إلى الله عز وجل، وأتوسل إليه بكتابه وبرسوله، فصلينا العشاء الأخيرة، وقسمت عليهم القرآن مجزءا، وأقمنا على التلاوة والقراءة ليلتنا تلك، فلم يكن إلا أمد يسير وشفع الله فينا كتابه العظيم ونبيه الكريم، وهبت ريح سرنا بها حتى أنعم الله سبحانه وظهر منار الإسكندرية، فأعلم الناس بذلك، فضجوا سرورا بالدعاء والبكاء، وأعلنوا بالحمد والشكر لله تعالى والثناء، وكادوا أن يقضى عليهم ذلك الأمل، ومن فرح النفس ما يقتل.

خفقت قلوبهم سرورا بعدما ∴ باتوا بأفئدة يراع خوانق

فما رأيت قبلها بشارة أحلى فى النفوس، وأوقع فى القلوب، ولا أعظم سرورا من سرور الخلق بها فى تلك الساعة، وما ظنك بساعة أعلنت بالكرم والجود، وأعلمت بالخروج من العدم إلى الوجود، وفيها نطق لسان الشكر بما تيسر على الفكر، فقلت :

بشراكم لاح المنار الأسعد ∴ ودنا على اليأس المرام الأبعد

وتنفس الكرب الذى كنا به ∴ فى حالة البلوى نقوم ونقعد

وافتر من إسكندرية ثغرها ∴ الوضاح فهو منظم ومنضد

... وأقبلنا الساحل قاصدين تائبين من ركوب البحر أبد الآبدين»[1]

لم يكن غريبا أن ترسخ صورة منار الإسكندرية فى مخيلة المسافرين بحرا من أهل المغرب والاندلس إلى الإسكندرية، وكان من بينهم تجار وصناع وعرفاء بناء، ففيه يتمثل طوق النجاة من الغرق أو الهلاك، وكان طبيعيا أن يصبح منار الإسكندرية أنموذجا صارخا قلدوا صورته التى ارستموها فى مخيلتهم سواء من حيث المظهر الخارجى العام بأبراجه الثلاثة المتراكبة، كما يتمثل فى صومعتى جامع القيروان وجامع سفاقس، أو من حيث تكوينه الداخلى كما هو الحال فى الصوامع التوأم الثلاثة من عصر الموحدين لجامع الكتبية بمراكش، وجامع القصبة الكبير بإشبيلية، وجامع حسان بالرباط : ففى هذه الصوامع الثلاثة يرتقى الراقون إلى أعاليها عبر طريق صاعد يدور حول النواة الداخلية التى تشغلها غرف متراكبة الواحدة فوق الأخرى على غرار ما كان يحتويه منار الإسكندرية مع الفارق الكبير فى عدد غرف هذا المنار. وقد وصف المؤرخ المغربى عبد الواحد المراكشى، الذى كان معاصرا للموحدين صومعة جامع حسان بالرباط، فذكر أنها «فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيها بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها»[2].

وتتفق كل من صوامع الرباط ومراكش وإشبيلية الثلاثة - رغم

(١) البلوى، تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ج١، ص ١٦٩.

(١) عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

اختلاف مواد البناء – من حيث التخطيط الداخلي، حيث يدور حول النواة المركزية المربعة التى تشغل قلب الصومعة وتضم غرفا مقببة متراكبة، طريق صاعد أكثر اتساعا فى صومعة جامع حسان بالرباط عنه فى صومعة جامع إشبيلية، كما تتفق فى التشكيلات الزخرفية القائمة على شبكات المعينات المنبثقة من عقود مفصصة أو ثعبانية الشكل، ويتمثل الاختلاف بين هذه الصوامع الثلاثة بالإضافة إلى مواد البناء، فى عدد الغرف المتراكبة بكل منها، وفى أن صومعة جامع إشبيلية بزخارفها الرأسية ورشاقتها توحى بالصعودية بخلاف الصومعتين المغربيتين، وفى طول قاعدة كل منها[1].

ومن الواضح أن اشتراك الصوامع الثلاثة فى الطريق الصاعد يؤكد أن عرفاء البناء الموحدين الذين أسهموا فى بناء هذه الصوامع ومنهم على الغمارى وأحمد بن باسه وأبو داود جلداسن امتثلوا منار الإسكندرية الذى كان مصدر الإلهام فى استخدامهم للطريق الداخلى الصاعد بدلا من الدرج وفى ضخامة بنيان هذه الصوامع وارتفاعها الكبير وفى الغرف الموزعة فى النواة المركزية، وهذا يفسر فى حد ذاته أن هذه الصوامع كانت فى نفس الوقت مآذن لمساجدها الجامعة ومنارات للهداية إلى المدن التى أقيمت فيها، يراها المسافرون من البركما يرونها من البحر بالنسبة لمنارة جامع حسان.

(١) تتخذ قاعدة صومعة جامع إشبيلية شكل مربع طول كل جانب منه ١٣,٦٥ متر بينما يصل طول الجانب الواحد من قاعدة صومعة جامع حسان ١٦,١٥ متر.

تخطيط ومواقع الإسكندرية القديمة وتطورها
حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى *

دكتــور

محمد عبد الحميد الحناوى

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

مدينة الإسكندرية

كان أهم وأخلد أعمال الإسكندر الأكبر فى مصر بعد دخول البلاد بجيوشه، هو بناء مدينة الإسكندرية فى عام ٣٣٢ ق.م. فوق موقع قرية راقودة (راكوتيس Rachotis) القديمة، والتى كانت موجودة ضمن عدد آخر من القرى المصرية القديمة فى تلك المنطقة المحصورة بين بحيرة مريوط جنوبا وساحل البحر المتوسط شمالا فى غرب الدلتا. وهناك من الأدلة التاريخية ما يشير إلى أن هذا الموقع كانت له أهمية بالنسبة لمصر الفرعونية إذ يقول استرابون Strabon عن هذا الموقع أن الملوك المصريين أقاموا به حامية عسكرية لحمايته من إغارة شعوب البحر وخاصة الإغريق.

ويتضح من نص سترابون أن موقع الإسكندرية القديم كانت له أهمية عسكرية زمن المصريين القدماء، وأن حامية عسكرية أقامت بموقع قرية راقودة التى كانت تتزود بالمياه العذبة من قناة تمتد غربيا من الفرع الكانوبى للنيل عند موقع يقال له شيديا Schedia ويعنى المعدية(١).

وبالإضافة إلى موقع الإسكندرية الإستراتيجى الذى اختاره الإسكندر لها فوق موقع راقودة القديم، فإن هذا الموقع كان يواجه فى البحر جزيرة قريبة من الساحل هى جزيرة فاروس Pharos(٢). التى تم توصيلها فيما بعد بالساحل بواسطة جسر كبير Heptastadium تمتد عليه قناة لتوصيل الماء العذب إلى الجزيرة بعد استيطانها، وبذلك أمكن إنشاء مينائين كبيرين، أحدهما الميناء الشرقية، والآخر الميناء الغربية العود الحميد Eunostos).

وقد عهد الإسكندر إلى مهندسه دينوقراطيس Deinocratis بتخطيط المدينة على النمط الأثينى حسب قواعد هندسة المدن الإغريقية كما عرفت فى القرن الرابع ق.م. مثل مدينة بيرايوس (ميناء بيريه)[٣] وقد رأى الإسكندر هذا التخطيط بنفسه على الطبيعة وأقره، ثم كلف وزير ماليته فى مصر كليومينيس بالإشراف على تشييد المدينة الجديدة[٤].

وتقع مدينة الإسكندرية على خط طول ١٢ ٣٠، وخط عرض ٣ ٢٧ وأرضها عبارة عن شريط ضيق من المرتفعات المتناثرة المحصورة بين البحر المتوسط شمالا، وبحيرة مريوط جنوبا.

ويرجع الفضل فى معرفتنا لتخطيط المدينة ومعالمها فى عصرها القديم إلى المهندس المصرى محمود باشا الفلكى الذى عهد إليه الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٥م (١٢٨٢هـ) بدراسة طبوغرافية المدينة، ورسم خريطتين لهما أحدهما توضح معالمها القديمة، والأخرى لمعالمها الحديثة إبان عصر إسماعيل، وكانت الإسكندرية قد شهدت كثير من الأحداث الحربية فى عصورها المختلفة أثرت على نموها العمرانى والبشرى، فبعد أن كانت مدينة مزدهرة عاصمة للحضارة الهللينستية فى الشرق، أصابها الضعف والاضمحلال، وظل حجمها ونشاطها يتقلص تدريجيا خلال العصر الإسلامى حتى أصبح عمرانها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى لا يتعدى الشريط المحصور بين الميناءين الشرقى والغربى لدرجة أن صار عمود السوارى (بومبى) الذى كان يقع فى قلب المدينة فى عصرها القديم بعيدا عن عمرانها بنحو ألف وخمسمائة متر تقريباً[٥].

أحياء المدينة وتطورها حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى

لم يتمكن الإسكندر من مشاهدة مدينته التى وضع أساسها وتخطيطها، لكن الفضل فى استكمال إنشائها يرجع إلى مهندسه دينوقراطيس Deinocratis حيث كانت خطة الإسكندر فى تأسيس المدن واضحة وبسيطة وهى عبارة عن مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب وينقسم إلى شوارع مستقيمة متوازية تتقابل مع الشوارع الممتدة من الشمال إلى الجنوب على شكل زوايا قائمة، وبذلك ينتج عن هذه الخطوط مربعات صالحة لإقامة المبانى والمنازل عليها، وكانت تمتد على جانبى كل شارع من الشوارع الرئيسية مجموعة من البوائك والعقود ذات الأعمدة والتماثيل لإضافة بعض اللمحات الجمالية لشوارع المدينة، ولحماية المارة من وهج الشمس(٦).

وقسمت المدينة طبقا لهذا التخطيط إلى خمسة أحياء سميت بالأحرف الهجائية الأولى فى اللغة اليونانية وهى (ألفا - بيتا - جاما - دلتا - أبسيلون)، وكان أهم هذه الأحياء ثلاثة هى :

أ) الحى الملكى : فى شرق المدينة، ويحده شارع السيما من الغرب، وحى اليهود من الشرق، وطريق كانوب من الجنوب والطرف الشرقى من الميناء الشرقية، ورأس لوكياس (السلسلة) من الشمال، واشتمل هذا الحى على القصور الملكية التى تشرف على الميناء الشرقى.

وفى هذا الحى أقيمت الأكاديمية أو دار الحكمة Museum، والمكتبة، والمسرح، وفى أقصى غرب الحى بنى معبد القيصرون Caesareum والذى أمرت ببنائه كليوباترا السابعة باسم ابنها من قيصر[٧].

وفى الجنوب الغربى من هذا الحى أقيم قبر الإسكندر (Sema) فى الشارع الذى حمل اسمه - كما يرجح معظم الباحثين - وحول قبر الإسكندر أقام البطالمة قبورهم فى الموقع المعروف بـ «البانيوم»[٨]، وإلى الشرق من البانيوم كانت توجد دار الحكمة، والجمنازيوم (الملعب)[٩].

ب) حى الدليا : ويقع إلى الشرق من الحى الملكى، وهو حى اليهود، وبه مقابرهم، وظلوا يشغلون هذا الحى طوال العصرين اليونانى والرومانى حيث بلغ عددهم نحو ثلث عدد سكان الإسكندرية فى العصر الرومانى[١٠].

جـ) الحى الوطنى : يقع فى الجنوب الشرقى من المدينة حيث تقع قرية راكوتيس القديمة[١١]، وفيه أقيم معبد السيرابيوم الذى أقامه البطالمة فوق هذا المرتفع ليكون مقرا لعبادة «سرابيس»، ثم أنشئت فيما بعد فى هذا الموقع مكتبة صغيرة[١٢].

أما شوارع الإسكندرية فى العصرين اليونانى والرومانى فهى : الشارع الكانوبى نسبة إلى كانوب (أبو قير)، ويمتد من شرق المدينة إلى غربها، وفى نهايته من الشرق باب الشمس أو باب كانوب[١٣]، وفى نهايته من الغرب باب القمر. أما الشارع الثانى فهو شارع السوما Soma ويقطع الشارع الكانوبي فى منتصفه تقريبا، ويمتد من شمال المدينة عند الميناء الشرقية مع بداية الهيتباستاد، حتى جنوبها، وكانت كل الشوارع موازية

لهذين الشارعين[١٤]، وتحمل أسماء أفراد من الأسرة المالكة، وقد عثر محمود باشا الفلكى على بقايا قطع البازلت الأسود أو الأصفر الذى كان يغطى أرضيه شوارع المدينة القديمة.

أما فى العصر الرومانى فقد أصبحت المدينة عاصمة لإحدى الولايات التابعة للإمبراطورية الرومانية، ولم يحل هذا دون النمو المضطرد لها وحتى أواخر العصر الرومانى عندما أصيبت ببعض التغيير والتخريب لمعالمها عندما انتشرت المسيحية فى مصر بصفة عامة. وفى الإسكندرية بصفة خاصة، وأدت الحوادث السياسية المتتالية من نزاع بين الرومان والبطالمة، ثم النزاع بين الروم الوثنيين والمصريين المسيحيين، وبين الروم الملكانيين واليعاقبة المصريين، كل ذلك أدى إلى تخريب كثير من معالم المدينة الهامة[١٥]. وكانت مقدمات الاضمحلال قد سبقت الفتح العربى بفترة طويلة، فانكمشت مساحتها نحو الغرب والشمال، وحتى أصبح طولها من الشرق إلى الغرب لا يزيد كثيراً على ثلاثة كيلومترات، وأصبح عمرانها فى العصر العربى يقتصر على المساحات التى تشغلها فى الوقت الحاضر أحياء العطارين والمنشية واللبان فقط، وأصبحت مساحة المدينة بأسوارها لا تشغل أكثر من خمس مساحتها فى العصرين البطلمى والرومانى[١٦]. وسارت المدينة نحو التأخر والاضمحلال فى عهد الدولة المملوكية والعصر العثمانى، وظلت هكذا حتى أوائل عهد محمد على، إذ انحصر النطاق السكنى لأهالى المدينة فى المنطقة الحديثة الواقعة بين الميناءين والتى عرفت بالمدينة التركية[١٧] والتى ضمت عددا كبيرا من الأخطاط (الأحياء) وهى عبارة عن

شوارع ضيقة وحارات ترابية، وبها حوالى ثلاثمائة.وخمسين منزلا وعددا كبيرا من المساجد والزوايا الصغيرة، واشتملت على العديد من الأخطاط والحارات تمكن الباحث من حصر معظمها من خلال سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية وهى :

خطط المزار وهو المنطقة التى يقع فيها مقام سيدى أحمد أبى العباس المرسى وإلى جواره مدافن المدينة المواجهة للميناء الشرقية، ثم خط الديوان (الميناء) وبه مقار القنصليات الأجنبية ومبانى الجمارك وهى تشرف على الميناء الشرقية (الحالية)، وخط سيدى ياقوت العرشى إلى جوار سيدى أبى العباسى، وخط سيدى محمد الأباصيرى (البوصيرى) وخط حارة الغيط قرب ضريح سيدى ياقوت العرشى، وخط السبع قرن، وإلى جواره خط زاوية الشبراوية، وخط حارة البلقطرية، وخط المحكمة القديمة.

وفى شمال المدينة يوجد خط حارة الصيادين، وحارة النصارى، وخط حارة الأفرنج على مشارف الميناء الشرقية، يليه من الداخل خط حارة الشمرلى، وخط أولاد الدرى، وخط زاوية مطاوع، وخط الشيخ عبد السلام الصباغ، ثم خط السيالة، وخط حارة الفراهدة، وخط السويقة، وخط ابن عثمان، وخط جميعى وأولاد العشار، وخط أولاد النقلى، وخط العيلاوى، وخط جامع التمرازية، وخط أولاد الكاتب، وخط البرهانية، وخط الشيخ سليمان العلاف، وخط السمك، وخط الزقاق المبلط، وخط جامع القاضى، وخط حارة المغاربة، وخط حارة اليهود.

وفى أقصى جنوب شرق المدينة (التركية) نجد خط باب البحر. أما فى

أقصى الغرب، وفى مواجهة الميناء القديم (الغربى) يطالعنا خط الترسخانة حيث يقع مبنى دار صناعة السفن، وإلى الداخل منه نجد خط كوم الناضورة، وخط الحداد[١٨].

ولقد بنيت بعض منازل ومبانى المدينة الحديثة (التركية) من الطين والتبن. أما أغلبها فمن الحجارة الرملية ومونتها من الجير والرمل، حيث يدخل ضمن عناصر مكوناتها الأعمدة المأخوذة من المبانى الأثرية وأطلال الإسكندرية القديمة بالاضافة إلى الكتل الجرانيتية التي جلبت من طيبة وممفيس أثناء العصر اليونانى الرومانى[١٩].

وكان التكدس العمرانى واضحا فى المنطقة الواقعة بين الميناءين قرب الحصار الأشرفى (قلعة قايتباى) باستثناء شبه جزيرة رأس التين (فاروس القديمة) التى كانت خالية تقريبا من المساكن اللهم من بعض أشجار التين ومزارع البطيخ[٢٠].

أما الجزء الآخر من مدينة الإسكندرية فيسمى بالمدينة العربية، وهو الجزء الأكبر من الإسكندرية ويقع داخل نطاق الاسوار العربية القديمة والتى تحيط بهذه المدينة وتبدأ من شرق ملستى كليوباترا ومعبد اليهود على شاطئ الميناء الشرقية وتتجه جنوبا إلى جوار مقابر اليهود، ثم تميل ناحية الشرق حتى طريق رشيد، وتأخذ اتجاه الجنوب الغربى حتى باب المقابر (القرافة)، ويستمر السور حتى الحصن الغربى (المثلث)، ليبدأ من جديد اتجاهه نحو الشمال ليلتحم بالبحر عند الميناء الغربية.

ولم يشغل هذا الجزء الكبير من مساحة الإسكندرية إلا بعض

التجمعات السكنية المتناثرة وخاصة فى خط كوم الدكة، والنطاق المجاور لباب رشيد لقربه من طريق القاهرة ورشيد، ووجود أضرحة عدد من أولياء الله الصالحين، ولم يتعد عدد منازل هذا الاطار السكانى خمسون منزلا، إلى جانب عدد قليل من المنازل بخط باب السدرة، وكانت أهم أخطاط هذه المدينة : خط باب رشيد، وخط شرقى، وخط سيدى أحمد المتيم[٢١].

الأســـوار

من المرجح أنه بدء فى بناء أسوار الإسكندرية فى عهد الإسكندر، وأتم بناؤها الحكام البطالمة، ثم زاد فى تحصينها الرومان فيما بعد.

وهذا السور هو الذى كان يحد المدينة المأهولة بالسكان فى عصرها القديم بأحيائها الخمس، حيث كان يبدأ غربا من نهاية طريق كانوب على مشارف الميناء الغربية Portus Eunostus، ويمتد محاذيا شاطئ البحر حتى رأس لوكياس (السلسلة) شرقا، ثم ينحدر جنوبا إلى أن تلاقى وقنال الإسكندرية (الخليج)، ثم يسير محاذيا للقنال إلى أن يتصل فى أقصى الجنوب الغربى بالنقطة التى بدأ منها. وكان عرض أساسات السور خمسة أمتار، وقد بنيت من الأحجار المجلوبة من محاجر المكس[٢٢].

أما خارج السور شرقا وغربا فكان رمالا ممتدة غير مأهولة بالسكان تتخللها أشجار النخيل، باستثناء المقابر خارج نطاق السور فى الجزء الشرقى منه جنوبى رأس لوكياس ومع تقلص حجم المدينة فى فترات لاحقة أعيد بناء هذا السور ليحيط بالمناطق المأهولة بالسكان، وتم تجديده فى عهد أحمد بن طولون سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣م، ثم أعيد تجديدة مرة أخرى فى عهد

صلاح الدين الأيوبي سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٢هـ[٢٣]. ومن خلال الخرائط التى رسمت للمدينة فى أواخر القرن السابع عشر نستطيع القول بأن الأسوار كانت تحيط بها من جميع الجهات وتضم ما يزيد على مائة برج للدفاع عنها، تخترق هذه الأسوار من الجنوب الشرقى قناة رئيسية قادمة من النيل تتفرع من هذا الجانب إلى نحو خمسة أفرع رئيسية تغطى جميع أنحاء المدينة يصب منها فرع فى أقصى الشرق فى الميناء الشرقية قرب السلسلة، وثلاثة أخرى تصب فى البحر فى وسط وأقصى غرب المدينة فى الميناء الغربية، وهذه الأفرع الرئيسية يتفرع عنها أخرى ثانوية أشبه بالقنوات الصغيرة لتوزيع المياه لرى «الجناين» بأنحاء المدينة، والتخزين فى الصهاريج والخزانات اللازمة لاستخدامات الأهالى.

كما نلاحظ من هذه الخرائط أن الجزء الشمالى من الأسوار المواجهة للبحر عبارة عن سورين متجاورين بينهما فاصل ليس كبيرا، والشق الأول الشمالى وهو الخارجى والمواجه للبحر أقل ارتفاعا من الآخر الداخلى المواجه للمدينة وذلك بهدف إعاقة الأعداء المهاجمين إذا ما تخطوا الجزء الأول من السور، فيتمكن حينئذ المدافعون عن الأسوار فى الجزء الثانى من إعاقتهم عن دخول المدينة. وهذا الجزء من الأسوار يحتوى على نحو عشرين برجا يحتمى به المدافعون[٢٤].

وفى ظل الحكم العثمانى تقلص حجم المدينة كثيراً عما كانت عليه من قبل فى العصر المملوكى حتى أصبح عمرانها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى محصورا بين الميناءين الشرقى والغربى، وينتهى حدود هذا العمران شمالا فى مواجهة شبه جزيرة رأس التين. وكانت كل المنطقة الواقعة بين

البحر المتوسط شمالا وحتى مقام ولى الله أبى العباسى المرسى بعضها مقابر وبعضها نقع، ولم يكن بها سوى بعض بيوت للصيادين بمنطقة السيالة، وأصبحت حدود المدينة من الجهة القبلية ذلك الحى المنشأ حديثا (المنشية) أو الحارة التى يقطنها المغاربة[٢٥] (خط المغاربة).

وتناقص عمران المدينة حتى بداية القرن التاسع عشر تناقصا ملحوظا، حتى أصبحت المدينة هى ذلك الجزء من الترسيبات الحديثة الواقع بين الميناءين والذى يمثل من قبل جسر الهبتاستاديوم (المدينة التركية)[٢٦] وترتب على ذلك أن أصبح سياج الأسوار العربية كبيرا عن حجم الكتلة السكنية للمدينة [٢٧].

ويستطيع المرء أن يتجه من المدينة الحديثة نحو الجنوب عن طريق أبواب مرتفعة أهمها باب البحر حتى الأسوار القديمة للمدينة، والتى لم تعد تضم سوى بقايا مدينة الإسكندرية القديمة فى عصرها البطلمى الرومانى، وهى عبارة عن أطلال أثرية لمبانٍ مدفونة تحت الأنقاض، وأعمدة مهشمة أو مقلوبة وبقايا من الفخار والزجاج والرخام[٢٨].

وظلت المدينة المأهولة بالسكان طوال العصر العثمانى، وخلال سنوات الحملة الفرنسية الثلاث، وحتى بداية عصر محمد على لا تشغل سوى تلك الرقبة الواقعة بين الميناءين والذى لا يزيد طولها من الشمال إلى الجنوب على كيلومتر واحد، وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو نصف كيلومتر فقط، وبقيت هكذا حتى بدأ محمد على يهتم بأمر الإسكندرية كمنفذ رئيسى لمصر من جهة الشمال لتتغير أكثر معالم المدينة عما كانت عليه من قبل.

أبواب المدينة

يبدو بوضوح للباحث مدى الفرق بين مساحتى المدينة قبل الفتح العربى إبان عصورها القديمة، وبعده فى عصرها الإسلامى من خلال دراستنا للخرائط التى رسمت لأسوارها خلال هذه الفترات، إلى جانب تلك الخرائط التى رسمها محمود باشا الفلكى[٢٩]. وقد بنيت للأسوار الجديدة أبواب تقابل الأبواب الأربعة القديمة، وإن كانت قد سميت بأسماء جديدة، فالباب الذى بنى فى أقصى الشرق مقابل باب الشمس أطلق عليه باب رشيد أو باب القاهرة لأنه طريق المسافر إلى مدينتى رشيد والقاهرة[٣٠].

والباب الذى بنى فى أقصى الغرب مقابل باب القمر أطلق عليه باب المقابر Cata Combes وعرف خلال العصر الإسلامى بباب القرافة لأنه كان يؤدى إلى مقابر (جبانة)، كما يؤدى إلى الميناء القديم (الغربى) عن طريق البرج الضخم الواقع إلى أقصى الغرب من السور قريبا من قلعة الركن أو القلعة المثلثة Triangulaire التى كانت على شكل مثلث داخل الأسوار الغربية[٣١].

والباب الثالث فى أقصى شمال المدينة هو باب البحر ويشرف على الميناء الشرقية مباشرة فى مواجهة المدينة الحديثة (التركية). أما الباب الرئيسى الرابع فهو باب العمود فى الجنوب، لأنه يشرف على عمود السوارى (بومبى)، وعرف كذلك بباب سدرة لوجود شجرة كبيرة من أشجار السدر إلى جوار هذا الباب[٣٢]. كما أطلق عليه فى العصرين الأيوبى والمملوكى «باب البهار»[٣٣].

ومع اتساع مساحة النطاق السكنى للمدينة الحديثة فيما بين الميناءين فتح باب جديد يقع إلى الغرب من باب البحر بجوار حارة البلقطرية قريبا من الميناء الغربية، عرف حتى أوائل القرن التاسع عشر بالباب الأخضر[٣٤].

وقد أقيمت هذه الأبواب الخمسة فى أبراج السور لكى تكون منافذ للداخل والخارج من المدينة، وللدفاع عن السور نفسه، ويغطى الواجهة الخارجية لمصراعى هذه الأبواب نصال حديدية مثبتة بمسامير رؤوسها بارزة ومتعددة الأشكال وإن كان حديدها قد تآكل بسبب الصدأ وأصبح مفتتا، بينما الأخشاب المصنوع منها الأبواب وهى أخشاب الجميز القوى ظلت على حالتها، وتوجد كتابات عربية بالخط الكوفى على واجهاتها تدل على زمن تشييدها.

وإبان الحكم الفرنسى للمدينة فى نهاية القرن الثامن عشر قام العسكريون الفرنسيون بفتح بابين جديدين فى جدران السور نفسه بخلاف الأبواب الخمسة التى كانت موجودة من قبل: الباب الأول بالقرب من الحصن المثلث (الركن) والذى يسمى حصن باب المقابر (العمود) فى أقصى الجنوب الغربى. أما الباب الثانى ففتح فى الاستحكام المجاور لكورتينة ملحقة بالحصن المثلث إلى الشرق من الأول وعرف بالباب الجديد، وهذين البابين الجديدين ليسا إلا ثملة (ثغرة) فى بدن السور[٣٥]، وكانت تفتح وتغلق بأبواب مثل الأبواب الرئيسية بهدف تأمين وتيسير خروج ودخول القوات الفرنسية فى أوقات الضرورة لإحكام السيطرة على المدينة.

وقد نشأت أخطاط جديدة إلى جوار هذه الأبواب سواء الرئيسية منها

أو الفرعية الجديدة، وعرفت بها مثل : خط باب البحر، خط باب رشيد، خط باب السدرة، خط الباب الأخضر(٣٦).

الحصون والقلاع

١- حصن (قلعة) الفنار:

وكان يطلق على هذه القلعة عدة أسماء منها قلعة الفنار **Le phare** لأنها أقيمت فوق موقع وعلى أنقاض الفنار على طرف نهاية شبه جزيرة فاروس حيث كان يوجد فنار الإسكندرية القديم الذى بناه بطليموس الثانى (٢٨٠-٢٧٩ق.م.)(٣٧). وقد بنيت هذه القلعة فى عهد الملك الأشراف أبى النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى سنة ١٤٧٩م، وقد استخدمت أحجار الفنار المنحوتة والمستخرجة من محاجر المكس مع الأعمدة الجرانيتية المجلوبة من أسوان(٣٨) فى بناء القلعة والمسجد المقام بها. ويبلغ سمك حوائطها ثلاثة أمتار فى بعض الجهات، وتشتمل على برج مربع الشكل بنيت علي جوانبه أربعة أبراج صغيرة، كما أن أطرافها الأربعة مقام عليها أربعة بروج بها مزاغل.

وتتكون القلعة من ثلاث طوابق: الطابق الأول والثانى مخصص للصلاة حيث يوجد الجامع، والطابق الثالث يحوى غرفا ذات مزاغل ومتاريس كان يوجد بها أكداس من الأسلحة المختلفة التى تراكم فوقها الصدأ وتدل أشكالها على أن بعضها أسلحة صليبية، والبعض الآخر من أسلحة حملة لويس السادس عشر(٣٩).

وإذا تأملنا الفن المعماري لهذا البناء نجد أنه اقتبس الأساليب البيزنطية في بناء الحصون والقلاع والذي كان منتشرا في عصر دولة المماليك البرجية؛ فهو يشبه بروج سور القسطنطينية، حيث أقام قايتباي حول قلعته سورا منيعا ذا أبراج ومزاغل ومكاحل لها معاش فسيحة(٤٠). ويداخل السور عدة مبان أعدت خصيصا لسكني جنود الفرق العسكرية المتمركزة في القلعة من «الأنفار والأغوات والجويجية» حيث أطلق السكندريون على تلك القلعة اسم «البرج الكبير الأشرفي»(٤١) ويتم الاتصال بالقلعة عن طريق جسر ضيق يحميه طريق مغطى وبه متاريس طولها (٥٥٠) مترا، بني هذا الجسر فوق سلاسل صخرية تستوي على سطح الماء تعلوه قطعا مفتتة من الأعمدة الجرانيتية ألقيت بشكل أفقي تؤدي إلى تحطيم وإضعاف قوة الأمواج(٤٢).

وقد ظلت هذه القلعة رمزا لقوة الإسكندرية ومنعتها؛ إذ أنها تحمي مدخل الميناء الرئيسي للإسكندرية (الشرقي)، وظلت هكذا حتى أصبح الميناء الغربي هو الميناء الأوحد للإسكندرية منذ عصر محمد علي.

٢-حصن المنارة Pharillon:

وهو حصن صغير يتخذ اسمه من موقعه تجاه حصن الفنار Phare، (قلعة قايتباي)، مقام على حافة شريط من الشعب الصخرية التي تغلق مدخل الميناء الجديد (الشرقي)، والذي يقوم حصن الفنار بالدفاع عنه(٤٣) ويرجع زمن إنشائه إلى عصر المماليك، على نهاية اللسان الداخل في البحر والمسمى بـ «السلسلة»، ولذلك أطلق عليه خلال العصر الإسلامي ببرج

السلسلة أو برج سيدى عبد الله[٤٤]. أما الجسر الذى يؤدى إلى هذا الحصن الصغير فهو فى مستوى مياه البحر التى تغطيه أحياناً. وبرج الحصن مربع الشكل، وظل قائما يؤدى دوره حتى نهاية القرن الثامن عشر، عندما خرب أثناء أحداث الحرب بين الفرنسيين وبين الحلفاء الإنجليز والأتراك فأصبح أثرا بعد عين مع بداية القرن التاسع عشر[٤٥].

٣-قلعة الركن:

هذه القلعة أطلق عليها الحصن المثلث Triangulaire لأنه كان يشغل مثلثا فى أركان الأسوار من الجهة الجنوبية الغربية للمدينة العربية[٤٦].

وكانت هذه القلعة محاطة بالحدائق (الجناين)، يحدها من الجهة البحرية (الشمالية) طريقا يقال له «الزقاق» يؤدى إلى مقام ولى الله سيدى عماد أو ما يسمى بالنجع الغربى للمدينة[٤٧]. كما تقع جنوب أحد أبواب الإسكندرية الرئيسية فى الغرب وهو باب المقابر Porte de Catacombes[٤٨].

أما فى داخل المدينة الحديثة (التركية) فيطالعنا برجان وحصن واحد هم:

١-البرج الظاهرى:

وأطلق عليه البرج الظاهرى لأنه يقع فى ظاهر المدينة التركية فى مواجهة الميناء الشرقية بجوار المقابر ومقام سيدى أحمد أبى العباس المرسى[٤٩]، وفى الحى المعروف بخط المزار الذى يقع فى نطاقه عدد من

أضراحة أولياء الله الصالحين، وهو أشبه بقلعة منفصلة عن أسوار المدينة العربية فى منطقة «بحرى جزيرة الثغر»[٥٠].

٢- برج مصطفى باشا:

ويقع قريبا من البرج الظاهرى ولكن تجاه الميناء الغربية لحمايتها، فى الحى المعروف بخط الصيادين، وهذا البرج يحمل الطابع المعمارى الإسلامى، وهو أكبر مساحة من البرج الظاهرى، ويفوقه من الناحية العددية للقوى العسكرية والحامية المتمركزة به، وبداخله مسجد خاص بهذه الحامية[٥١].

٣- قلعة كوم الناضورة:

وتقع هذه القلعة فوق التل المرتفع المشرف على الميناء الغربية، وهى عبارة عن برج صغير يستخدم كمرصد ونقطة استرشاد للمسافرين عند الاقتراب من الميناء، وارتفاعه من ٥٠-٦٠ مترا. وقد تكون هذا التل من بقايا أنقاض المدينة منذ عدة قرون سابقة على بداية القرن التاسع عشر، ويبدو أنه كان موجودا فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى[٥٢].

أما فى داخل إطار أسوار المدينة القديمة (العربية) فتطالعنا قلعة واحدة هامة هى :

قلعة كوم الدكة:

وتقع فى أقصى جنوب شرق المدينة، بالقرب من باب رشيد، فوق أحد مرتفعين بارزين فى حقل الخرائب داخل أسوار المدينة العربية، وارتفاعه

يصل إلى أكثر من خمسين مترا، وهذا المرتفع تكثر به أنقاض الآنية الفخارية القديمة، والمخلفات الأخرى التى يلقى بها سكان المدينة منذ القدم(٥٣) ولذلك أطلق عليه كوم الديماس (٥٤)، حيث يوجد هذا الحصن الذى يتولى حماية أطراف المدينة وخاصة من ناحية الجنوب الشرقى، ولم يلق الاهتمام الكافى فى الفترة السابقة على مجئ الحملة الفرنسية حيث تم تحصينه بعد ذلك تحصينا جيدا فى إطار الاهتمام بحصون وقلاع الإسكندرية(٥٥).

وأما فى خارج أسوار المدينة العربية من جهة الشرق فيوجد حصنين هما :

١- حصن معسكر قيصر Camp de Cesar؛

وهذا الحصن قديم قدم إنشاء مدينة الإسكندرية فأقيم فى أعلى المرتفع المعروف بمدينة النصر (نيكوبوليس Nicopolis) التى بناها الإمبراطور قيصر فى أقصى شرق المدينة تخليدا لذكرى إنتصاره على جيوش كليوباترا وأنطونيوس، وكانت مقرا لمعسكرات الجيش الرومانى منذ القرن الأول ق.م.، وكما وصفها سترابون فهى تقع على بعد ثلاثين ستاديون شرق الإسكندرية(٥٦) قرب شاطئ البحر، وقام الرومان بتحصين هذا الموقع تحصينا جيدا وعرف بـ «قلعة أو حصن القياصرة» كما أطلق عليه العرب «قصر القياصرة»(٥٧)، وظل هذا الحصن يؤدى دوره فى حماية شرق المدينة، وقد ورد بخريطة دانفيل D'Anville التى رسمها للإسكندرية عام ١٧٧٢م(٥٨).

٢- حصن أبو قير:

هذا الحصن هو آخر حصون شرق الإسكندرية ويقع داخل قلعة أبى قير القديمة الرابضة فوق قمة مرتفعة على رأس متقدم فى البحر يسمى بهذا الاسم[٥٩]، وكان أبناء الثغر يطلقون عليها «قلعة أبى قير العليا»، وكانت الطوائف العسكرية التى تتولى العمل بها تخضع لإشراف وإدارة حكام الإسكندرية، ومن المرجح أن عصر إنشاء هذه القلعة يرجع إلى زمن المماليك[٦٠].

ولنعد إلى أقصي الغرب للمدينة لنتعرف على أخر حصونها وهو :

- حصن العجمى (مرابط Marabout):

وهذا الحصن مقام فوق قمة السلاسل الصخرية فى أقصى الغرب على لسان يقع إلى الجنوب الغربى من خليج الميناء الغربية، والمسافة بينه وبين حصن الفنار (قايتباى) تبلغ نحو (١١،٧٢٨) مترا، وفى مواجهته توجد جزيرة العجمى، وترجع أهمية هذا المكان إلى المسجد الموجود بالجزيرة والمسمى بالشيخ العجمى[٦١].

مينائى الإسكندرية

١- الميناء الجديد (الشرقى)

هو الميناء الرئيسى للمدينة منذ إنشائها حتى أواخر القرن الثامن عشر، وكان يحده من الغرب «الهيتباستاد»، ومن الشرق رأس لوكياس (السلسلة)، وأطلق عليه فى العصر القديم «الميناء الكبير Portus Magnus» حيث تشرف على شواطئه الجنوبية والشرقية القصور الملكية(٦٢)، ويقع فنار الإسكندرية القديم على مدخله الغربى، الذى أقيم على أنقاضه قلعة وحصن الفنار (قايتباى)، لتحمى هذا المدخل، كما يحمى مدخله الشرقى حصن المنار Pharillon الذى أقيم على رأس لوخياس (برج السلسلة)(٦٣)، ويتخذ هذا الميناء شكل الخليج والتى بلغت طول فتحته فى أواخر القرن ١٨م نحو (١٧٨٩) مترا، وكانت هذه الفتحة تقل عن ذلك كثيرا فى العصر اليونانى، وتمتلئ بسلسلة من الشعب الصخرية والصخور التى لا ترتفع عن مستوى سطح الماء مما تجعل الممر الصالح لدخول السفن إلى الميناء لا يزيد اتساعه عن خمسمائة متر فقط، حيث يمكن للسفن العبور إلى داخل الميناء على بعد مسافة قليلة إلى الشرق من حصن الفنار بجوار الصخرة الموجودة فى مقدمة الفنار والمعروفة بالزمردة، والتى يمكن الاقتراب منها بشدة دون خطر، وتضطر السفن التجارية التى لا تستطيع القاء رواسيها فى الميناء، وتخشى دفع الرياح الشمالية والشمالية الشرقية الخفيفة، فى حالة النوات والعواصف الشتوية أن تتحول نحو الميناء القديم الغربى.

ويبدو أن الميناء كان عميقا فى العصر القديم، لكنه أصبح ضحل

العمق فى العصور التالية، يغص بالرمال والأحجار والمخلفات الأثرية التى ألقيت فيه خلال قرون عديدة مضت(٦٤).

٢-الميناءالقديم(الغربى):

وهو الميناء الغربى للمدينة والذى كان يطلق عليه سبروتس يونستس Portus Eunostus، حيث يقع إلى الغرب من رصيف الهيتاستاد، وكان أقل استخداما من جانب البحارة من الميناء الشرقى، ويقع إلى الجنوب من خليج فسيح يتكون من سلسلة صخور تختفى جزئيا تحت الماء ويظهر بعضها فوق السطح، ويمتد قاع هذه الشعب الصخرية من رأس الشيخ العجمى غربا وحتى رأس التين فى أقصى غرب شبه جزيرة فاروس شرقا حيث يوجد الفنار (قايتباى)، وبطول يصل إلى نحو (٨٣٠٠) متر(٦٥).

وقد كان دخول هذا الميناء محرما على السفن الأوربية (٦٦) حتى مجئ الفرنسيين فى نهاية القرن الثامن عشر، حينئذ سمح للسفن التجارية فقط من جميع الجنسيات الرسو فى أى من مينائى المدينة(٦٧).

وخلال العصر العثمانى كانت مباني الترسخانة والمخازن الخاصة بالبحرية تقع على شاطئ هذا الميناء(٦٨).

وهكذا يتضح لنا أن مدينة الإسكندرية قد مرت بثلاث مراحل انتقالية واضحة المعالم من ناحية تطور تخطيطها، وعمرانها منذ إنشائها وحتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى وهى :

١- المرحلة الأولى : وتمثل فترة ازدهار المدينة العمرانى والبشرى فى

العصر اليونانى الرومانى حيث بلغت أقصى اتساع لها داخل أسوارها القديمة التى اكتمل بناؤها على وجه التقريب فى العصر البطلمي وتنتهى هذه الفترة مع بداية الفتح العربى لمصر (٢١هـ/ ٦٤١م).

٢- المرحلة الثانية : وتمثل فترة انتقال من العصور القديمة إلى العصر الإسلامى بدءا من الفتح العربى (القرن الأول الهجرى - السابع الميلادى)، فتهدمت أسوارها القديمة وأعيد بناؤها إلى الداخل فى أغلب أجزائها نتيجة تقلص حجم المدينة وانخفاض عدد سكانها بعد بناء الفسطاط كعاصمة جديدة لمصر، ولم تعد الإسكندرية كما كانت من قبل، فتعرضت للغزو، والضعف، وانتقل مركز النشاط البشرى من المدينة العربية فى الجنوب والشرق إلى الشمال حيث المدينة الحديثة (التركية).

٣- المرحلة الثالثة : وهى المرحلة التى تبدأ بظهور تجمع سكانى جديد فى منطقة الهيتباستاد وهى الرقبة الرملية التى نشأت فيما بين الميناءين الشرقية والغربية لتصل بين المدينة القديمة جنوبا وجزيرة فاروس (رأس التين) شمالا وتعرف باسم المدينة التركية (الحديثة) منذ بداية العصر الفاطمي (ق ٤ هـ/ ١٠م) وتظل هذه المدينة تزداد نموا واتساعا حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما تبدأ أسوار الإسكندرية فى الانهيار بعد خروج الحملة الفرنسية وتولى محمد على السلطة، واهتمامه بتحصين السواحل والموانى دون الاسوار التى ستصبح أثرا بعد عين فتتلاشى معالمها تدريجيا داخل الاتساع العمرانى للمدينة فى عهد خلفائه.

الهوامش

١- د. مصطفى عبد الحميد العبادى : تاريخ الإسكندرية فى العصر اليونانى والرومانى، ص ١.

٢- رأس التين والأنفوشى الحالية.

٣- د. مصطفى عبد الحميد العبادى : المرجع نفسه، ص ١١.

لمزيد من التفاصيل عن الإسكندرية فى عصرها الأول :

د. زكى على : الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب - جامعة فاروق الأول (الإسكندرية)، العدد الثانى، ١٩٤٤.

٤- د. مصطفى عبد الحميد العبادى: المرجع السابق، ص ٣.

٥- د. جمال الدين الشيال : الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ص ١٩٦.

٦- د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص ٨.

7-Mahmoud El-Falaki; Mémoire Sur L'Antique Alexnadrie, P. 46.

٨- الحى الملكى يشغل الآن منطقة محطة الرمل والأزاريطة حتى كوم الدكة.

٩- د جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، المرجع السابق، ص ص ٩-١٠.

١٠- فؤاد فرج : الإسكندرية، ج١، ص ٢٨.

١١- منطقة كوم الشقافة الحالية وما يجاورها من أحياء شعبية.

12- Mahmoud - El-Falaki -; Mémoire Sur L'Antique Alexandrie, PP. 58-89.

د. جمال الدين الشيال : تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ص ١٠ - ١١٠.

١٣- باب الشرق (شرقى) أو باب القاهرة.

١٤- د. محمد صبحى عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية ص ص ٩٨ -٩٩، ١٠٢.

يشغل شارع كانوب الآن طريق الزعيم عبد الناصر (فؤاد الاول) وامتداده فى شارع سيدى متولى واسحاق القديم.

١٥- بتلر : فتح العرب لمصر، ص ٢٤٨.

١٦- د. محمد صبحى عبد الحكيم : المرجع السابق ، ص ص ١١٧-١١٨.

17- E.M. Forster; Alexandria, A History and guide, pp. 72-74.

١٨- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، سجلات أرقام : ٨٢، ٨٨، ١٠٦، ١٠٨، ١١٠، ١١، ١٠٩، ١٠٩ مكرر.

19- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, p. 522.

٢٠- يمكن الاطلاع على الرسوم وخرائط علماء الحملة الفرنسية.

أنظر Gaston Joudet, Op. Cit., PI. XVII.

٢١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية : سجلات أرقام : ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١٠٩.

22- Mahmoud El-Falaki, Op. Cit., PP. 12-13.

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١١.

23- Mahmoud El-Falaki, Op. Cit., P. 4.

د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

٢٤- أنظر خريطة أسوار المدينة فى هذه الفترة:

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١٦٠.

٢٥- د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ١٩٦.

26- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 399-400.

27- E.M. Forster; Alexnadria; Ahistory and guide, pp. 72-74.

28- Déscription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 408-409.

٢٩- أنظر : Mahmoud El-Falaki, Op. Cit.,

٣٠- د. محمد صبحي عبد الحكيم : مدينة الإسكندرية، المرجع السابق، ص ١٢٠.

31- Déscription de L'Egypte; T.XVIII, p. 418.

٣٢- د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة، المرجع السابق، ص ٢١٢.

٣٣- كان بهار الهند والشرق القادم إلى القاهرة عبر البحر الأحمر يحمل منها فى سفن تسير فى النيل، ثم خليج الإسكندرية، حيث تفرغه خارج أسوار الإسكندرية عند هذا الباب، وفى أوقات تعطل الملاحة فى الخليج، كانت تحمل هذا البهار قوافل من الجمال عبر الطريق البرى وتدخل من باب البهار بدلا من باب رشيد.

د. جمال الدين الشيال: الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، من كتاب الإسكندرية، الغرفة التجارية بالإسكندرية، ١٩٤٩، ص ص ٩٦-١٠٣.

٣٤- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٧٦، ٢٨٢، سجلات ١٠٦، ١١٢.

35- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 418.

٣٦- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١١٢، ١٧، ٣٦٢، ٢٨٢، سجلات ١٠٩ مكرر، ٨٨، ٧٥، ١١٢.

٣٧- فؤاد فرج : الإسكندرية ، مرجع سابق، ص ٦٤.

٣٨- لا تزال آثار وبقايا هذه الأعمدة موجودة حول قلعة قايتباى وفى المياه المحيطة بها وخاصة بالميناء الشرقية حيث تجرى الآن محاولات لاستخراجها.

٣٩- عبد الحميد رسمى: مذكرة عن طوابى مصر وحصونها (الجزء الخاص بقلعة قايتباى).

٤٠- عبد الحميد رسمى، المصدر نفسه.

٤١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٢٤٠، ١٢٨٨، ٢٣٣، سجلات ١٠٨، ١٠٩ مكرر، ١١٢.

42- Décription de L'Egypte,T.XVIII,pp.396-398,481-482.

43- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 432.

٤٤- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٣٧، سجلات ٧٥.

45- Idem.

46- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 416.

٤٧- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٢٨٣، ٣٠٠، ٣٧، سجلات ١٠٥، ٧٥، ٧٥.

٤٨- أطلق الفرنسيون على هذه القلعة اسم قلعة دوفيفية Fort Planches وذلك بعد احتلالهم للمدينة فى نهاية القرن الثامن عشر.

49- Gaston Jondet; Atlas Historique, Planches XXIV, XVII.

٥٠- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٥٠، ١٥١، سجل ١٠٩، رقم ١٥٧ سجل ١١٠.

51- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 399.

52- Ibid, p. 411.

عبد الحميد رسمى : المصدر السابق.

53- Décription de L'Egypte, T.XVIII, pp. 410-411.

٥٤- عبد الحميد رسمي : المصدر السابق.

٥٥- أطلق عليه الفرنسيون اسم حصن كريتان Crétin وهو كولونيل مهندس قتل في موقعه أبى قير البرية فى يوليو ١٧٩٩م :

٥٦- الاستاد يوم يساوى (١٨٦) مترا تقريباً:

د. مصطفى عبد الحميد العبادى : المرجع السابق، ص ٤.

57- Mahmoud El-Falaki; Op. Cit., P. 64.

٥٨- عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية ، ج، ص ص ١٩٥-١٩٦.

59- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 433.

٦٠- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ١٦٢، ٨٠، سجلات ١٠٩، ١٠٥.

61- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 440.

٦٢- أنظر خريطة الإسكندرية فى العصر الإغريقي الروماني عن :

د. جمال الدين الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، المرجع السابق، ص ١٥.

63- Décription de L'Egypte, T.XVIII, p. 396.

64- Ibid, PP. 395-396.

65- Ibid, PP. 390-394.

66- Ibid, P. 394.

٦٧- محمد عبد الحميد الحناوى : الإسكندرية فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١، ص ص ١٨-١٩.

٦٨- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية، أرقام ٥٤٢، ١٣٢، سجلات ١٠٦، ١١٠.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر غير المنشورة :

١- وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية (سجلات مبايعات)، المحفوظة حاليا بدار الوثائق القومية بالقاهرة.

٢- مذكرة محفوظة عن طوابى مصر وحصونها قديما وحديثا، محفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم (٩٠٠)، كتبها الملازم أول عبد الحميد رسمى صفى الدين، الضابط بمدفعية سواحل رأس التين بالإسكندرية في مايو ١٩٤٠م، ومهداة إلى حضارة صاحب السمو الأمير عمر طوسون باشا فى ٢٧ أكتوبر ١٩٤٠م.

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١- ألفريد بتلر : فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٣٣.

٢- د. جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٧.

٣- ــــــــــــ: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها منذ أقدم العصور، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، دار المعارف بمصر ١٩٤٩م.

٤- ــــــــــــ: تاريخ الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى، الإسكندرية، غرفة الإسكندرية التجارية ١٩٤٩م.

٥- د. زكى على : الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب، بجامعة الإسكندرية، ١٩٤٤، ١٩٤٥م.

٦- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الثانى، ط ٢، القاهرة، مطبعة النهضة، ١٩٤٨م.

٧- فؤاد فرج الإسكندرية، تاريخ المدينة القديمة ودليل المدينة الحديثة، ج١، ط٢، مطبعة المعارف بالقاهرة، ١٩٤٢م.

٨- د. محمد صبحي عبد الحكيم، مدينة الإسكندرية، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٥٨م.

٩- د. مصطفى عبد الحميد العبادي، تاريخ الإسكندرية في العصر اليوناني والروماني، محاضرات ألقيت على طلاب قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإسكندرية، ١٩٧٨-١٩٧٩م.

ثالثا: المراجع الأجنبية:

10- Décription de L'Egypte, T.XVIII, Panckoucke, Paris, 1821.

11- El-Falaki (Mahmoud Bey); Mémoire sur L'Antique Alexandrie, Copenhague, 1872).

12- Forster, E.M.; Alexandria, A History and Guide, Alexandria, 1938.

13- Jondet, Gaston, M.; Atlas Historique, Mémoire présentés a la Société sultanieh de géographie, T. II, le Caire.

رابعا: رسائل جامعية لم تنشر:

- محمد عبد الحميد الحناوي : الإسكندرية في عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ - ١٨٠١م، رسالة ماجستير لم تنشر، تحت إشراف أ.د. جلال يحيى، المنيا ١٩٨٥.

«الموضوعية والأمانة فى وصف الرحالة الأجانب» للإسكندرية فى العصور الوسطى *

دكتـورة

سهير محمد ابراهيم نعينع

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

لم تكن مدينة الإسكندرية مثل المدن الأخرى التى ولدت صغيرة وكبرت مع الزمن، بل لقد تصورها منشؤها مدينة كبيرة ... فبنيت أسوارها المحيطة ورسمت أحياؤها وشوراعها وخططت منذ البداية(١).

ونالت مدينة الإسكندرية إعجاب من زارها من الرحالة المسلمين والأوروبين على حد سواء(٢)، إذ أضفى عليها موقعها الفريد بين قارات العالم مكانة متميزة، فكانت أولى مدن العالم على عهد البطالمة الأول، وأصبحت بفضل موقعها وميناثها مركزاً لتجارة الهند، فكانت المحطة التجارية الهامة

(١) الفلكى (محمود باشا) : رسالة عن الإسكندرية القديمة وضواحيها والجهات القريبة منها التى اكتشفت بالحفريات وأعمال سبر الغور والمسح وطرق البحث الأخرى، الترجمة العربية لمحمود صالح الفلكى، مراجعة د. محمد عواد حسين، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٥٧، ص ١٢٩ - ١٣٠ وفيه : يتمثل النمو الذى ذكره ديودور الصقلى - كما قال لترون - فى زيادة عدد المبانى له المحيط الشاسع الذى رسمه وينوقرات وفى ذلك يقول أميين مارسللين باللاتينية :

Alexandria, Non Sensim Utaliaeubes, sedinter initia prima, auctac spatiosos ambitus.

«نمت الإسكندرية منذ ازلبداية واتسعتبفضل طموح أهلها العظيم ولم يكن نموها بالتدريج مثل المدن الأخرى».

(٢) وصفت الإسكندرية منذ البداية واتسعت بفضل طموح أهلها العظيم ولم يكن نموها بالتدريج مثل المدن المثال :

Arculf, Narrative About the holy places, Written by Adamnan, Book II in P.P.T.S., Vol III, P.P. 48-50;

ابن جبير : أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسى، رحلة ابن جبير، نشر دى غوية ط٢، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٧، ص ٤٠ ....

للتبادل التجارى بين الشرق والغرب[1].

ومكانة الإسكندرية معروفة منذ بنائها وكتبت عنها المؤلفات التاريخية العديدة ولست هنا بصدد إعادة الكتابة عن طبوغرافية المدينة، فقد قام بذلك العديد من المؤرخين المحدثين[2]. ولكنى سوف أخصص هذا البحث لعرض الرؤية الخاصة لبعض الرحالة الأوروبين البارزين وما سجلوه أثناء زيارتهم للإسكندرية عن معالمها الشهيرة ومنشأتها، خاصة وإن اهتمامات أولئك الرحالة تركزت بشكل أساسى حول تحصيناتها ومعالمها العسكرية، وربما فاق ما ذكروه عن هذه التحصينات فى دقة الوصف ما جاء فى كتابات كثير من الرحالة المسلمين[3].

(١) Arculf, op. cit., p. 49; بنيامين التطيلى (بن يونة النبارى الاندلسى)، الرحلة – ترجمها من العبرية إلى العربية عزار حداد، بغداد، ١٩٤٥، ص ١٧٨ – ١٧٩؛ ماركوبولو، رحلات ماركو بولو، الترجمة العربية (عن الترجمة الانجليزية لوليم مارسون) عبد العزيز جاويد، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٧م، ص ٣٢٧.

(٢) من المؤرخين المحدثين راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة؛ جمال الدين الشيال، الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، فصله من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢)، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢؛ تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف مطبعة دون بسكو، الإسكندرية ١٩٦٧؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ط٢، دار المعارف، مطبعة دون بسكو، الإسكندرية، ١٩٦٩؛ درويش النخيلى، دراسة جديدة فى طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الأشراف شعبان (٧٦٤ – ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ – ١٣٧٧م) الإسكندرية ١٩٨٨م.

(٣) راجع على سبيل المثال : ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية/ نشر دى غوية مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١م، ص ٧٩، ص ١١١٨؛ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) مسالك الابصار فى ممالك الأمصار، دولة المماليك الاولى: دراسة وتحقيق دوروتياكرافولسكى، المركز الإسلامى للبحوث، بيروت ١٩٨٦م ص ١٥٠. وغيرهم كثيرين لا يتسع المجال هنا لذكرهم.

ومن أبرز الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الإسكندرية الرحالة أركولف الذى قام برحلته فى سنة ٧٠٠م/ ٨١هـ وأمدنا بمعلومات وافية أكدت ما كانت تتمتع به الإسكندرية من رخاء وغنى لم ينتهيا بالفتح العربى، فقد ذكرها أركولف بأنها من أعظم المدن، بل فاقت شهرتها باقى المدن والماء يحيط بها من الشمال (البحر المتوسط) ومن الجنوب محاطة بفم النيل (خليج الإسكندرية[١]، وميناؤها يعد أكثر صعوبة من الموانئ الأخرى وهو يتخذ شكل الجسم الآدمى حيث يكون متسعا أعلى وأسفل ضيقاً فى المنتصف[٢] ويصف أركولف مينائى الإسكندرية وصفا دقيقا حتى عد هذا الوصف دليلا لبحارة السفن يسترشدون به، فهو يصف الناحية اليمنى من الميناء مشيراً لفنار الإسكندرية الذى يقع فوق جزيرة صغيرة وأطلق على الفنار اسم فاروس (وهى تسمية إغريقية) والذى يمكن رؤيته من مسافة بعيدة[٣]. ولكى

---

(١) Arculf , op. cit., P. 48, 49.

وخليج الإسكندرية هو مصدر المياه العذبة اليها، ونشأ به الطريق التجارى الموصل إلى داخل البلاد، وكان يسير محاذيا لسور الإسكندرية الجنوبى وعلى بعد ثلاثة أمتار منه إلى أن يصب فى الميناء الغربى أسفل حوض الميناء المقفل (الصندوق Kibotos)، راجع : على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة، جـ٧، ط أولى ، المطبعة الكبرى الاميرية، بولاق مصر المحمية، ١٣٠٥م، ص ٤٥؛
Breccia (E.) Alexandria and Aegyptum, Bergamo, 1914, p. 67.
وكان هذا الخليج يمد المدينة بالمياه العذبة عن طريق ما يتفرع عنه من قنوات تملأ الصهاريج التى كانت تنتشر بالمدينة : راجع خرائط رقم ١، ٢ الملحقة بهذه الدراسة.

(٢) Arculf , op. cit., P. 48.

ذكر أركولف الميناء المقفل (الميناء القديم أو ميناء الصندوق) بأنه يحتوى على احواض السفن وكانت تصب فيه ترعة صالحة للملاحة وتمتد حتى بحيرة مريوط. راجع تعليقات ناشر رحلة اركولف فى p.p.t.s. III, p. 49 ؛ وانظر ايضا الفلكى : الإسكندرية القديمة ص ١١١.

(٣) اشار أركولف الى الميناء الشرقى الذى كان مخصصا للأجانب وإلى الميناء الغربى (الميناء الحربى). ولكنه لم يحدد المسافة التى يرى منها ضوء المنار. ويعدو وصفه للمنار وصفا موجزاً إذا

يتسنى للبحارة تحديد مدخل الميناء جيداً فلا بد من إشعال النار عن طريق حرق قطع من الخشب فى مقدمة السفينة حتى يمكنهم اتخاذ مسار بعيد عن الصخور المختبئة تحت الأمواج وتجنب الاصطدام بها. والميناء ضيق من جهة اليمين وأكثر اتساعا من جهة اليسار، وتوجد حول الجزيرة عوارض خشبية ذات احجام كبيرة وضعت كمصدات لأمواج البحر، وذكر أركولف امتداد الميناء بحوالى ٣٠ وحدة قياس(١). والميناء آمن حتى فى أيام العواصف وما يستقبله من بضائع وسلع يكفى احتياجات المدينة وسكانها، ويوفر لها النشاط التجارى، وبفضل هذا الميناء، فإن الإسكندرية تثرى بمختلف البضائع والخيرات التى ترد إليها من جميع أنحاء العالم، فضلا عن

= ما قارناه بوصف الرحالة والجغرافيين المسلمين. راجع على سبيل المثال لا الحصر : ابن رستة : الاعلاق النفيسة، ص ٧٩؛ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد إبراهيم الهمزانى) كتاب البلدان، نشر دى غوية، بريل ١٨٨٥م، ص ٧١، المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)، مروج الذهب ومعاون الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ١٢٩٣هـ - ١٩٧٣م، ٢٧٥ - ٢٧٦. وقد أورد قصة تردد كثيرا فى غالبية المصادر العربية وهو ما تحايل به الروم على هدم المنار أيام الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦م)/ ٧٠٥ -٧١٥هـ) ونجحوا فى إزالة مرآته الضخمة التى يمكن من خلالها - فيما يقال - رؤية من يأتى فى البحر إلى مسافات طويلة للغاية تصل إلى ٥٠ ميلا أو مسيرة ثلاثة أيام وقتها؛ راجع : كاتب مراكش مجهول، كتاب الاستبصار فى عجايب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص ٩٥-٩٩؛ وانظر دراسة مفردة لناشر تحفة الألباب لأبى حامد الأندلسى عن جانب من آثار (عجايب) مصر فى القرن الثانى عشر وفيها ترجمة فرنسية لنص أبى حامد عن منار الإسكندرية.

Ferrand (Gabreil), "Les Monuments de l" Egypte au XIIe Siecle d'Apres Abu Hamid Al-Andalusi", dans: Melanges Mespero, III, Orient Islamiquie, Tom LXVIII (1940), Imprimerie de l'institut Francais d'Archeologie Orientale, le Caire 1940, pp. 58-61.

(١) ووحدة القياس تساوى ٢٢٠ ياردة Arculf, op. vit., p. 48 and N.4

كونها مخزنا للقمح الذى تصدره إلى معظم بلاد العالم، إلى جانب بضائع أخرى هامة، وتعتمد منطقة الإسكندرية فى الزراعة على مياه الأمطار بالإضافة إلى مياه النيل التى تصل إليها عن طريق خليج الإسكندرية[١].

ومن الثابت أن مدينة الإسكندرية ظلت محتفظة بمكانتها مدة طويلة من الزمن، وهذا يتضح لنا من وصف الرحالة بنيامين التطيلى الذى زار الإسكندرية بعد منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حوالى السادس الهجرى إذ لا نعرف على وجه التحديد السنة التى زار فيها الإسكندرية، فرحلته امتدت من سنة (١١٦٥ - ١١٧٣م) (٥٦١ - ٥٦٩هـ)[٢]. لمختلف الاقطار بدءا من سرقسطة بأسبانيا وانتهاءا ببلرمو Palermo فى صقلية؛ وعلى الرغم من البعد الزمنى بين رحلة أركولف ورحلة بنيامين التطيلى الذى قد يصل إلى أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن، فإن بنيامين قد وصف مدينة الإسكندرية بأنها من أجمل مدن الدنيا وأمنعها، والغريب أنه ذكر مدرسة الإسكندرية التى أطلق عليها مدرسة أرسطو أستاذ الإسكندر[٣]....

---

(١) Arculf, op. cit., p. 49.

(٢) بنيامين التطيلى ، الرحلة، ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧٧، حاشية رقم (١) إذ يذكر ناشر رحلة بنيامين أن هذه المدرسة كانت تحتوى على مكتبة الإسكندرية الشهيرة والتى تأسست سنة ٢٨٤ ق.م.، واحترقت مرة سنة ٤٧ ق.م. ومرة أخرى سنة ٢٥٠م - ومن المعروف أن يوليوس قيصر قد أشعل النار فى سفن الإسكندرية التى كانت لا تزال فى الترسانة، وكذلك السفن فى الميناء لأنه لم يكن لديه من الجنود العدد الكافى لحراسة تلك السفن الكثيرة كما قال هو نفسه، ويقال أن النيران قد التهمت جانبا من المكتبة طبقا لما ذكره بعض الكتاب القدماء وبناء على ذلك فإن المكتبة مع كونها من القصر - فلابد أنها كانت قريبة من الترسانة راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ١١٨ نقلا عن سترابون، ترجمة لترون جـ٥ ص٣٢٩.

والتى كانت مؤلفة من عشرين قسما يقصدها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم لدراسة فلسفة أرسطو. وأن مبناها واسع وجميل معقود على أساطين من رخام[1]. ويضيف بنيامين أن الإسكندرية مشيدة على «طيقان معقودة، تحتها الكهوف والمغاور»[2]. ووصف شوارعها بالطول والاستقامة، والشارع الرئيسى الممتد من بلب رشيد إلى باب البحر يصل إلى حوالى ميل، أى أن ببساطة شديدة قد أورد طول مدينة الإسكندرية[3]، وفى نفس الوقت يذكر

(١) من الواضح أن بنيامين التطيلى لم ير مبنى المدرسة أو المكتبة وإنما استقى روايته من مصادر قديمة سابقة على رحلته، وهذا ما يشير إليه ناشر رحلته إذ يذكر أن بنيامين قد قام بتدوين ما شاهده عيانا فى الأمصار التي مر بها وما نقله عن الثقات ذوى الأمانة المعروفين لدى يهود أسبانية، راجع الرحلة، ص ٢٢ من مقدمة ناشر كتابه عزار حداد. وأساطين بمعنى أعمدة.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧. وربما ينطبق هذا الوصف على وصف رحالة القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، حيث ذكروا فى وصفهم للأسوار المزدوجة أنها كانت مزودة بأروقة مقنطرة مسقوفة وكانت مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها فوق بعض فيما لا نهاية له وتلتصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الأسوار. راجع على سبيل المثال :
Palerne : (Jean Foresien), (1581) dans Voyage en Egypt, Le caire 1971, p. 9; Neitzchitz (George chr., von), 1636. dans : Voyage en Egypt des annees 1634, 1635 et 1636, le caire 1974, p. 197.

(٣) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٧. ويجئ تحديد بنيامين لطول المدينة بحوالى ميل تحديدا غير دقيق، فالميل = ١٦٠٩,٥ مترا فإذا كان الفلكى قد حدد طول المدينة القديمة بمقدار ٥٠٩٠ مترا ومتوسط عرض المدينة ١٧٠٠ مترا والراجح لدينا أن بنيامين قد قصد طول المدينة العربية وهو أقل بكثير من طول المدينة القديمة راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ٦٣-٦٤، ٦٦-٦٧؛
Brecciap, cit., p. 59.

ولكن راجع عن محيط أسوار الإسكندرية القديمة بعد بناءها مرورا بالعصور البطلمى والرومانى والبيزنطى : لوبير (جراتيان) دراسة عن مدينة الإسكندرية فى كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية) مجلد ٢، المدن والأقاليم المصرية، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٧٨، ص ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩-٣٧٠ وخريطة الإسكندرية فى العهد الإغريقى والرومانى وعند الفتح العربى فى ص ٣٨٤. وهى ملحقة فى آخر هذه الدراسة.

طول رصيف الميناء فى اتجاه البحر (الهيباستاد) حوالى ميل ايضا[١]. ويتطرق بنيامين لوصف منار الإسكندرية الذى تحطمت عنه مرآته الضخمة ولكنه لا يزال يهدى السفن ويشاهد نهارا من على بعد مائة ميل[٢].

وقد جاء فى وصف بنيامين التطيلى للإسكندرية ما يثبت الاهمية الكبرى التى كانت تتمتع بها وعالميتها، فقد أحصى الممالك والاقطار الاجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى/ أواخر السادس الهجرى ومنه نستطيع التعرف على أنواع التجارة وألوانها المختلفة التى كانت تتدفق إلى الإسكندرية من كل بلدان اوربة المسيحية، ومن بلدان الشرق الإسلامية وغير الإسلامية[٣]. وقد أشار

(١) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٧ وهو يقصد هنا، رصيف الهيباستاد الذى كان يصل ما بين المدينة وجزيرة فاروس ومعروف أن طوله يبلغ ٧ ستاد ومن هنا كانت تسميته، وعلى ذلك يصبح تقدير بنيامين غير دقيق إذا علمنا أن الميل الرومانى يساوى ١٤٧٩ مترا بينما ٧ ستاد تساوى ١١٥٠ مترا على أساس ان الاستاد يساوى ١٦٥ مترا. راجع الفلكى، الإسكندرية القديمة، ص ٦٨، ص ٩٩ حيث يحدد طول الهيبا ستاد بـ ١٢٣,٥ مترا.

(٢) يذكر ابن جبير والذى تزامنت رحلته مع رحلة بنيامين (بعد حوالى خمسة عشر سنة) أن ضوء المنار يرى على أكثر من سبعين ميلا. ولكن الرأى المتفق عليه من المحققين هو ٢٥ ميلا فقط. راجع : ابن جبير، الرحلة، ص ٣٨، ٤١؛ بنيامين : الرحلة، ص ١٧٨، هـ١.

(٣) من الممالك التى احصاها بنيامين، البندقية، بلنسية، وتسكانيا وافوليه، وأمالفى وصقلية، وقلورية (قطلونية) ورومانية وخزرية والبجناقية وهنغارية - وبلغارية وراغوسة وخرواتية وصقلابونية وروسية، والمانيا وسكسونية والدانمرك وكورلندة والنورجة وفريزية واسكونية وانكلترة وويلز وفلندر وهينولث ونور مندية وفرنسا وبواتو وانجو وبرجونية وبروفلسية وجنوة وبيزة وغسقونية، وارغون ونبارة وعدوه الغرب وأفريقية وجزيرة العرب ونواحى الهند وزويله والحبشة وليبية واليمن والعراق والشام واليونان المعروفين بالروم والترك. الرحلة، ص ١٧٨، ١٧٩. ويتفق معه ليون الأفريقى فى القرن السادس عشر الميلادى، العاشر الهجرى، من ورود السفن التجارية

بنيامين إلى نوع جديد من المنشئات عرفته الإسكندرية والثغور المصرية فى العصور الوسطى وهو الفنادق فيقول «وتأتيها من الهند التوابل والعطور بأنواعها فيشتريها تجار النصارى ولتجار كل أمة فندقهم الخاص بهم، وهم فى ضجة وجلبة يبيعون ويشترون»(١).

أما عن رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) وحتى نهاية العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، فقد تركز اهتمامهم على التحصينات مثل (الأسوار والأبراج والأبواب) فقد كانوا ينبهرون فور اقترابهم من الإسكندرية برا أو بحرا وهم يلاحظون أسوارها وأبراجها. وقد زار الرحالة الألمانى لودلف فون ساشم الإسكندرية فى عام ١٣٤٠م/ ٧٤١هـ وكتب تقريره فى سنة ١٣٥٠م/ ٧٥١هـ(٢) وصف فيه الإسكندرية وما كانت

= إلى ميناء الإسكندرية الشرقى من مختلف الاقطار ويقول «وفيه ترسو أكثر السفن جمالا وكذلك أكثرها أهمية، كمراكب البندقية والسفن الجنوية والراقوزية وكذلك المراكب الأوربية الأخرى، ونشاهد عادة فى الإسكندرية سفن قادمة حتى من الفلاندز وانكلتره وبسكاى، والبرتغال ومن كل السواحل الأوربية ... ولكن أكثرها عدداً هى السفن الإيطالية. راجع : ليون الافريقى (جان) - الحسن بن محمد الوزان الزياتى، وصف افريقية، ترجمة عبد الرحمن حميده عن الترجمة الفرنسية أ. ايبولار منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩م، ص ٥٧١.

(١) بنيامين التطيلى، الرحلة، ص ١٧٩.

(٢) Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Suchem : Deitinere Terrae Liber. Nach alten Hands Chriflen Berichtigh Heran Spegebenvon Friedrich Deychs, Bibliothek des Litterarisehen Vereins in Stuttgart XXV, 1851, S. 35.

فى صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٤م من مخطوطة «الإلمام» للنويرى السكندري د. بول كالة، ترجمة وتعليق درويش النخيلى، وأحمد قدرى محمد أسعد، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، ١١٦٩، ص ٢٧، هـ٣، ص ٥٦.

عليه من حصانة وازدهار وتقدم عمراني، ووصف مبانيها ونظافة شوارعها. إذ يقول عنها تتصف الإسكندرية بالجمال الفائق والحصانة الشديدة، فهى مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة، ويمتاز داخل المدينة بحسن الرواء، إذ يسود البياض لون أبنيتها، فى حين تتفرق قنوات مياهها الجارية فى كل زاوية من شوارعها، وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها، إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء ما يقلل من نظافة شوارعها أو مياهها، للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء عليها[1].

ويجئ إسهاب الرحالة الغربيين فى الكلام عن تحصينات مدينة الإسكندرية فى وصف يندر أن نجده فى مصادرنا العربية اضافة تثير التساؤل حول اهتمامهم بالوصف الدقيق للتحصينات، فهل كان هذا مؤشرا لما أراد الغرب الأوربى القيام به من الاستيلاء على هذه المدينة الغنية التى كانت تسهم فى مد دولة المماليك بجانب كبير من ثرائها أو كان امتدادا للمقولة الداعية للحروب الصليبية المتأخرة بضرورة اضعاف دولة المماليك اقتصاديا حتى يتسنى لهم القضاء عليها واسترجاع الأراضى المقدسة[2].

(١) راجع : كالة (بول)، المرجع السابق، ص ٣٧. ويضيف كالة بأنه مما لا شك فيه أن ثمة تطورا سريعا حدث فى المدينة ويبنى كلامه هذا على التقرير الذى بعث به أحد الحجاج اللاتين الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما فى أراضى المسلمين، قضى معظمها فى الإسكندرية وكتب إلى البابا يوجين الرابع Eugen IV (٤٣١ - ١٤٤٧م) بالمبادرة بمديد المساعدة للمسيحيين فى مصر.
Traite sur das le Terre saint dans Mouments Pour servira l'Histoire des Provinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV, Bruxelles 1846, p. 35 IF.

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذه النقطة راجع : رنسيمان (ستيفن) تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان بدون تاريخ ج٣، ص ٧٧٢؛ باركر

ربما كان هذا هدفا فى حد ذاته لهذا العدد الكبير من الرحالة الغربيين الذين قصدوا من دقة وصفهم تحقيق هذا الغرض أو ربما كانوا مكلفين بكتابة تقارير عن الموانى الإسلامية مثما كان الوضع بالنسبة للحجاج الغربيين(١). فهو إذن نوع من التخابر أو التجسس لصالح دولهم حتى لو لم تكن أهدافهم عسكرية فهى بالضرورة أهداف اقتصادية تحكمها طبيعة تلك الفترة(٢).

= (إرنست) : عزيز سوريال : العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية - ثقافية - صليبية) ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الأولى، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢م، ص ٨٢؛

Atiya (Aziz Suryal) The Crusade in the Later Middle Ages, Oxford 1938, p.p. 31, 39-44, 114-116. and also.

عاشور الحركة الصليبية صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، ج٢، ط٣ مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٦م، ص ١١٢٩ وما بعدها؛ سهير نعينع، حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية، رسالة ماجيستير لم تنشر بعد، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص ١٠٧ - ٤٧ فى هذه الصفحات استعراض لأهم مشاريع الدعاة اللاتين. واقتراحاتهم حول قيام حرب صليبية يكون الاتجاه فيها إلى مصر لضرب دولة المماليك اقتصاديا، وهذا ما تمخضت عنه حملة بطرس ملك قبرص على الإسكندرية فى ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م.

(١) وعن احدث الكتابات فى هذا الصدد مقاله :

Franco (Cardini), The Memory of Jem Salem Remarks About The Diarf of Aprilgrim Florence to the Holy Sepuchre (1384-85), p. 7.

وهى مقالة القيت فى مؤتمر المؤرخين العرب الذى أقيم فى القاهرة بتاريخ ١٩٩٥/١١/٢٧م وضمن مجموعة الأبحاث الخاصة بالمؤتمر (تحت الطبع) وهى عبارة عن مذكرات حاج فى فلورنسا يدعى فريسكو بالدى قام بزيارة الأراضى المقدسة فى الفترة من ١٣٨٤ - ١٣٨٥م بهدف الحج وأيضا لأغراض عسكرية حيث كان مكلفا بجمع معلومات عسكرية عن الموانئ الإسلامية والتحصينات وقدم تقديره للملك شارل الثانى ملك نابولى.

(2) Atiya (Aziz) The Crusade , p.p. 114-115;

جوزيف نسيم، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٣، ص ٨٠، ١١١ - ١١٣؛ عم كمال، الجاليات الأوروبية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى، فصله من كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور ، مطبعة الإسكندرية ١٩٧٥م، ص ٢٨١ وما بعدها.

على أية حال فإننا لا نستطيع إغفـ طبيعة هؤلاء الرحالة الأوربيين المتميزة بالدقة بصرف النظر عن الهدف الكامن وراء هذه الدقة. وقد ظهر هذا واضحا فى كتاباتهم عن تصحينات مدينة الإسكندرية التى تتمثل فى الأسوار والأبراج والأبواب، وسوف نحاول إجمال كلام الرحالة الأوربيين فى دراسة مقارنة لتوضيح الصورة بشكل مركز. فإذا بدأنا بأسوار الإسكندرية، فإننا نجد غالبية الرحالة الغربيين ذكروا ازدواج سور الإسكندرية وانفردوا بمتابعة ذكر ازدواج هذا السور الذى تمثل فى السور الأمامى أو الخارجى والسور الخلفى أو الداخلى، فأفاض البعض منهم فى وصف هذه الأسوار وتحصيناتها، حتى أن بعضهم حدد المسافة بين السورين (الفصيل) ومقياس ارتفاع السور الأمامى، فنجد الرحالة جيستيل Ghistele (١٤٨٢-١٤٨٣م/ ٨٨٧ -٨٨٨هـ) [(١)]. يذكر أن السورين عند أقصى الطرف الشمالى الغربى من الناحية الشمالية مزودان بشراريف تبرز فى جدران السور فى نتوءات شبه دائرية تتفتح فيها المزاغل (الكوى) للرمى بالسهام، والسور الأمامى منهما منخفض عن الخلفى ويرتفع فى وسط الخندق، وحدد عرض الفصيل بينهما بعشرة أمتار. مقام عليها أبراج ضخمة مبنية بالحجر الأبيض، ويتلامس هذان السوران بالقرب من الحصن أو القصر القديم[(٢)].

(1) Ghistele, (Joose, Van), (1482-1483), dans les Voyages en Egypte, Le Caire 1976. p.p. 111, 124.

(2) Ghistele, (1482-1483), op. cit., p.p. 124-125.

وانظر موقع هذا الحصن فى السور الغربى فى خريطة بيلون Belon سنة ١٥٤٧ ضمن الخرائط الملحقة فى نهاية هذه الدراسة : خريطة رقم (١).

وموضعه فى السور الغربى. وقد تنوعت هذه الأبراج بعضها ضخم بنى بالحجر الأبيض المنحوت(١).

ويأتى الرحالة فيلكس فابرى الذى قام برحلته فى سنة ١٤٨٣م/ ٨٨٨هـ مؤيدا لكلام جسيتيل، وهو يصف الأسوار عند باب الديوان فى أواخر الطرف الغربى من السور الشمالى، وينص ايضا على ارتفاع السور الداخلى(٢).

أما السور الخارجى فهو يعلو الخنادق وفيه المزاغل التى تعلو قمته، وشراريف وأبراج تطل على الخنادق، ويضيف فابرى إشارته إلى سماكة السور الخارجى وما به من برجيات للمراقبة Echangette وأبراج رئيسية Donjons تطل على الخنادق المتسعة عند هذا السور(٣). كما يذكر فابرى أن هذه الأبراج قد اتسمت بالعلو والمتانة(٤).

(1) Fabri (Felix), (1483), (1483), dans les Voyage en Egypte, le Caire 1975, II, p.p. 658, 660, 773.

(2) Fabri (1483), op. cit., p.p. 950, 953.

(٣) برجيات ومفردها بريجم Echangette وهو برج صغير مخروطى الشكل يكون فى أعلى الحصن، أما Donjons فهو البرج الرئيسى فى القصر أو الحصن . راجع : يحيى الشهابى، معجم المصطلحات الاثرية (بالفرنسية والعربية)، دمشق ١٩٦٧ فى صفحات ١٥٣، ١٥٤.

(4) Fabri (1483), op. cit., p.p. 950, 953.

ويؤيده فى ذلك : Lubenan, (R.), (1588), dans : Voyage en Egypte, le Caire 1972. p. 212; Morison (Athoine), (1697), dans les Voyages en Egypte, le Caire 1976, p. 6.; Kiechel (S.), (1588), dans : Voyages en Egypte pendant les annees 1587- 1588, le caire 1972, p. 31.

أما الرحالة كوبان (١٦٣٨-١٦٤٦م/ ١٠٨٤ -١٠٥٦هـ)(١). فقد قدر ارتفاع السور الخارجى بنحو عشرين قدما، أى حوالى سبعة أمتار. وهذا بالتالى يوضح أن السور الداخلى يرتفع أكثر من سبعة أمتار وهو ما لم يحدده لنا الرحالة الغربيون، وقد نص كوبان على أن هذه الأبراج قد أصبحت عتيقة وأصابها التهدم فى عدة نواحى(٢). وربما يرجع وصفه هذا إلى أن رحلته متأخرة زمنيا والتى تدخل فى العصر الحديث وهذا نفس ما أشار إليه علماء الحملة الفرنسية على مصر(٣).

أما الرحالة اليهودى مشولام بن مناحم Mechullam ben Menahem . الذى زار الإسكندرية فى سنة ١٤٨٤م/ ٨٨٩هـ، وقام بقياس سمك السور فقد ذكر أنه يساوى عشرة أذرع أى خمسة أمتار(٤).

وقد تابع الرحالة الاوربيون حديثهم بذكر أسوار الإسكندرية المزدوجة بأنها كانت مزودة على امتدادها بأروقة مسقوفة مقنطرة تتيح للفارس القيام بدورة «كاملة فى أسفلها(٥)، وهى مجهزة بعقود قباب صغيرة ينعقد بعضها

(1) Coppin (Jean), (1636-1646), dans les Voyage en Egypt, le Caire 1971, p.p. 22-3.

(2) Coppin, op. cit., p. 22.

(٣) يقول علماء الحملة الفرنسية : أن آثار الإسكندرية لاتوحى إلا بحزن مرير وعميق فهى تقدم صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذي يصيب الإنسان ومنجزاته راجع : وصف مصر ، مج ٣ (المدن والأقاليم)، ص ٢١٧.

(٤) انظر فى Pitts (J.), (1685), dans : Voyages en Egypt Pendant les annees 1679 - 1701, le Caire 1981, p. 116n. 200.

(5) Paleme (Jean Foreslen), (1581), dans les Voyage en Egypte , le Caire 1977. p. 9; Neitzchitz, (1636), op. cit., p. 19

فوق بعض فيما لا نهاية له، وتلتصق هكذا بنفس الشكل بأبراج الأسوار وهي مفتوحة في وسطها بحيث تستند هذه العقود عند عمود واحد في وسط الأبراج ويستند بعضها الآخر عند البرج الآخر على أربعة أعمدة، ويصل بين كل قاعدة وعمود إفريز العمود الآخر قطع كبيرة من الخشب المربع متقاطعة وموصولة بالمسامير الضخمة(١).

ويذكر الرحالة ساندى ١٦١٧م/ ١٠٢٦هـ(٢) في وصفه للأبراج بأنها اتصفت بالضخامة أكثر مما وصفت بالمتانة أو الحصانة إلا أنها كانت من جهة الساحل غاية في الحصانة كما وصفها بلون(٣).

وتنوعت أبراج الأسوار بين المستديرة والمربعة على امتداد السورين بكاملها(٤) إلا أن الاختلاف في كلام الرحالة الأجانب عن عدد هذه الأبراج

(1) Monconys (Balhasar de), (1646 - 1647), dans les Voyages en Egypte, pp. 17-18.

ومن الرحالة الذين نصوا على ازدواج سور الإسكندرية راجع :

Lubenau (1588), op. cit., p. 212; Gonzales (1665 - 1666), op. cit., p. 311; Veryard (1678), dans : Voyages Pendant les annees (1678 - 1701), dans les Voyages en Egypte , le Caire 1981, p. 3; Morison (1697), op. cit., p. 6.

(2) Sandys (George), (1677), dans : Voyages en Egypte de annees 1611 et 1612, dans les Voyages en Egypte, le Caire. 1973, p. 106.

(3) Blunt (Henry), (1634), dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974, p. 23 ; Neitzshciz (16360, op. cit., p. 197.

(4) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 14.

قد يثير التساؤل فمنهم من ذكر عدد الأبراج المربعة فقط[١]. والبعض الآخر ذكر الأبراج كلها فى السورين، ومنهم من اكتفى بالإشارة إلى أبراج السور الداخلى فقط أو الخارجى فقط، ومنهم من ذكر الأبراج الصغيرة فقط فى أحد السورين أو كلاهما مجتمعين واهتم بعضهم بتحديد المسافة بين كل برج وآخر دون ذكر عددها[٢].

ولكنهم اهتموا جميعا بالإشارة إلى ما حل بهذه الأبراج فى فترات مختلفة وحتى نهاية القرن السابع عشر الميلادى/ الحادى عشر الهجرى[٣]. فنجد إشارة الرحالة بريمونBermond (١٦٤٣-١٦٤٥م/١٠٥٣-١٠٥٥هـ) إلى وجود دائر الأسوار مازال قائما ولم يخرب تماما وأن الأسوار الشرقية والجنوبية قد احتفظت بازدواجها[٤]. وقد أكد مونكوتى Monconys (١٦٤٦

(١) ذكر ساندى الأبراج الصغيرة فقط وحددها بثمانية وستين برجا راجع :

Sandy, (1977), op. cit., P. 106.

(2) Bremond (Gabried), (1643 - 1645), dans les Voyages en Egypte, le Caire, 1974, p. 14.

لم يحدد بريمون ومونكوتى عدد هذه الأبراج وإنما اكتفيا بذكر المسافة بين كل برج وآخر حدداه بخمسين خطوة أى نحو ٥٧٠ مترا وهذا بحساب الخطوة فى المقياس الروماني ١,٥ متر أما جونزاليس Gonzales (1665-1666), op. cit., p. 311 فقد حدد الابراج فى السورين مجتمعين (خمسمائة برج) راجع : بالنص على عد هذه الابراج بانها أكثر من ستين برجا فى السورين مجتمعين راجع Veryard واكتفى فيريار Veryard (1678), op. cit., p. 16.

(٣) لاحظ نتزشتز Neitzshitz سنة ١٦٣٦م أن السورين المزدوجين كانا لا يزالان كاملين وفي حالة جيدة : Neitzshitz (1636), op. cit., p. 196.

(4) Bremond (1643 - 1645), op. cit., p. 23.

- ١٦٤٧م/ ١٠٥٦ -١٠٥٧هـ) كلام بريمون فيما يخص الأسوار الجنوبية مع الإشارة إلى إصابتها ببعض التهدم إلا أن أبراجها مازالت قائمة وإن كان الخراب قد أصابها هي ايضا [1]. ويأتي الرحالة جونزاليس Gonzales (١٦٦٥ -١٦٦٦م/ ١٠٧٦-١٠٧٧هـ) ويشير إلى أبراج الأسوار المزدوجة فبعضها كان سليما والبعض الآخر يحتفظ بسلامة جزئية وقد اصاب التلف بعض قواعد الأبراج وتعرضت متاريس السور والأسوار نفسها للتهدم إلى حد كبير، وقد أرجع جونزاليس هذا الأمر إلى تعرض الإسكندرية فى سنة ١٦٢٤م/ ١٠٣٤ - ١٠٣٥هـ للتدمير عى يد القراصنة ولصوص البحار[1].

(1) Gonzales (1665 - 1666), op. cit., p. 311.

وعلى الرغم مما تردد فى كلام الرحالة الغربيين عن حصانة مدينة الإسكندرية وعن أسوارها الجميلة الحصينة وأبراج الأسوار وأبوابها وما يمتاز به مظهرها الخارجي من جمال يغرى بالتطلع اليه، إلا أن ذلك لم يمنعهم من ابداء مشاعر الرثاء لما كانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها، وقد أدرك بعضهم أسبابه فأشاروا صراحة إلى غارة ملك قبرص بطرس لوزنيان على الإسكندرية، كما أرجعوا سبب هذا الخراب إلى الزلازل، فسجلوا لنا من النصف الثاني من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر الميلاديين انطباعاتهم التي تعبر عن دهشتهم البالغة لما انتاب المدينة من تدهور عمراني على الرغم من مظهرها الخارجي الخلاب.

راجع عن انطباعات هؤلاء الرحالة :

Gistele (1482 - 1484), op. cit., p. 114; Fabri (1484), op. cit., II, pp. 665 et n. 434, 725 et n. 1012; II, pp. 953, 967 et n. 1278.

حيث أشار صراحة إلى أثر حملة الملك بطرس فى تدمير المدينة وأن أخطأ فى تاريخ الحملة، كما أشار الى عدم تعرض رجال الملك بطرس لمساجد المدينة بالهرم.

وللمزيد من المعلومات عما أصاب مدينة الإسكندرية على يد القيارضة راجع : سهير نعينع، حملة بطرس لوسينان، رسالة ماجستير لم تنتشر بعد، ص ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥

ولعل هذا الكلام يؤيده مشاعر الرثاء التى ابداها هؤلاء الرحالة لما كانت عليه المدينة من خراب فى بعض أجزائها(١).

وقد وقع التضارب فى أقوال الرحالة الذين أتوا بعد جونزاليس فنجد فى رواية براون Brown (١٦٧٣ - ١٦٧٤م/ ١٠٨٤ -١٠٨٥هـ) إشارة إلى أن أبراج أسوار الإسكندرية كانت قائمة عند زيارته للإسكندرية(٢). وأيده فى ذلك الرحالة فيريار Veryard سنة ١٦٧٨م فقد ذكر أن الأسوار المزدوجة لاتزال قائمة(٣)، وينص من بعده الرحالة Pitts سنة ١٦٨٥م/ ١٠٩٧ هـ على بقاء أسوار مدينة الإسكندرية على ما كانت عليه باستثناء سقوط أجزاء من تحصينات السور العلوية(٤). وقد قام الرحالة هنتجتون Morison ١٦٩٥م/ ١١٠٧هـ) بذكر ما تهدم من بعض مواضع السور(٥). ويأتى الرحالة موريسون ١٦٩٧م/ ١١٠٩هـ برأيه فى أن سور المدينة المزدوج كان لا يزال قائما وتجد بناء أبراج المدينة بعد إصابتها

(1) Belon du Mans (Peirre, Le Voyage en Egypte de pierre Belon du Mans (1547), Imprime Par L'Institut Francais d'Archeologie oriental au Caire dans les Voyages en Egypte le caire 1970. p. 91 et n. 57; palerne (1581), op. cit., p. 9 et n. 25;

واشار باليرن صراحة إلى حملة ملك قبرص

Bretten (Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), dans les Voyage en Egypte le Caire 1976, p. 36.

وتنبأ بلون أن المدينة سوف يهجرها سكانها كلية : Blunt (1634), op. cit., p. 23

(2) Brown, (1673 - 1674), op. cit., p. 18.

(3) Veryard (1678), op. cit., p. 3.

(4) Pitts, (1685), op. cit., p. 116.

(5) Huntington (1695), op. cit., p. 18.

بالتلف [1] وفى حقيقة الأمر، فإننا لا نعرف سببا لهذا التضارب سوى أنه من الجائر تعرض مدينة الإسكندرية لعمليات ترميم ما تهدم من مبانيها على غرار ما حدث بعد حملة ملك قبرص على الإسكندرية[2].

وهناك تضارب آخر فى أقوال الرحالة حول تحديد محيط سور المدينة، فقد وقع البعض منهم فى الخلط بين سور المدينة القديمة وسور المدينة العربية، فأضاف بعضهم أجزاء من سور المدينة القديمة إلى الأسوار العربية وهذا ما قام بترجيحه محمود باشا الفلكى والذى استنتجه من الحفريات التى قام بها[3].

(1) Morison (1697), op. cit., p. 16.

(٢) تم تجديد ما تخرب من أجزاء السور الغربى الذى تعرض للهدم نتيجة عملية الاقتحام أثناء الحملة، خاصة عند باب الديوان، فتم عمل أبراج من الخشب فوق أعلى أبواب المدينة والبست هذه الأبراج بجلود الجمال والبقر صيانة لها من المهاجمين عند رميهم لها بالنار وبالإضافة إلى هذا تم تغليق الصخور الصوانة المقنطرة المثبت عليها الحديد المدبب كما رشقت الأبواب المتجهة إلى البحر بالحراب المدببة تدعيما لها، وتم تكسير الحجارة بشراريف القلاع والأسوار للرمى بالمجانيق ووزعت هذه الأحجار على دائر السور وزودت الأسوار بالنفط ومدافع البارود، كما قام ابن عرام والى المدينة وقت الحملة بتعمير خندق من جهة الميناء الغربى ووصله ببحر الميناء الشرقى.

راجع : النويرى السكندرى، الالمام ، ج٣ ص ٢١٢ - ٢١٣، ج٢، ص ١٥٧، ج٦ ص ٣، ٤٠٢.

(٣) استنتج الفلكى الخلط بين أسوار الإسكندرية القديمة والأسوار العربية فقام البعض بضم أجزاء من سور الإسكندرية القديمة إلى أسوارها العربية هذا إلى جانب عدم اهتمامهم بحساب تعريجات السور وهذا مما أوجد الخلاف بين ما ذكره الرحالة من أطوال مختلفة

راجع : الفلكى، الإسكندرية القديمة ، ص ٦٦ - ٦٧؛ Breccia, op. cit., p. 59.

وقد نص الرحالة بريتون (١٥٨٥ - ١٥٨٦م) على طول وعرض المدينة القديمة لا العربية فالمحيط عنده بعد حساب التقديرات حوالى ٩٠٠٠ متر؛ ويساوى ١٢٨٠٠ مترا عند هاران

أما بالنسبة للخندق الذى أحاط بأسوار مدينة الإسكندرية، فقد ذكره الرحالة فيلكس فابرى بأنه كان يحيط بأسوار المدينة من جهة باب رشيد وحتى الباب الذى دخل منه فابرى وهو باب الديوان، أى أن هذا الخندق كان محاذيا لسور المدينة(١).

أما عن أبواب مدينة الإسكندرية كما ذكرها الرحالة الأجانب، فهي خمسة أبواب منها : باب البحر : الذى حدده بنيامين التطيلى صراحة بأنه يطل على الميناء الغربى مباشرة (٢) كما حدده بيلون على خريطته وأطلق

= Haran أما الرحالة ساندى فهو يذكره بما يوازى ١٤١٠٠ مترا أما جونزاليس فيقدره بحوالى ٧٢٤٣ مترا ويقدره براون ٤٨٣٠ مترا وهينتجتون يحدده ٨٠٥٠٠ مترا فى حين اكتفى موريسون (١٦٩٧) بتقدير طول المدينة وقدره ٤٨٢٨,٥٥ مترا وفى تقدير الفلكى لمحيط سور الإسكندرية القديم (حدده ١٥٨٠٠ مترا). وهذا يؤيد عملية الخلط بين سور المدينة القديم والاسوار العربية راجع عن هؤلاء الرحالة :

Bretten (1585 - 1586), op. cit., P. 23; Harant (1598), op. cit., 266; Sandys (1611), op. cit., p. 90; Gonzales (1665 - 1666), op. cit, p. 335; Brown (1673- 1674), op. cit., p. 21; Huntington (1695), op. cit., p. 18.

(1) Fabri (1483), op. cit., p. 656;

ولكن راجع ماشو : إذ يذكر أن مدينة الإسكندرية واسعة وعريضة ذات أبراج وأسوار عالية وحصينة، وكل باب من أبوابها تدعمه أبراج جميلة تضفى عليها حصانة، ويحيط بالمدينة خنادق كبيرة واسعة وعتيقة :

Machaut (Guillame, de) La Pris d'Alexandria ou Chronique du Roi Pierre i er de Lusignonn publier par M. T. de Ras Latrie , Genere 1877, p. 16.

(٢) بنيامين التطيلى، الرحالة ، الترجمة العربية ص ١٧٧.

عليه نفس الاسم Porte de la Mere [١]؛ وذكره برنيتون Bretten كما هو واضح فى خريطته فى أقصى الطرف الغربى من السور الشمالى، واتجاه الباب الخارجى نحو الميناء الغربى مباشرة [٢]؛ وذكره فابرى تحت اسم Marin [٣].

أما الباب الثانى والذى يقع فى السور الشمالى أيضا بالقرب من باب البحر فهو باب الديوان : فقد وصفه فيلكس فابرى بالضخامة والارتفاع وتدعمه الأبراج على جانبيه، وله أبواب متتابعة ، الخارجى والداخلى منها مصفحان بالحديد، ويوجد أمام الباب الخارجى جسر ضيق متحرك يمكن رفعه حتى يتمكنوا من العبور إلى هذا الباب الضخم وذلك لوجود الخندق تحته مباشرة، وعند اجتيازه، يوجد ممر منحن إلى الداخل يقع بين جدران عالية وابراج، ويقود هذا إلى الباب الحديد الداخلى الذى ينفتح على المدينة، وعند إغلاق الباب الخارجى، يتم حجز من يوجد بين البابين بسلاسل ومزاليج حديدية شديدة الارتفاع فيتعزز الدخول أو الخروج من أحد المحجوزين بين البابين، ويوجد على يمين الداخل قريبا من الباب الداخلى باب صغير يترك مفتوحا يسمح بالنفاذ إلى مكان فى الداخل بين سور

(١) راجع خريطة رقم)(١) Belon (1547), op. cit., p. 926.
(2) Fabri (1483), pp. 683 - 684.

ويطلق على الميناء القديم اسم الميناء الغربى. راجع :
Debbane (Max, A propose de Deux colonnes Atrivuees A l'Eglise de The onase, dans Bulletinode la societe Archeologque d'Alexandria, No 42 (1967), Imprimerie de l'institut Francais d'Arceologie Oriantale, Le caire 1967 p. 83.

المدينة الداخلى المرتفع وسورها الخارجى الذى يعلو الخنادق، بحيث يمكن التجول داخل نطاق هذا الحيز لمسافة طويلة بين السورين، ومن وسط هذا المكان يمكن مشاهدة كوى السهام المطلة على الخنادق والتى تعلو قمة السور الخارجى إلى شراريف السور الذى تقوم فيه بعض الأبراج (١) ، وقد اطلق فابرى على هذا الباب باب الغرباء أو باب الأجانب La Porte des etranger(٢). ومن خلال وجود الأجانب فى المدينة وأرادوا الخروج للنزهة خارجها فيما بين الميناءين لمشاهدة السفن أو الاتصال بها فى الميناء الشرقى لم يكن أمامهم إلا باب البحر، ويحصلون فى كل مرة يخرجون فيها على إذن خاص ويتم تفتيشهم فى الخروج والعودة (٣).

أما الباب الثالث فهو الباب الغربى (الأخضر) : فقد أطلق عليه الرحالة الأربيون عدة أسماء تدل كلها على أنه الباب الغربى، فمنها باب القمر أو باب برقة أو باب الصحارى(٤).

(1) Fabri, (1483), op. cit., pp. 661-663.

(2) Fabri, op. cit., pp. 655 -656, 773-775.

وقد وصف المستشرق كامب الطريقة التى كانت ترفع بها البضائع من خارج مبني الديوان حيث توجد رافعة رحوية cabuston راجع : Combe, les lere ..... op. cit.,55 et. n. 1 والملاحظ أن ماشو قد وصف باب الديوان بأنه باب صغير ضعيف يكاد يخلو من الحماية وقد تم حرقة أثناء حملة الملك بطرس، ولكن تم تجديده بعد ذلك وازدادت ضخامته وتم تحصينه وهذا ما يؤكده وصف فيلكس فابرى له.

Machaut (Guillaune) op. cit., pp. 84-85.

(3) Fabri, op. cit., pp. 683 -685.

(٤) ذكره ابن بطوطة بالباب الأخضر، وقد زار ابن بطوطة الإسكندرية فى سنة ١٣٢٦م/ ٧٢٦هـ، ثم فى سنة ١٣٤٩م/ ٧٥٠هـ راجع : ج١ ص ٢٦، ٢٧، ٣٠.

والباب الرابع هو الباب (باب السدرة) [١] الذى يقع فى السور الجنوبى فى منتصف النصف الغربى منه تقريبا وقد ذكر فى كتب الرحالة تحت اسم باب سان مارك [٢] وأطلق عليه البعض باب البهار [٣] ويكتفى البعض منهم بالإشارة إلى هذا الباب بأنه باب الجنوب.

= وترجع أصل تسمية الباب الأخضر نسبة إلى الجامع الأخضر المعروف بالجامع الغربى والمعروف ايضا بجامع الالف عمود، وقد كان فى الأصل كنيسة أقامها القديس ثيوناس Theonas (٢٨٢ - ٣٠٠م) قرب ساحل الميناء الغربى، ثم أعيد بناؤها مع توسيعها على يد البطريق الكسندر Alexandre (٣١٣-٣٢٦م) فكانت تسمى كتدرائية القديسة سريم Sainte Mariem إلى نهاية القرن الرابع الميلادى، ثم تحول إلى جامع عند دخول عمرو ابن العاص الإسكندرية وأطلق عليه الجامع الغربى أو جامع الألف عمود نسبة إلى الأعمدة الجرانيتية ذات اللون الأخضر التى كانت مقامة فى الكنيسة.

راجع : Breccia, p. 45;

على مبارك (التخطيط التوفيقية) ٤٣/٧.

راجع عن تسمية الباب الغربى، بباب القمر أو باب برقة أو باب الصارى :

Sandys (1677), op. cit., p. 96;

Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233;

ليدن الافريقى/ وصف افريقيا، ص ٥٧١:

Morison (1697), op. cit., p. 16; Bremond (1643 - 1645), pp. 18, 33.

(١) لم يذكر هذا الباب بهذا الاسم عند الرحالة الغربيين سوى ذكره محرفا بعض الشئ Laporte les leves .... p. 58. راجع Thevenot وثيفنو Veryard عند كل من فريار Issidir

Veryard (1678), op. cit., p. 7.

(٢) Comb. ole la colonne ... p. 105. وذلك نسبة إلى كنيسة صغيرة عثر عليها فى الشارع المقابل للباب

(٣) Machant, p. 91. جاءت هذه التسمية عند ماشو

وجاءت تحت اسم La porte du poivre بمعنى البهار بالإيطالية فى

Villamont (1569 1190). op. cit., p. 233

الباب الخامس : (الباب الشرقى) أو باب رشيد[١]، فقد ذكره فيلكس فابرى بأنه محظور على الأجانب والغرباء الدخول من الباب إلى داخل المدينة، فهو وقف على أهل المدينة وكبار القوم، وقد وصفه مثل الأبواب الأخرى بوجود برجين على جانبيه تميزا بالضخامة والحصانة، واكتفى هارون وليون الأفريقى بالإشارة إلى اتجاه هذا الباب إلى النيل[٢] ومن الرحالة من أطلق عليه الاسم القديم وهو باب الشمس Porte du soleil[٣] وذكره بريمون Bremond باسم باب الو Bab-allou أو باب رشيد[٤] ومنهم من أطلق عليه اسم باب القاهرة[٥].

أما بالنسبة لقلاع المدينة والتى جاء ذكرها فى كتب الرحالة الأجانب فمن أهمها كما يذكر الرحالة البرت Albert اثنتان فى منطقة شبه جزيرة فاروس هى الفاريون الكبير Presque -ile Faraillon وهو مكان قلعة قايتباى الحالى، والفاريون الصغير أسفله مباشرة au dessous أى فى مواجهته مباشرة من أسفل عند مدخل الميناء الشرقى[٦].

---

(1) Fabri, (1583), op. cit., II, 656 - 657.

(2) Harant (1598), op. cit., p. 268;

(٣) ليون الأفريقى ، وصف افريقيا، ص ٥٧١.

(4) Bremond (1643-1645), op. cit., p. 18. وهى فى الأصل الإيطالى مرحلة بريمو
Bad habudi Rosseto.

(5) Villamont (1589 - 1590), op. cit., p. 233.

(٦) راجع عن موضع كل من المنار الجديد والقديم ما ذكره الرحالة البرت فى سنة ١٦٣٤م والشروح التي أتى بها ناشر رحلته :

Albert (1634), op. cit., pp. 94 - 5 et 165 (note).

وراجع أيضا : على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٧ ص ٣٩ - ٤٠.

وقد أشار بعض الرحالة إلى قمة مرتفعة يمكن من أعلاها رؤية أسوار المدينة الغربية جميعها. وإن لم يذكروا اسم هذا المرتفع وإن كانوا يقصدون به كوم الدكة (أو كوم الديماس)، كما أشار بعضهم إلى كوم الشقافة بالقرب من عمود السوارى خارج أسوار المدينة وأن لم يطلقوا عليه اسما، ولكن لفت نظرهم الكهوف والمغارات التى تحتوى على عدة مقابر[١]، أما بالنسبة لكوم الناضورة (كوم دعلة) الذى يقع داخل سور المدينة الغربى، ويظهر فى خريطة بيلون Belon(١٥٤٧م) تحت اسم البرج أو الحصن الجديد Chateau Neuf[٢]، وقد اتخذ هذا البرج لرصد السفن الواردة إلى ميناء الإسكندرية الشرقى. وهذا الحصن الجديد يجرنا للكلام عن الحصن القديم Chateau Vieil وهو يظهر فى مصورات الرحالة الغربيين بالقرب من الباب الغربى والجامع الغربى (الاخضر)[٣].

واكتمالا للصورة التى آلت إليها مدينة الإسكندرية منذ أخريات

---

(1) Monconys (1646 - 1647), op. cit., p. 23.

(٢) راجع موقع الحصن فى خريطة رقم (١) لبيلون وهو نفس ما ذكره الرحالة فابرى وبريتن راجع :
Tabri (1483), op. cit., p. 724; Bretten (1585 - 1586), op. cit., p. 29.
وراجع أيضا ليون الأفريقى ، وصف أفريقيا ص ٥٧٢.

(3) Sevitacilpxe seton , pp. 165-166, te 95. op. cit., (1634) trebla.
وهناك قلعة أخرى لم يتكلم عنها الرحالة وهى قلعة ضرغام أو (برج ضرغام) الأمير أبوالأشبال ضرغام بن سوار فى وزارة العادل بن رزيك أيام الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى، وذلك فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٦٢م)، راجع المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزءان الثانى والثالث، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م، ج٣ ص ٢٥٦ وراجع أيضا الخرائط الملحقة بهذه الدراسة.

العصور الوسطى وحتى مطلع العصر الحديث، فإننا نجد من المناسب ذكره هنا ما شاهده علماء الحملة الفرنسية على مصر، ودونوه عن الإسكندرية وقت نزولهم لها كما يقولون «باقترابنا من الإسكندرية ودخولها عن طريق أبوابها العالية وجدنا سورا واسعا حصينا لم يعد يضم سوى بقايا الإسكندرية القديمة» وأطلقوا عليها فيما أطلقوه «أطلال الإسكندرية القديمة التى لا تومئ إلا بحزن مرير وعميق إذ هى لا تقدم إلا صورة بشعة وكئيبة للدمار التام الذى يصيب الإنسان ومنجزاته، ففى هذا الفراغ الفسيح الذى يحيط به سور مزدوج، تعلوه أبراج عالية، فإن الأرض لا تغطيها إلا أطلال المبانى القديمة المدفونة تحت تلال من الأنقاض والأعمدة وتيجان الأعمدة المهشمة أو المقلوبة وقطع متماسكة من جدران منهارة وقباب مدفونة وتكسيات الجدران التى تآكلت أحجارها بفعل رطوبة وملح وأحماض البحر وفى كل مكان يجد المرء آبارا وخزانات نصف مطموسة أو حفرا عميقة يستخرج منها السكان أحجارا جيرية لا تزال تحمل آثار عمل الإنسان والتى حولها الإنسان بدوره إلى مجرد جير ... وفى داخل هذا الفضاء تتناثر أتربة وأنقاض مدينة واسعة، نبحث عنها دون جدوى ونتخبط نحن وسط أسوارها[1].

وتأتى الموضوعية فى وصف الرحالة الأوربيين لمدينة الإسكندرية لتوضح لنا رؤية هؤلاء الرحالة والأسباب الحقيقية من وراء زيارتهم التى بإمكاننا استخلاصها من خلال اهتماماتهم بوصف أشياء وأماكن بعينها،

(٢) وصف مصر، لعلماء الحملة الفرنسية، مج٣، المدن والأقاليم المصرية، ص ٣١٧، واضح من كلام علماء الحملة الفرنسية أن أسوار الإسكندرية المزدوجة مازالت موجودة وتعلوها الأبراج.

وفى هذه الحالة يمكن لنا تقسيمهم إلى فئتين، الفئة الأولى تتمثل فى ما قام به الرحالة أركولف ومن بعده الرحالة بنيامين التطيلى من وصف. أما الأول فقد سبق ورأينا كيف ركز كلامه على وصف ميناء الإسكندرية وتجارتها الواسعة مع مختلف الأمم، وإن كانت رحلته قد أخذت شكلا دينيا، فهو أسقف ورحالة قام بزيارة المدن الإسلامية بعد الفتح الإسلامى بفترة وجيزة ولم يمنعه هذا من الكلام عن الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية، وربما كان هذا هدفا فى حد ذاته.

أما الرحالة الثانى بنيامين التطيلى فقد اهتم اهتماما بالغا بالناحية التجارية لمدينة الإسكندرية وعدد الأمم التى تتعامل معها شرقا وغربا، ومن المعروف أن الهدف من رحلة بنيامين التطيلى هو عملية إحصاء لأعداد اليهود فى كل مدينة زارها، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى، وفى نفس الوقت أخذت الأهمية التجارية لمدينة الإسكندرية تحتل جانبا كبيرا من وصفه، فلا نجده مثلا يذكر أسوار المدينة وتحصيناتها مثله فى ذلك مثل اركولف، وعلى هذا فرحلته تعتبر ذات طابع دينى.

أما الفئة الثانية من الرحالة والتى تبدأ بالرحالة فون ساشم من منتصف القرن الرابع عشر الميلادى وحتى بدايات العصر الحديث، فقد اهتموا اهتماما بالغا بوصف تحصينات المدينة كما سبق أن ذكرنا وربما دفعهم إلى ذلك موقع المدينة وأهميتها بالنسبة للتجارة العالمية، وقد رأينا فى ثنايا هذا البحث كيف أن اهتمامهم قد أخذ شكلا جديدا، مما يؤكد الرأى الذى خرجنا به من هذه الدراسة، بأن اهتمامهم كان بدافع التجسس والتخابر لصالح دولهم، وربما كان هذا سببا للدقة التى اتصفت بها كتاباتهم

التى زودوها بالرسومات والخرائط وأن كتاباتهم كانت أساسا لعلماء الحملة الفرنسية على مصر فاستمدوا منها كثيراً من المعلومات عن مدينة الإسكندرية وهذا ثابت من تأسفهم على ما أصاب هذه المدينة العريقة من خراب ودمار فى كثير من أحياءها.

وخلاصة القول أن الرحالة الأوربيين الذين زاروا الإسكندرية فى العصور الوسطى وحتى بدايات العصور الحديثة، قد التزموا جانب الموضوعية والدقة فى وصف هذه المدينة العريقة، وجاء تركيزهم بشكل أساسى على الأهمية الاقتصادية، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى التركيز على الناحية التحصينية والتزموا فى ذلك الدقة لدرجة جعلتنا نتشكك فى نواياهم ويؤكد على الفكرة التى يدور البحث حولها، وهى التجسس لصالح دولهم.

قائمة المصادر والمراجع

الخاصة بالبحث

أولا : المصادر العربية والمترجمة :

ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن عبد الله، اللواتى الطنجى)

= الرحلة، أربعة أجزاء ، نشر د. فرمرى Defrmery ، وسنجوينتى Sanguinetti الطبعة الرابعة، باريس ١٩٢٨ - ١٩٤٩م.

بنيامين التطيلى (ابن يونة النبارى الأندلسى)، الرحلة - ترجمها من العبرية إلى العربية عزار حداد، بغداد، ١٩٤٥.

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد الاندلسى)، رحلة ابن جبير، نشر دى غوية) ط٢، مطبعة بريل، ليدن ١٩٠٧.

أبو حامد الأندلسى (محمد بن عبد الرحيم الغرناطى، الملقب بالشيخ عبد الله)

= كتاب تحفة الألباب، نشر جبريل فيران.

Gabriel Ferrand, dans, Journal Assiat que (Juillet-Septembre 1925) paris 1925.

ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) الأعلاق النفسية/ نشر دى غوية مطبعة بريل، ليدن ١٨٩١م.

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، دولة المماليك الأولى، دراسة وتحقيق دوروتياكرافولسكى، المركز الإسلامى للبحوث، بيروت ١٩٨٦م

ابن الفقيه (أبو بكر أحمد إبراهيم الهمدانى)

= كتاب البلدان، نشر دى غوية، بريل ١٨٨٥م

كاتب مراكشى مجهول (من كتاب القرن السادس الهجرى)

= كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.

ليون الافريقى (جان : الحسن بن محمد الوزان الزياتى) وصف أفريقية، ترجمة عبد الرحمن حميده عن الترجمة الفرنسية أ. ايبولار منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الرياض ١٣٩٩م،

ماركوبولو، رحلات ماركو بولو، الترجمة العربية (عن الترجمة الانجليزية لويلم مارسون) عبد العزيز جاويد، المؤسسة المصرية العامة لكتاب سنة ١٩٧٧م

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)، مروج الذهب ومعاون الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ١٢٩٣هـ - ١٩٧٣م،

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، الجزءان الثانى والثالث، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م.

النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد)

= الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الإسكندرية، سبعة أجزاء، تحقيق عزيز سوريال عطية الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن - الهند، ١٩٦٨ - ١٩٧٦م.

ثانيا : المصادر غير العربية

Albert (Jacques), dans : Voyages en Egypte des annees 1634. 1635 et 1936, dans les voyages en Egyptes le caire 1974.

Arcul F (The Bishop). Narrative About the holy places, Written by Adamnan, Book II in P.P.T.S., Vol III.

Belon du Mans (Peirre), Le Voyage en Egypte de pierre Belon du Mans (1547), Imprime Par L'Institut Francais d'Archeologie oriental au Caire dans les Voyages en Egypte le caire 1970.

Blunt (Henry), (1634), dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, dans les Voyages en Egypte, le Caire 1974.

Bremond (Gabried), (1643 - 1645), dans les Voyages en Egypte, le Caire, 1974.

Bretten (Michael Heberer, Von), (1585 - 1586), (IFOA), le Caire 1976.

Brown (Edward), (1673 - 1674), (IFOA), Le Caire 1974.

Coppin (Jean), (1636 - 1646) (IFOA) , le Caire 1971.

Fobri (Felix), (1483), (IFAO), le Caire 1975).

Fauvel (Hobert), (1631), Annexe dans :

Voyages en Egypte de Vincent stochove (1631), (IFAO), le Caire 1975).

Ghistele (Joos, van), (1482- 1483), (IFAO), le Caire 1976.

Gonzales (Pere Antonius), (166- 1666), (IFAO), le Caire 1977.

Harant (Christophe), (1598), (IFAO), le Caire 1972.

Huntington (R.), (1695), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees (1678 - 1701) (IFAO), le Caire 1987.

Kiechel (S.), (1588), dans : Voyages en Egypte Pendant le annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Lithgow (Willian), (1612), dans : Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Lubenau (R.), (1588), dans : Voyages :
en Egypte pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO), le Caire 1972.

Machaut (Guillaume, de)
= la Prise d'Alexandrie ou chronique du Roupierre ler de lusignan, publiee par M.L. de Maslatrie, Geneve 1877.

Monconys (Balthasar de), (1646 - 1647), (IFAO), Le Caire 1973.

Morison (Athoine), (1697), (IFAO), le Caire 1976. dans : Voyages en Egypte des annees 1634, 1635 et 1636, (IFAO), le Caire 1974.

Paleme (Jean Foresien), (1581), (IFAO), le Caire 1971.

Pitts (J.), (1685), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO), le Caire 1987.

Rochetta (Agvilante), (1599), dans Voyages en Egypte des annees 1597 , (IFAO), le Caire 1974.

Sandys (George), (1617), dans : Voyages en Egypte des annees 1677 et 1612, (IFAO), le Caire 1973.

Teufel (H.Chr.), (1588), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1587 - 1588, (IFAO) le Caire 1972.

Veryard (E.), (1678), dans : Voyages en Egypte Pendant les annees 1678 - 1701, (IFAO) le Caire 1981.

Villamont (Le seigneur de), (1589-1590), dans : Voyageurs en Egypte, 1589. 1590. 1591, (IFAO), le Caire 1971.

Voyageurs en Egypte des annees 1587 - 1601, (IFAO), le Caire 1974.

Wild (Johann), (1606-1610), (IFAO), le Caire 1973.

ثالثا : المراجع العربية والمترجمة

باركر (أرنست Ernest Barker) الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (بدون تاريخ).

جبور عبد النور = (بالاشتراك مع سهيل ادريس)، المنهل، قاموس فرنسى عربى، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، دار الأداب، بيروت ١٩٨٠.

جمال الدين الشيال (دكتور)

= الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور الى الوقت الحاضر، فصله من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢)، دار المعارف بمصر، ١٩٥٢م. (ص ١٩١ - ٢٧١).

= تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى، دار المعارف، مطبعة دون بوسكو، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور)

= دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م.

درويش النخيلى (دكتور)

= دراسة جديدة فى طبوغرافية مدينة الإسكندرية زمن الملك الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧م) الإسكندرية، ١٩٨٨م.

رنسيمان (ستيفن Sleven Runciman)

= تاريخ الحروب الصليبية، ثلاثة أجزاء، ترجمة السيد الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت - لبنان بدون تاريخ.

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)
= الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى، الجزء الثانى، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)
= تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الطبعة الثانية، دار المعارف، مطبعة معهد الدون بوسكو، ١٩٦٩م.

سهير نعنيع (دكتورة)
= حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية سنة ١٤٦٥م/ ٧٦٧هـ، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، الإسكندرية، ١٩٨٨م.

عزيز سوريال عطية (دكتور)
= العلاقات بين الشرق والغرب، تجارية - ثقافية - صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الأولى، دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٢م.

على مبارك = الخطط التوفيقية الجديدة، ج٧، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية، ١٣٠٥هـ.

عمر كمال توفيق (دكتور)
= الجاليات الأوربية فى الإسكندرية فى العصور الوسطى (فصل من كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور)، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٧٥م. (ص ٢٧٣ - ٣٠٥).

كالة (بول Paul Kahle)

= صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م، من مخطوطة «الإلمام» للنويرى السكندرى، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد، فى دراسات أثرية وتاريخية، مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، العدد (٣)، مطبعة الإسكندرية ١٩٦٩م، (ص ٣٦ - ٩٤).

لوبير (جراتيان) :

= دراسة عن مدينة الإسكندرية ، فى : كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية)، مجلد ٣ (المدن والأقاليم المصرية)، ترجمة زهير الشايب، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٧٨م.

محمود الفلكى = الإسكندرية القديمة ، ترجمة محمود صالح، دار النشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٦٧م.

وستنفلد (ف) = جداول السنين الهجرية بلياليها وشهور بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، الطبعة الأولى مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠م.

يحيى الشهابى = معجم المصطلحات الأثرية (بالفرنسية والعربية)، دمشق ١٩٦٧م.

رابعا : المراجع غير العربية .

Atiya (Aziz Suryal)

= The Crusade in the later Miedle Ages, OXford 1938.

Bornecque (H.). et Canat (F.)

= le Dictionnaire latin - Francais , Deuxieme Edition, Paris 1936.

Breccia (E.)

= Alexnadrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914.

Clarke (D.)

= Alexandrea ad Aegyptum. Asurvey:, in : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexnadria University, vol. v (1949), Alexandria Imprimeries, 1949, (pp. 99-102).

Combe (Et.)

= "Lesleves de Gravier d'ortieres Alexadrie (1986)", dans : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, vol. 7 (May 1943), Association of Athorship. Translation and publication press, Cairo 1943, pp. 52-67.

Ferrand (Gabriel)

= "Les Monuments de l'Egypte au XIIe Siecle

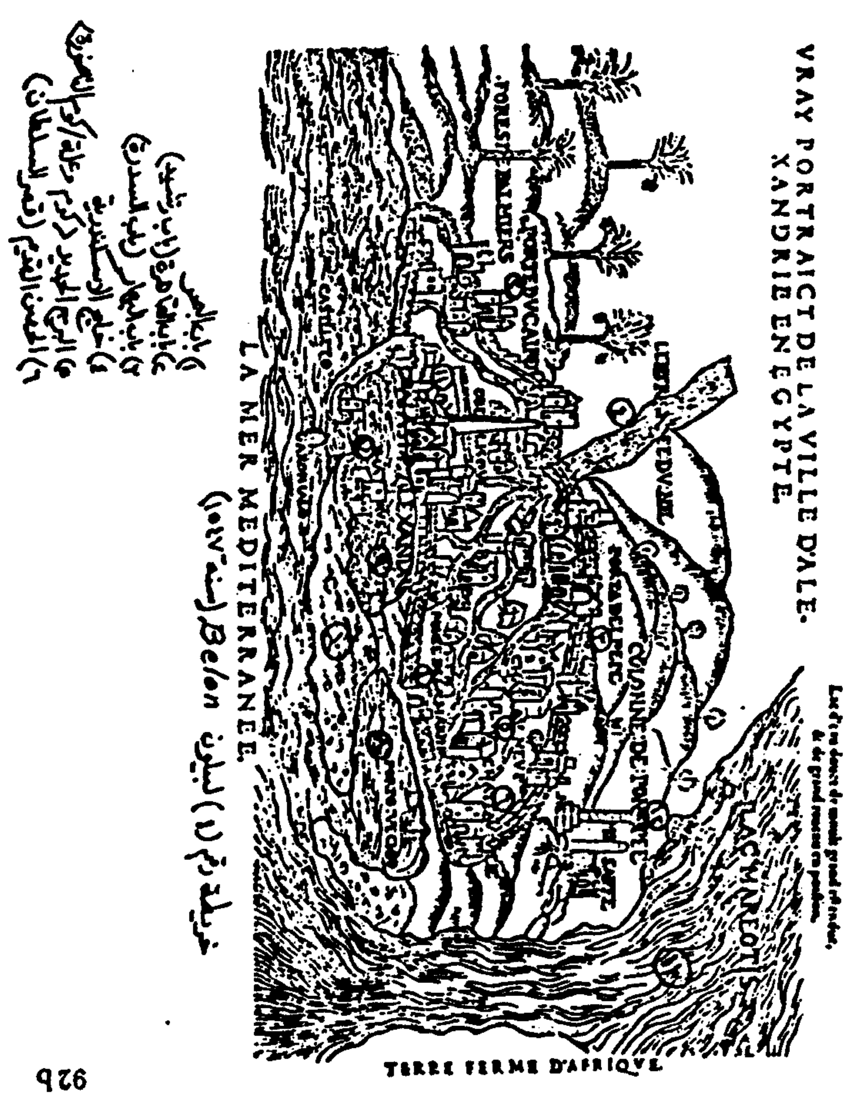
Dapres Abu Hamid Al-Andalusi", dans : Melanges Mespero, III, Orient Islamique, Tome LXVIII (1940), imprimerie del, Institut Francais d'Archelogie orientale. Le Caire 1940 , pp. 57-66.

Franco (cardini), The Memory of Jerusalem Remarks About the Diary of Apllgrim Fram Florence to the Holy Sepulckre (1384-85).

وهذه المقالة تحت النشر ضمن مجموعة المقالات الخاصة بمؤتمر المؤرخين العرب الذى إقليم فى القاهرة فى ٢٧/١١/١٩٩٥م.

Levi-Provencal

= Une Description Arabe Inedite du phare d'Alexandrie" dans : Melange Mespero, III, orient Islamique, Tome LXV III (1940), Imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie oriental, le Caire 1940. pp. 161-178.

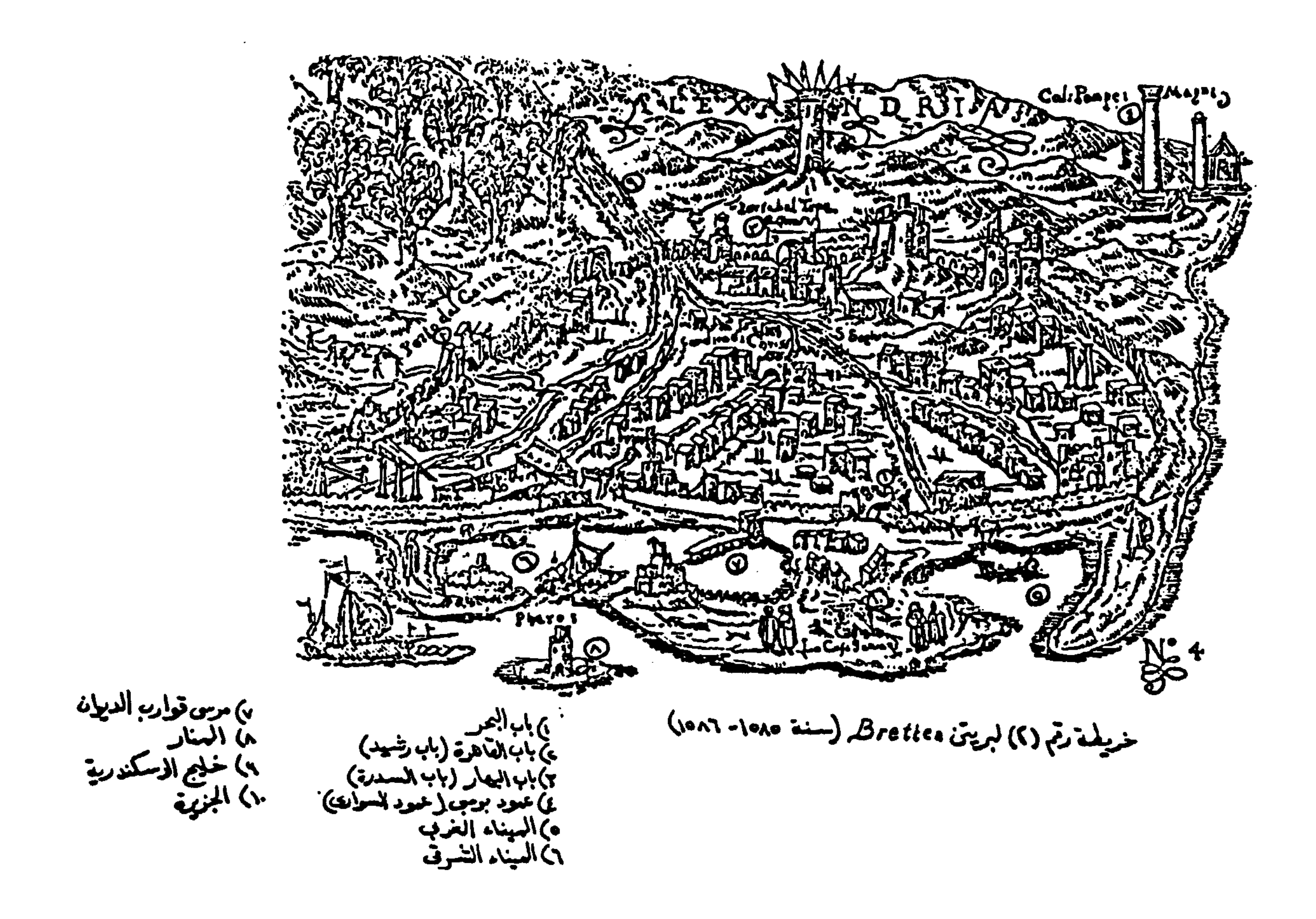


خريطة رقم (١) لبيلون Belon (سنة ١٥٤٧)

١) باب البحر
٢) باب القاهرة (باب رشيد)
٣) باب البهار (باب السدرة)
٤) خليج الإسكندرية
٥) البرج الجديد (كوم دعلة/كوم الناضورة)
٦) الحصن القديم (قصر السلطان)

٧) المنار
٨) الميناء القديم (الميناء الغربي)
٩) الميناء الشرقي
١٠) الجزيرة
١١) قصر الإسكندر
١٢) عمود بومبي (عمود السواري)
١٣) بحيرة مريوط

926



خريطة رقم (٢) لبريتي Brettea (سنة ١٥٨٥- ١٥٨٦)

١) باب البحر
٢) باب القاهرة (باب رشيد)
٣) باب البهار (باب السدرة)
٤) عمود بومبي (عمود السواري)
٥) الميناء الغربي
٦) الميناء الشرقي
٧) مرسى قوارب الديوان
٨) المنار
٩) خليج الإسكندرية
١٠) الجزيرة



VOYAGES EN EGYPTE des années 1597 - 1601

خريطة رقم (٣) [صورة غلاف الرحلة من ١٥٩٧ الى ١٦٠١]

١) باب البحر
٢) باب رشيد
٣) باب السدرة
٤) عمود السوارى
٥) الميناء الغربى
٦) الميناء الشرقى
٧) مرسى قوارب الديوان
٨) خليج الاسكندرية
٩) الجزيرة

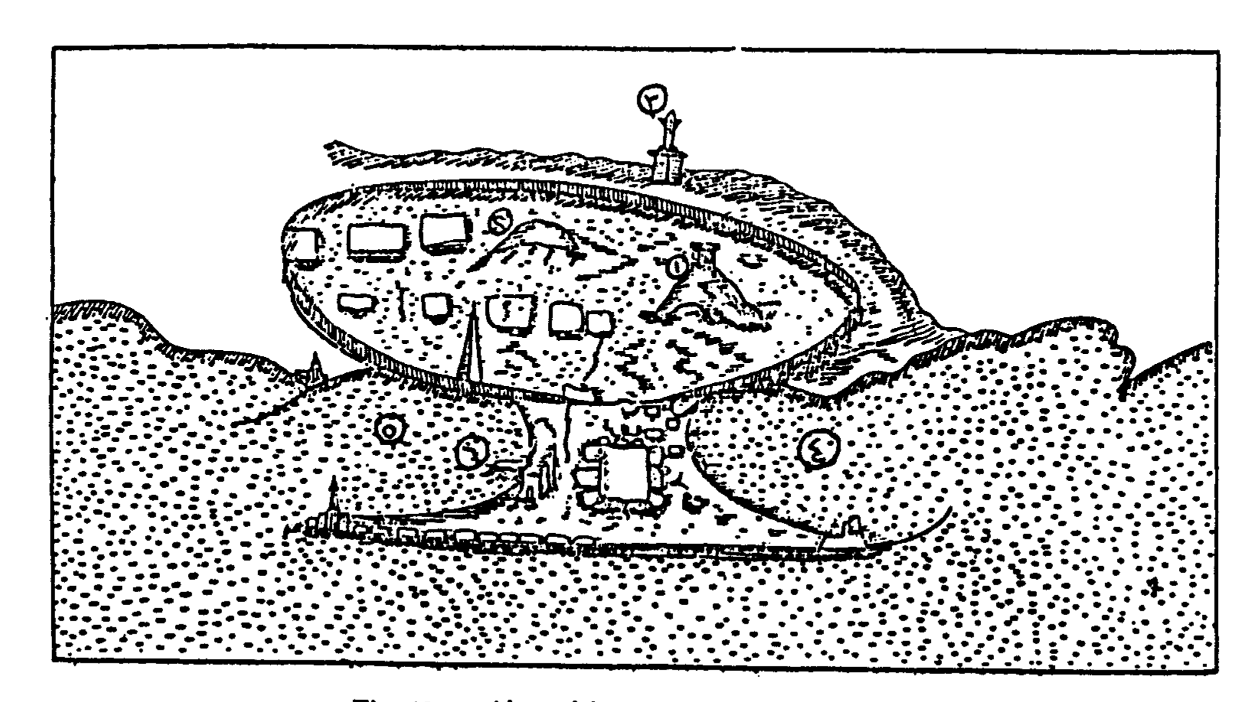
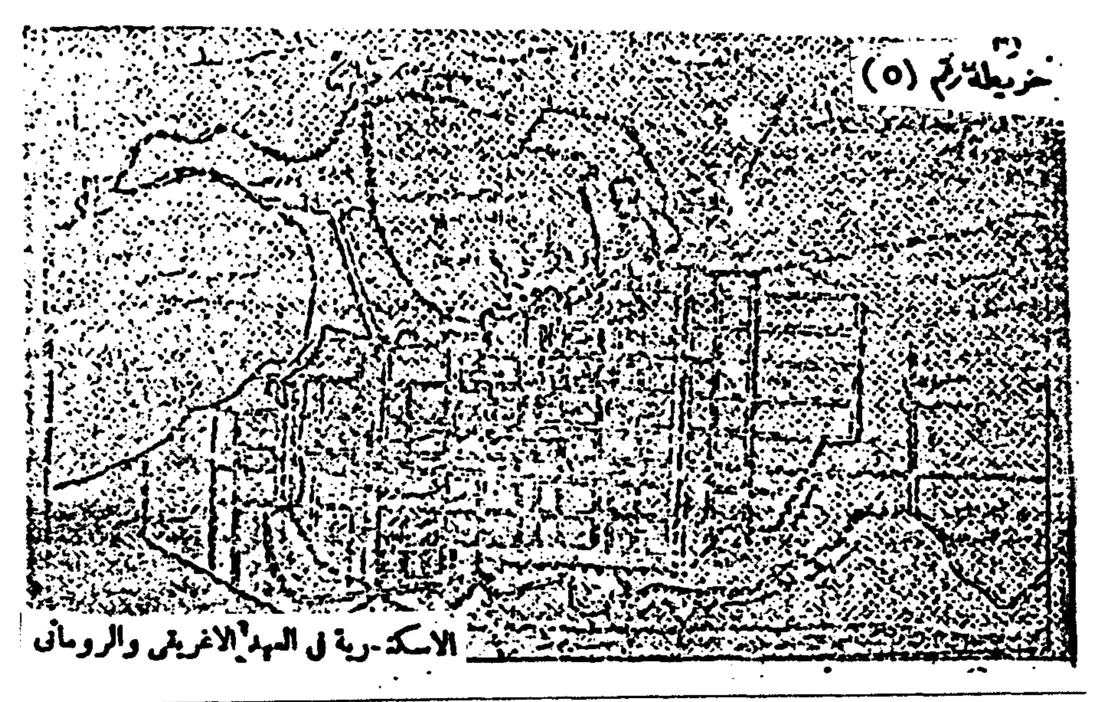


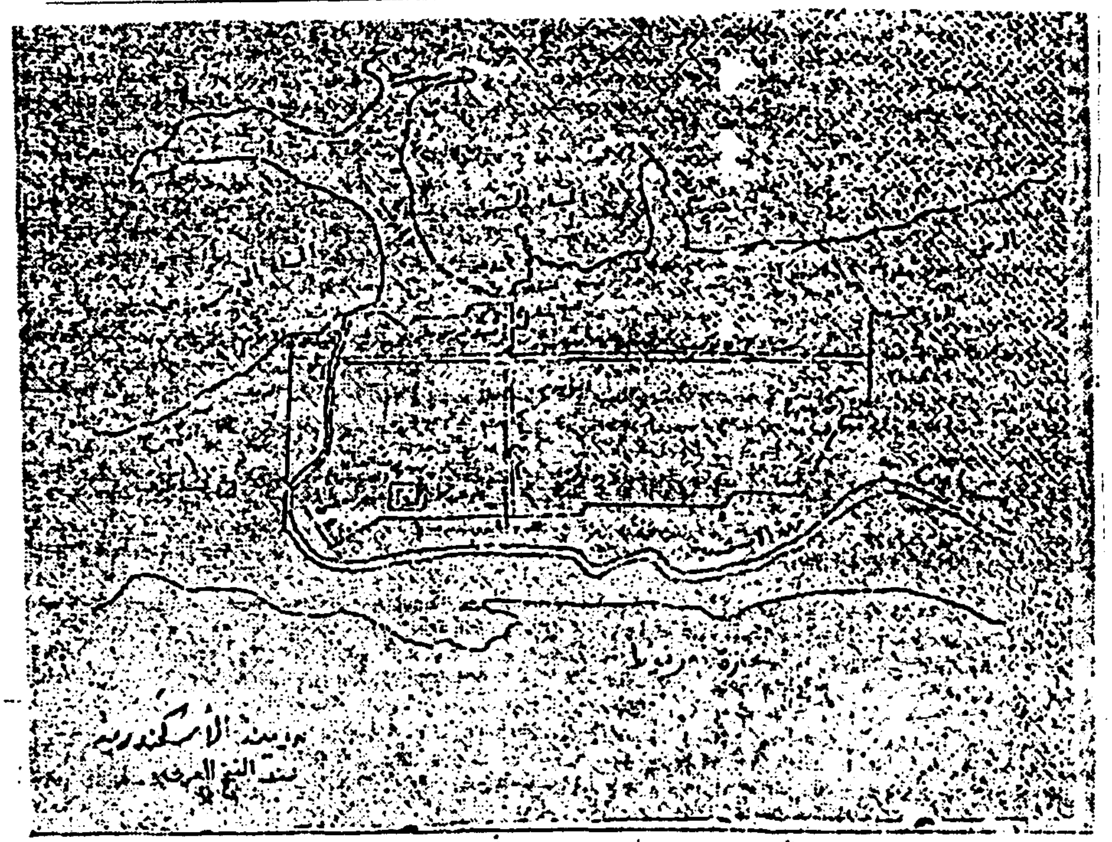
Fig. 18. — Alexandrie vue par B. de Monconys.

خريطة رقم (٤) لمونكونس (سنة ١٦٤٦-١٦٤٧)

١) كوم وعلة (كوم الناضورة/البرج الجديد)
٢) كوم الديماس (كوم الدكة)
٣) عمود السواري
٤) الميناء الغربي
٥) الميناء الشرقي
٦) مرسى قوارب الديوان

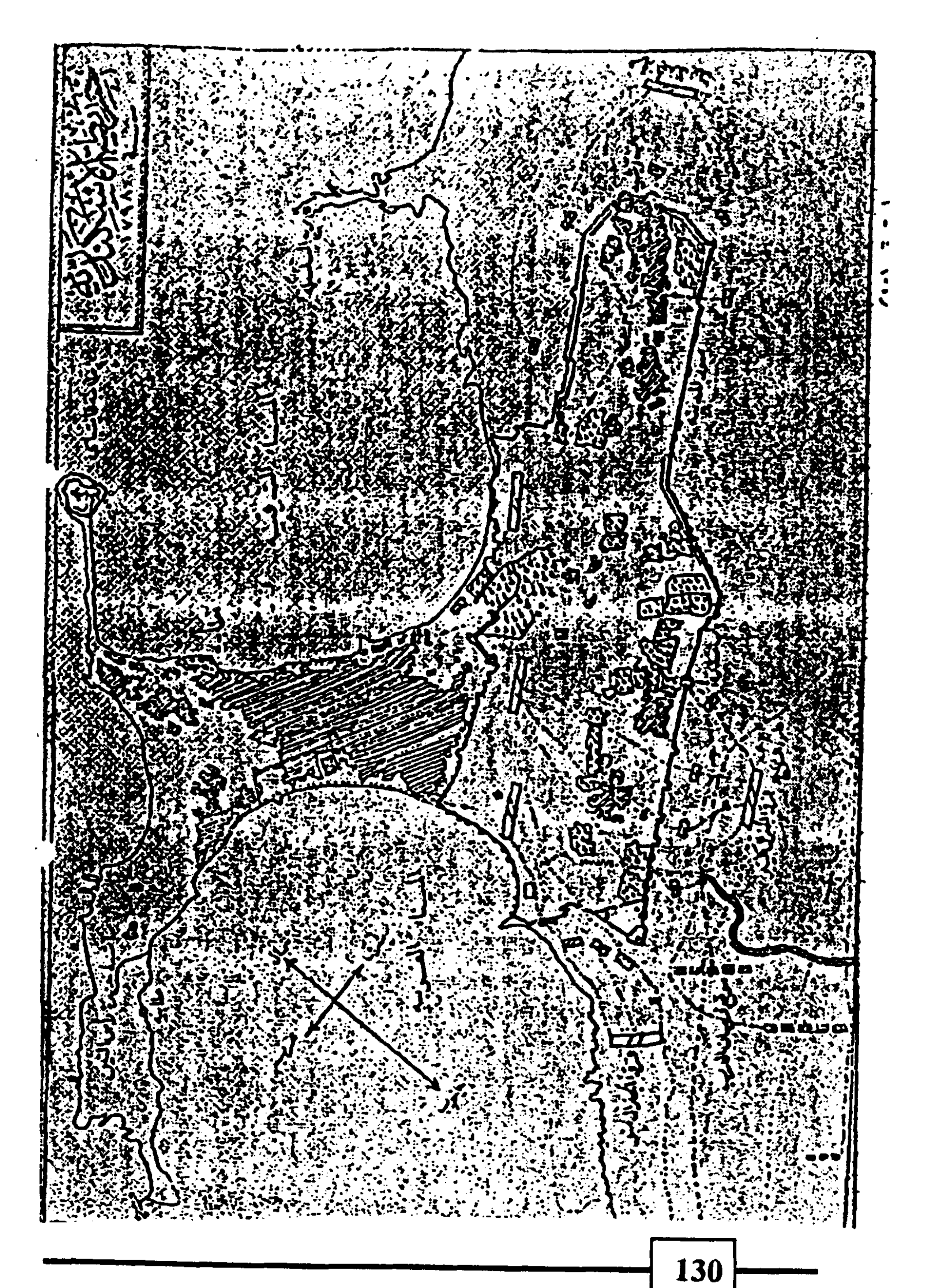


الاسكندرية فى العهد الاغريقى والرومانى



خريطة رقم (٦)

الاسكندرية عند الفتح العربى لمصر
من كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية
(ج ٢)



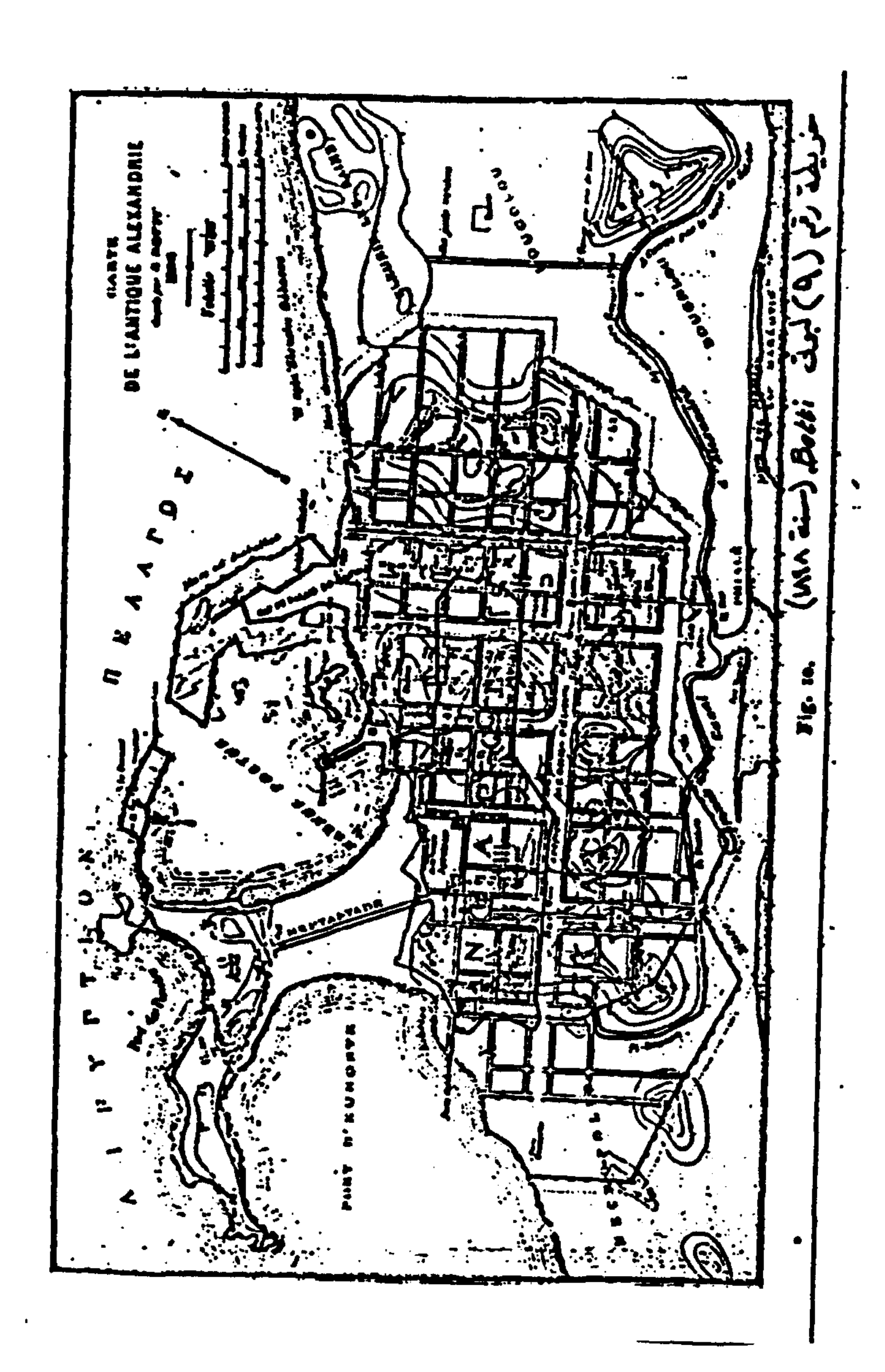


خريطة رقم (٨)

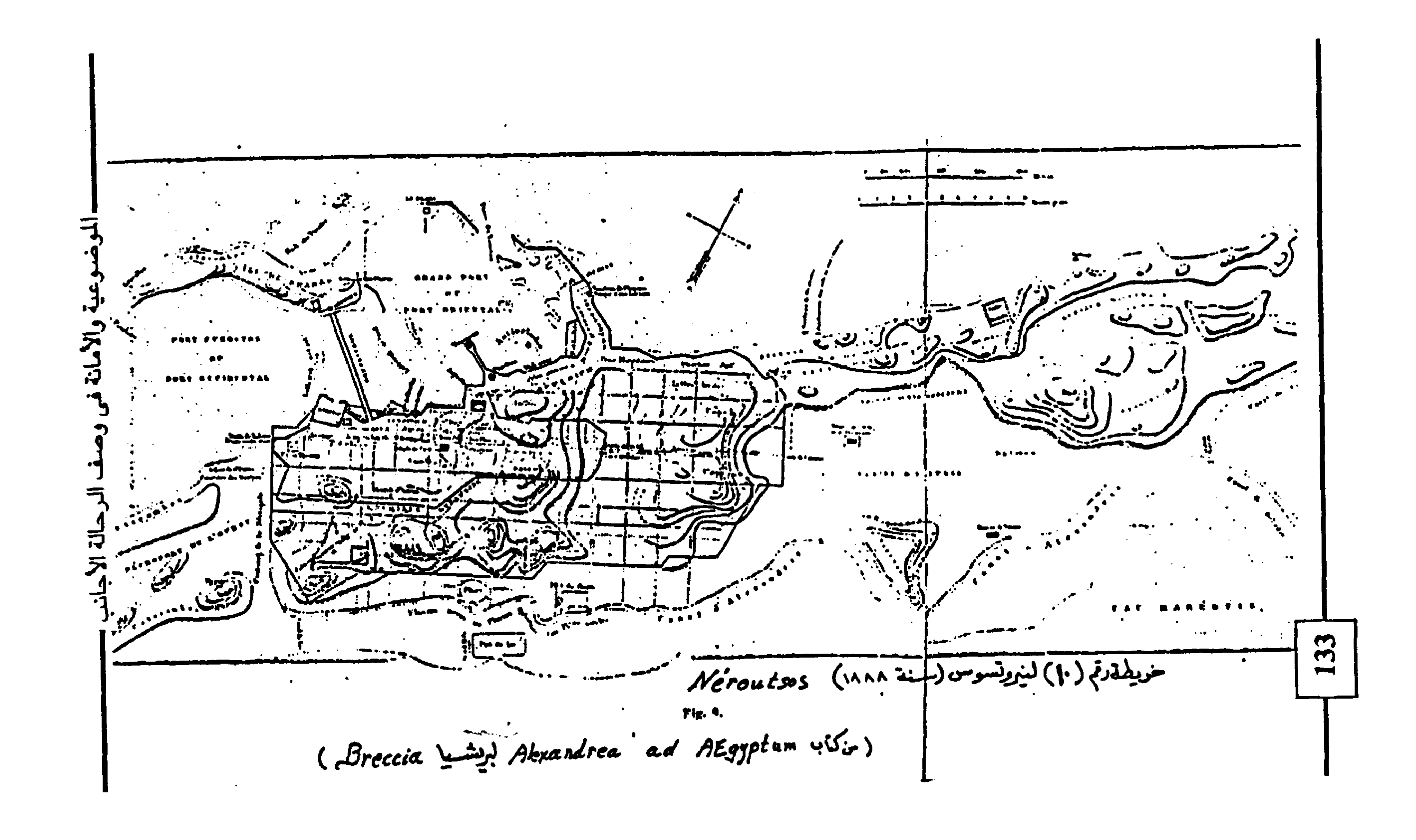
خريطة الإسكندرية

كما رسمها محمود الفلكى باشا للمقارنة بين حدود المدينة ومعالمها فى العصور القديمة (وقد رسمت باللون الأحمر) وحدود المدينة ومعالمها فى العصور الوسيطة (وقد رسمت باللون الأسود)

(من: الإسكندرية، طبوغرافية المدينة وتطورها للدكتور جمال الدين الشيال)



خريطة رقم (٩) لبوتي Botti (سنة ١٨٩٨)



خريطة رقم (١٠) لنيروتسوس (سنة ١٨٨٨) Néroutsos

(من كتاب Alexandrea ad AEgyptum لبريشيا Breccia)

صور من مظاهر الحضارة المتشابهة بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح *

دكتــورة

سحر السيد عبد العزيز سالم

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

يذكر ابن خلكان فى وفيات الاعيان أن الخليفة المنصور الموحدى ابتنى بالقرب من مدينة سلا (٥٩٢هـ) «مدينة عظيمة، سماها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية فى اتساع شوارعها وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه وبناها على البحر المحيط الذى هناك وهى على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلى .....»[(١)].

وقد نقل الناصرى السلاوى هذا القول عن ابن خلكان[(٢)].

ولم يكن ابن خلكان وحده هو الذى ربط فى الشبه بين كل من الإسكندرية ورباط الفتح فإن المؤرخ المغربى المعاصر للموحدين، عبد الواحد المراكشى ربط هو الآخر بين المدينتين عندما ذكر فى المعجب أن مسجد رباط الفتح الذى عرف فيما بعد بجامع حسان «كبير المساحة واسع الفناء جدا لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له مأذنة فى نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج، تصعد الدواب بالطين والأجر والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ولم يتم هذا المسجد[(٣)] إلى اليوم ....».

وإذا ما قمنا باجراء دراسة حول كل من المدينتين التى ترجع إحداهما إلى العصر القديم والأخرى إلى العصر الوسيط فسوف نلاحظ أن ثمة تشابه كبير يربط بينهما فى حقيقة الأمر فى الموقع والتخطيط والبنيان لاسيما صومعة الجامع[(٤)]. ولعل الأساس الذى قامت عليه مقومات هذا

التشابه هو ما يمكن أن نسميه التماثل فى «عبقرية الزمان والمكان» الذى اتسمت به كل منهما. فالإسكندرية قدر لها منذ أن اختار الإسكندر المقدونى موقعها ليبنى عليه عاصمته وحتى يومنا هذا، أن تكون ملتقى للحضارات المختلفة ومنطلق إشعاع حضارى وثقافى، ومركزاً اقتصاديا عالميا هاما وأيضا قاعدة استراتيجية بحرية غاية فى الأهمية، وكذلك كان حال مدينة الرباط والتى توفر لموقعها مزايا استراتيجية واقتصادية وحضارية عظيمة الأهمية فموقعها الطبيعى بين استدارة نهر واطلالتها على المحيط الأطلسى اكسبها تميزا استراتيجيا. وقد أدرك الرومان قديما أهمية هذا الموقع فأقاموا فى موضع قصبية(٥) الودايا قلعة لهم، قام على أنقاضها رباط مرابطى لجهاد هراطقة براقوطة(٦)، استخدمه تاشفين بن عى لقتال المهدى بن تومرت، ثم أعاد بناءه الخليفة عبد المؤمن بن على ليصبح نواة مدينة رباط الفتح التى شرع ولده أبو يعقوب يوسف فى بنائها ثم استكملها من بعده ولده المنصور وقد حدثتنا المصادر العربية عن المكانتين الاقتصادية والعلمية اللتين امتازت بهما مدينة رباط الفتح منذ إنشائها بين مدن المغرب الإسلامية ولعل ذلك يذكرنا بمقولة ابن صاحب الصلاة الشهيرة عن مدينة رباط الفتح «وكان أهل الأثر يقولون فى ذلك التاريخ سيكون فى هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة عظيم»(٧)، وبنبؤة المهدى بن تومرت التى أوردها عبد الواحد المراكشى من أن رباط الفتح هى التى ستبقى فى أيدى أهل المغرب ثم يفتح الله عليهم منها فى تجميع كلمتهم(٨).

وفى رأيى أن المدن كالبشر، فإذا كان لكل إنسان شخصيته الخاصة

بها الميزة له وكذلك إمكانيات وقدرات ذاتية تجعل شخصا ما يتفوق علي غيره ، فكذلك شأن المدن فهناك من المدن والبلاد ما يحمل من المقومات الطبيعية والبشرية ما يجعلها تبرز بين غيرها في تفوقها ، ومن بين هذه المدن التي حملت بجدارة صفة " عبقرية الزمان والمكان " مدينة بين المقدس علي سبيل المثال ، فهي ملتقي الديانات الثلاثة والتي بحكم وقوعها في فلسطين ، تقع في قلب منطقة الشرق الأدني القديمة ، وهناك مدينتي " القاهرة " و " الإسكندرية " باعتبارهما مدن مصرية ، فمصر حباها الله موقع جغرافي فريد فهي تقع في قلب العالم العربي وفي نفس الوقت في قلب العالم الإسلامي ، وكذلك في قلب العالم كله تتحكم في عدد من أهم المجاري المائية العالمية ، وكذلك العراق ، وعاصمته بغداد ، فالعراق له حضارة من أقدم وأعرق الحضارات في التاريخ ، والعراق يمثل قديما الجناح الشرقي في منطقة الشرق الأدنى القديم ، والبوابة الشرقية للعالم الإسلامي في العصرين الوسيط والحديث ، وكذلك كانت بلاد المغرب فهي الجناح الغربي للعالم الإسلامي فإذا كان العراق هو البوابة الشرقية فإن المغرب هو البوابة الغربية لعالم الشرق الأدني قديما والأمة الإسلامية في العصرين الوسيط والحديث ، وكان لمدينة رباط الفتح وضع هام وخاص فهي بإطلالتها علي المحيط الأطلسي ، تطل علي العالم الغربي كله وتعد بمثابة همزة وصل بين هذا العالم ، والعالم الإسلامي ، وكانت بحكم موقعها في وسط المغرب الأقصى بمثابة قاعدة مركزية لربط أنحاء المغرب بعضه ببعض وكذلك لربطه ببلاد الأندلس .

وسنقوم فى السطور التالية بمحاولات أكثر تفصيلا لتوضيح أهم ملامح الالتقاء والتقارب بين كل من الإسكندرية ورباط الفتح فى المجالات المختلفة. ونلاحظ أن أهم ملامح التقارب تتمثل فى الموقع الجغرافي فكل من الإسكندرية ورباط الفتح تطل على ساحل البحر، الأولى على البحر المتوسط والثانية على البحر المحيط. ولعل الموحدين عندما اختاروا موضع مدينة رباط الفتح لبناء هذه المدينة كانت قد وصلت إلى أسماعهم الشهرة الكبيرة التى كانت تنعم بها مدينة الإسكندرية منذ أقدم العصور فبحثوا عن موضع ساحلى يتميز بخصائص جغرافية واستراتيجية مشابهة. فوجدوا أن موضع الرباط يجمع بين كل المقومات، فهى إلى جانب وقوعها كامتداد لقصبة تاشفين بن على القائمة على رباط المرابطين لقتال برغواطة محل القلعة الرومانية القديمة كما سبق أن ذكرنا، مدينة ساحلية، من الممكن أن تلبى حاجتهم إلى الجهاد البحرى وتحقق الغرض من بنائهم لها لتكون قاعدة للجهاد فى الأندلس أو لمحاربة أعدائهم فى بلاد المغرب، وكذلك مركزا اقتصاديا هذا على النحو الذى كانت عليه مدينة الإسكندرية فى مصر. وقد دفع هذا التحليل الكثير من المؤرخين إلى وصف أبى يوسف يعقوب المنصور بأنه كان يفكر فى بناء مدينة جديدة تخليدا لذكرى انتصار الأرك على غرار الحواضر الإسلامية الكبرى(٩).

أما بالنسبة لمدينة الإسكندرية فإنها تختلف بعض الشئ من حيث التخطيط عن مدينة رباط الفتح. فهى تتكون أساسا من قرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis يحدها من الشمال جزيرة تعرف باسم جزيرة

فاروس كانت بمثابة حاجزاً طبيعياً لها يحميها من أنواء البحر وعواصفه، ويحدها من الجنوب بحيرة مريوط[١٠]، في حين أن مدينة رباط الفتح لم تكن محاطة لا في شمالها بجزيرة ولا في جنوبها ببحيرة، وبرغم ذلك الاختلاف الظاهرى فى التخطيط والوضع الجغرافى بين المدينتين إلا أن عاملا جغرافيا أخر هاما للغاية قرب بين المدينتين وهو وجود مجرى مائى فى كل منهما، ففى حالة مدينة الإسكندرية، لاحظنا أن بحيرة مريوط كانت تقع جنوب الإسكندرية، وهى بحيرة عذبة كانت مياه النيل تصل إليها عن طريق قنوات تتفرع من ترعة شيديا، وهذه الترعة كانت تخترق مدينة الإسكندرية وتصب فى البحر المتوسط، وكانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر، وبذلك تمكنت المدينة من التزود بمياه النيل. ويذكر المؤرخون أن هذه الترعة كانت تتفرع إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما بمحاذاة الشاطئ إلى كانوب (أبى قير) بينما يتجه الآخر إلى الإسكندرية[١١] ويدور جنوب المدينة ثم يصب فى الميناء الغربى المعروف بالصندوق وأن كان بريشيا Breccia يعتقد أن هذا الفرع كان يصب فى الميناء الشرقية[١٢]. أما رباط الفتح فتقع على امتداد الضفة اليسرى لنهر أبى رقراق فى مواجهة سلا كما سبق أن أشرنا فى بداية البحث، وكان هذا النهر يصب فى المحيط الأطلسى مما أتاح الفرصة لبعض السفن الإبحار فى النهر والدخول اليه بعكس ما أشار إليه كاييه Caillé فى كتابه عن الرباط * .

وإذا انتقلنا للحديث عن تشابه المدينتين فى التخطيط العمرانى، فإننا نلاحظ أن مدينة الإسكندرية أسست وفق تخطيط مسبق لها ولشوارعها

ولأهم مبانيها شأنها فى ذلك شأن سائر المدن يونانية البناء، ومن المعروف أن دينوقــراطيس Denokrates مـــــهندس الإسكندر هـو الذى وضع أساسها[١٣]، ولم يتم بناؤوها فى عـهد الإسكندر، وإنما استكملها خليفته بطليموس سوتر. وكانت المدينة تمتد فى عصر البطالمة من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل بحيث تؤلف مركزا عمرانيا على شكل شريط ساحلى يزيد طوله على عرضه، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة رصفت بالبازلت الاسود أو الاصفر[١٤] تتقاطع فيما بينها، سبعة ممتدة طولا بحذاء الساحل، واثنا عشر تقطعها عرضا من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت تبدو وكأنها رقعة شطرنجية ويرجع الفضل فى هذا «التخطيط الشطرنجى» إلى المهندس دينوقراطيس الذى اتبع نفس نظام التخطيط الإغريقى الذى ابتدعه هيبودا موس الميليطى وطبق فى تخطيط المدن اليونانية منذ القرن الخامس ق.م. مثل هاليكارناسوس وبيرايوس وردس وكان يخترق المدينة شارعان رئيسيان، لا يقل اتساع الواحد منهما عن ثلاثين مترا الاول يسمى الشارع الكانوبى Canopus لأنه يمتد من الباب الشرقى فى اتجاه ضاحية كانوب (أبى قير الحالية) متتبعا طريق الحرية فى الوقت الحاضر[١٥] ثم يمتد من الباب الغربى حتى شاطئ البحر. أما الطريق الثانى فكان يقطع الطريق الكانوبى فى وسطه ويتفق فى تخطيطه مع خط شارع النبى دانيال الحالى. ويقال أن بطليموس سوتر قام بخدعه ماكره، عندما اتفق سرا مع أحد القادة اليونان لنقل جثمان الإسكندر من بابل حيث توفى إلى سورية، ومنها إلى مصر بدلا من مقدونية حيث كان يجب أن يدفن طبقا لما تم الاتفاق عليه بين قادته وقد قام بطليموس بدفن جثمان قائده الراحل فى منف بصفه

مؤقته ثم نقله بعد ذلك إلى الإسكندرية. [١٦] حيث دفن كما هو معروف بين الباحثين فى ضريح يقع عند نقطة التقاء الطريقين الرئيسيين السابق ذكرهما واللذين كانا يخترقان مدينة الإسكندرية، وعرف هذا الموضع بالسوما أو السيما بمعنى الجسد الحى نسبة إلى جثمان الإسكندر[١٧]. وكان بطليموس سوتر يهدف من وراء دفن قائده الإسكندر فى الإسكندرية، اكتساب مكانة روحية كبيرة للمدينة التى ستصبح عاصمته باعتبار أن الاغريق كانوا ينظرون إلى الإسكندر نظرة وإن لم تصل إلى التأليه الكامل فهى لا تبتعد كثيرا عنه، فأصبحت الإسكندرية منذ ذلك الحين مركز الثقل الأول في العالم المتأغرق[١٨] . وقد وضع بطليموس نظاما دقيقا لتزويد مدينة الإسكندرية بمياه الشرب والسقاية. فمدت فى جوف الأرض قنوات لتوصيل هذه المياه من ترعة شيديا إلى صهاريج وخزانات جوفية ما زال بعضها قائما حتى اليوم، فقد لاحظ الجغرافيون والمؤرخون العرب هذا التنظيم الدقيق، وقام بوصفه كل من المسعودى[١٩] وابن جبير[٢٠] واستمر ازدهار الإسكندرية يتزايد فى العصور التالية حتى إذا دخلها العرب عند افتتاحهم لها سنة ٢١هـ، بهتوا لما شاهدوه فيها من حسن العمارة وروعة التخطيط وجليل العمران حتى أن القائد عمرو بن العاص فكر فى بادئ الأمر فى اتخاذها عاصمة لمصر الإسلامية[٢١].

أما من حيث التشابه بين المدينتين فى التخطيط العمرانى فان تيراس Terrasse يذكر أن رباط الفتح بنيت فى موضع حصين حصانة طبيعية على مرتفع قريب من النهر وفى واجهة البحر، وهذا يذكرنا بموقع الإسكندرية ذى الحصانة الطبيعية حيث تحميها جزيرة فاروس فالموقعان

وان اختلفا فى التفاصيل إلا أنهما اشتركا فى «الحصانة الطبيعية». وإذا كانت الإسكندرية قد حظيت بتخطيط مسبق قبل بنائها شأن المدن اليونانية، فإن الرباط قد حظيت أيضا بهذه الميزة.

وتذكر المصادر العربية أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على عهد إلى المهندس البناء عبد الحق بن إبراهيم بن جامع بإتمام بناء قصبة المهدية[٢٢]، وإن العمران بدا يمتد حولها فعمرت سريعا بالسكان وأصبحت بذلك نواة لمدينة جديدة هى رباط الفتح، كما تذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن كان المسئول الأول عن تخطيط مدينة رباط الفتح ورسم شوارعها وفى ذلك يقول عبد الواحد المراكشى «وكان أبو يعقوب رحمه الله هو الذى اختطها ورسم حدودها وابتدأ فى بنيانها فعاقه الموت عن اتمامها ...»[٢٣]. ويشير ابن صاحب الصلاة إلى هذه الحقيقة بقوله «وأمير المؤمنين به أمير المؤمنين هذا هو الذى مصرها ومهدها وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب .....»[٢٤].

وتعتبر مدينة رباط الفتح على هذا النحو من الأمثلة النادرة للمدن الإسلامية المحدثة التى تميزت بتخطيط مسبق لأسوارها وشوارعها قبل الشروع فى بنائها، فالمدن الإسلامية تتفق جميعها فيما بينها سواء فى المشرق أو المغرب وسواء أكانت مدنا مفتوحة أو مدنا أسست فى عهد الإسلام فى مظهرها العمرانى العام ونعنى فى طريق تكوين شوارعها وتعرضها وتشعب طرقاتها وتوزيع مراكزها العمرانية كما تتفق فى أبنيتها عامة باستثناء تفاصيلها الزخرفية بتأثير المناخ أو طبيعة المكان، وتتمثل هذه

الظاهرة فى مصر والشام والعراق وبلاد المغرب والأندلس، ويمكن تفسيرها بأن المسجد الجامع الذى لا يختلف كثيرا فى نظام بنائه فى سائر أنحاء العالم الإسلامى كان يعتبر أساس التنظيم العمرانى للمدينة الإسلامية، والذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية وكان تشييد المساجد الجامعة فى الإسلام أساس العمران فى المدن إسلامية الإنشاء أو المدن المفتوحة التى يراد طبعها بطابع الإسلام، فكان المسلمون منذ فجر الإسلام وفى زمن الفتوحات الكبرى يشيدون المسجد الجامع فى المدن المفتوحة رغبة فى إسباغها الطابع الإسلامي، لأن المسجد الجامع فى الواقع هو الذى يتحكم فى كل مراكزها العمرانية، كما كانوا يبدأون ببناء المسجد عند تأسيسهم للمدن الجديدة مثلما حدث عند بناء سعد بن أبى وقاص لمدينة الكوفة سنة ١٧هـ، وبناء عمروٍ بن العاص للفسطاط سنة ٢١هـ، وبناء عقبة بن نافع لجامع القيروان فى القيروان وبناء حسان بن النعمان الغسانى لجامع الزيتونه بتونس، وبعد بناء المسجد الجامع الذى سرعان ما تلتف حوله الدور ومختلف الأبنية والأسواق، وتتوزع الطرق بين هذه المرافق جميعا وتشكل شبكة معقدة من الدروب والحارات والأزقة المتعرجة التي تكسب المدينة طابعا مميزاً لأنها لم يخطط لها تخطيطا مسبقا.

أما فى حالة رباط الفتح. فإن تخطيطها سبق بناء مسجدها الجامع(٢٥). فقد شرع الخليفة ابا يعقوب يوسف فى تخطيط المدينة وبناء أسوارها وأبوابها قبل بناء مسجدها الجامع الذى لم يبدأ العمل فيه إلا فى عهد الخليفة المنصور كما سبق أن ذكرنا، وبذلك فإن شكل شوارعها جاء

مختلفا عن الشكل التقليدى المعروف للشوارع الضيقة والدروب المتعرجة فى المدن الإسلامية، ويدت مدينة رباط الفتح على حد وصف تيراس Terrasse «مدينة توزعت فيها شبكة منتظمة من الطرق الفسيحة على غرار تخطيط مدينة الإسكندرية .....»[٢٦].

وكما حرص البطالمة على تزويد مدينة الإسكندرية بالمياه الصالحة للسقاية وإنشاء الصهاريج والخزانات اللازمة لذلك اهتم خلفاء الموحدين بتزويد رباط الفتح بالسقايات فقد ذكر البيذق أن الخليفة عبد المؤمن بن على قد مد السقاية من عين غبولة إلى موضع قصبة تاشفين حين أسس قصبة المهدية[٢٧]، وكذلك أشار إلى ذلك كل من ابن صاحب الصلاة[٢٨] وابن أبى زرع[٢٩]، أما الخليفة أبو يعقوب يوسف فقد لاحظ عند زيارة لرباط الفتح سنة ٥٦٦هـ أن الماء قد أسن وفدجرية فقام بتجديد مشروع والده مضيفا إليه صهريجا يتجمع فيه الماء[٣٠]. وقد أشار كل من صاحب الاستبصار والحميرى إلى وجود عدة سقايات وصهاريج للمياه بموضع رباط الفتح[٣١].

وإذا كان بطليموس بنقله لجثمان الإسكندر إلى الإسكندرية يهدف إلى إسباغ أهمية روحية للإسكندرية عن غيرها من مدن العالم المتأغرق فإن رباط الفتح حظيت هى الأخرى بمكانة روحية ومعنوية لا تقل بأى حال من الأحوال عن تلك التى حظيت بها مدينة الإسكندرية وأعنى بذلك ارتباطها اسما وفعلا بمفهوم «الجهاد المقدس» وهى نقطة سنعود للحديث عنها بمزيد من التفصيل فى الصفحات التالية، ولكن ما نود الآن الإشارة إليه أن هذه المكانة الروحية ترجع أيضا فى اعتقادى الشخصى إلى عامل ثانٍ يتمثل فى

وفاة أكثر من خليفة موحدى برباط الفتح وحرص عدد آخر منهم على قضاء الأعياد الدينية على وجه الخصوص بها، وقد أوردت على الصفحات السابقة بعض الأمثلة لذلك فى سياق عرضى التاريخى ولعل أهم هؤلاء الخلفاء الموحدين الذين توفوا برباط الفتح، الخليفة عبد المؤمن بن على الذى توفى وفقا لما نكره كل من صاحب الحلل الموشية(٣٢) وابن أبى زرع(٣٣) والغبرينى(٣٤) ويوجندار(٣٥) فيها سنة ٥٥٨هـ بل أن ابن عذارى يؤكد أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بايع لولده فيها أيضا(٣٦).

وتذكر المصادر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن دفن أولا برباط الفتح بعد عودته شهيداً من غزاته بشنترين سنة ٥٨٠هـ، وأن ولده أبا يوسف يعقوب تأسى والده فتلقى بيعته بها دون غيرها من مدن المغرب(٣٧). ويؤكد ابن الخطيب أن الخليفة محمد الناس الموحدى توفى فى رباط الفتح سنة ٦١٠هـ(٣٨). ومن هذا المنطلق بدأت مدينة رباط الفتح تكتسب مكانة روحية بحيث أصبحت مرتبطة إلى حد كبير بالقيم الروحية لدى خلفاء الموحدين لذلك كانوا يفضلون قضاء أيام شهر رمضان والأعياد بها، واستمر هذا التقليد متبعا فى عصر بنى مرين.

واستكمالا للحديث عن التخطيط والنواحى المعمارية والعمرانية، فلابد أن نشير إلى منار الإسكندرية ومدى الارتباط بينه وبين صومعة جامع حسان، وأوجه التشابه بينهما والتى نصت عليها بعض المصادر العربية كما سبق أن أشرنا.

يتفق المؤرخون وعلماء الآثار على أن منار الإسكندرية. كان يتألف من طابق رئيسى يتمثل فى برج ضخم مربع القاعدة يبلغ ارتفاعه ستين مترا، وتميل جدرانه ميلا خفيفا كلما ارتفعت نحو الداخل، ويعلوه طابق ثان مثمن الشكل أقل حجما يبلغ ارتفاعه ثلاثين مترا. وتتخذ جدرانه نفس الميل إلى الداخل، ويلى ذلك طابق أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥٠ مترا ينتهى من أعلى بجوسق قائم على ثمانى اعمدة من الجرانيت، ويوجد من أعلى بناء مثلث الشكل يرتقى بأعلاه تمثال ضخم من البرونز يبلغ ارتفاعه سبعة امتار يمثل اله البحر بوسيدون[٣٩] وكان الصعود إلى المنار يتم بواسطة طريق صاعد مبسوط لا درج له[٤٠] وكان منار الإسكندرية عند بنائه يعد من أعاجيب الدنيا السبعة[٤١]، وظل المنار يحتل هذه المكانة طوال العصر الوسيط حتى طليعة القرن السابع الهجرى عندما بدأ يفقد مكانته تدريجيا بسبب ما تعرض له بنيانه العلوى من تصدع وانهيار بسبب الزلازل المتتابعة، لا سيما زلزال سنة ١٨٠هـ الذى تسبب فى هدم طابقة العلوى وظل المنار على هذه الحال حتى قام أحمد بن طولون (٢٥٤هـ - ٢٧٠هـ) بإصلاحه وترميمه فجعل فى اعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح[٤٢]. وقد تعرض المنار لزلزال آخر عنيف سنة ٣٤٤هـ هدم ما يقرب من ثلاثين ذراعا من أعلاه[٤٣]. واستمر المنار قائما حتى قام السلطان ركن الدين بيبرس البندقدارى ببناء ما تهدم منه أثناء زيارته للإسكندرية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢م) وأنشأ فى أعلاه مسجدا لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال حدث سنة ٧٠٢هـ [٤٤] (١٣٠٢م). ويرجح المؤرخون أن تهدم المنار كله حدث فيما بين عامى ٧٢٥ و ٧٥٠ هـ (١٣٢٥، ١٣٤٩م)، وهما العامان

اللذان زار فيهما الرحالة ابن بطوطة الإسكندرية، ففى المرة الأولى كان أحد جوانبه وفقا لرواية ابن بطوطة مهدما، وفى المرة الثانية كان الخراب قد استولى على المنار تماما(٤٥). ولم يبق من المنار فى سنة ٧٧٥هـ فى زمن النويرى السكندرى إلا البقعة التى كان يقوم عليها مما أوحى للسلطان قايتباى أن يبنى على أنقاضه برجا جديدا عرف ببرج قايتباى ومن خلال هذا العرض السريع يتبين لنا أن منار الإسكندرية كان لا يزال قائما عندما شرع الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدى فى بناء مدينة رباط الفتح، واستكملها بعد وفاته ولده يعقوب المنصور، وكان طلاب العلم المغاربة وحجاج المغرب القادمين إلى الإسكندرية يشاهدون المنار فيتفاءلون به ويعتبرون أنفسهم قد وصلوا إلى بر الأمان بعد رحلة بحرية صعبة تعرضوا خلالها لأخطار الغرق بحرا، فأصبح المنار راسخا فى مخيلاتهم ولعل ذلك كان حافزا على تقليد هذا المنار فى صوامع ومآذن المغرب التى كانت تقوم بالإضافة إلى وظيفتها فى الآذان بهداية الرحالة والمسافرين برا.

وإذا عدنا إلى ما ذكره كل من ابن خلكان وعبد الواحد المراكشى من التشابه بين صومعة جامع الرباط ومنار الإسكندرية فإن ذلك يعنى أن عرفاء البناء برباط الفتح استوحوا طريقة بناء المئذنة من منار الإسكندرية الذى كان لا يزال قائما فى عهد المنصور الموحدى(٤٦).

وقد أشار الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى أحد أبحاثه إلى أنه يميل إلى الاعتقاد بأن منار الإسكندرية رغم اختلافه من حيث الوظيفة ومن حيث النسب عن المئذنة فى الإسلام قد أثر إلى حد كبير فى نظام المآذن فى

المغرب والأندلس ولاسيما مئذنة المسجد الجامع بالقيروان (١٠٥هـ) ومئذنة جامع صفاقس (٣٧٠/ ٩٨١م) والثلاث مآذن الموحدية مئذنة جامع الكتبية بمراكش وجامع قصبة الموحدين بإشبيلية ومئذنة جامع حسان[٤٧] بالرباط. ويذكر الدكتور سالم أن الشكل العام لمنار الإسكندرية كان هو النموذج الذى احتذاه المعماريون فى المغرب الادنى لمئذنتى القيروان وصفاقس، ولكن فى حالة المآذن الموحدية بمراكش واشبيلية وحسان بالرباط، فإن العمارة الداخلية للمنار كانت هى مصدر الإلهام لعرفاء البناء الذين أسسوا مآذن هذه المساجد الثلاثة[٤٨]. ومما لاشك فيه أن النص الذى اورده عبد الواحد المراكشى بهذا الصدد واضح وصريح وفى غاية الأهمية، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك فى أن صورة منار الإسكندرية كانت لا تزال راسخة فى مخيلة الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور وأنه أملى على مهندسيه رغبته فى أن تتشابه صومعة جامعه بالرباط مع منار الإسكندرية أولا من حيث الضخامة والارتفاع ومن المعروف أن طول كل جانب من قاعدة الصومعة يبلغ ١٦,١٥متر[٤٩] وهو يزيد كثيرا عن نظيره فى صومعة جامع إشبيلية وصومعة جامع الكتبية بمراكش، أما ارتفاعها اليوم فيبلغ ٤٤ مترا وكان مقدرا لها أن تتجاوز فى الارتفاع ٦٠ مترا، وثانيا من حيث النظام الداخلى للبناء حيث يتم الصعود إلى أعلى الطابق الأول عبر طريق مستو صاعد بدون درج أشار إليه عبد الواحد المراكشى عند وصفه لصومعة جامع حسان.

ويصف تيراس Terrasse هذا النمط الداخلى للبناء بقوله عن

الصوامع التوائم الثلاث «وبين الجدار الخارجى السميك والنواة الوسطى لايوجد درج وفق النظام الشائع للمآذن، وإنما يرتقى المرء عبر طريق صاعد بدون درجات بحيث يجتاز فى عطفات مؤربة (تتخذ زوايا قائمة) وقد طبق هذا النظام فى صومعة جامع إشبيلية (الجيرالدا) كما طبق فى صومعة جامع حسان بالرباط»(٥٠).

ولا يقتصر التشابه بين مدينتى الإسكندرية ورباط الفتح على النواحى العمرانية والمعمارية فحسب، وإنما أيضا فى الغرض الذى من أجله أنشئت كلتا المدينتين. ففى حالة مدينة الإسكندرية نلاحظ أن موقعها على ساحل البحر المتوسط أوحى لبانيها بأنها ستشغل دائما مكانة استراتيجية رفيعة، وتتبوأ مركزاً اقتصاديا ساحقا عبر كل العصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدينة رباط الفتح وإن كانت مكانتها الإستراتيجية قد فاقت مكانتها الاقتصادية.

فالإسكندرية اتسعت عمرانيا منذ إنشائها بالعظمة والفخامة ذلك لأن بطليموس الأول (سوتر) كان حريصا على تزويدها بكل ما كانت تحتاج إليه من مقومات هذه الفخامة والاتساع العمرانى، فقد ربط بين جزيرة فاروس وبين المدينة برصيف يبلغ طوله نحو ١٢٥٠ مترا وعرضه نحو ٣٠ مترا، وقدر لهذا الرصيف أن يتسع بمرور الزمن ويصبح حيا هاما من أحياء المدينة كما اعطى هذا الرصيف للمدينة بعدا استراتيجيا قويا فى ذات الوقت، فقد قسم ميناء الإسكندرية إلى ميناءين إحداهما شرقية وتعرف بالميناء الكبير Megas Limen والاخرى غربية وتسمى أيونو ستوس أى العود الحميد

Eunostos وعرفت أيضا بميناء السلام، وهى الميناء الحالية(٥١). وكان هذان الميناءان يتصلان فيما بينهما عن طريق ممرين محصنين فتحا بالرصيف عند طرفيه الجنوبي والشمالى. كما مد بطليموس من الطرف الشمالى لرأس لوكياس (رأس السلسلة) شريطا صخريا ينحنى نحو الغرب وظيفته حماية الميناء الشرقى من عواصف البحر وأنوائه. وهكذا أصبح ميناء الإسكندرية يفوق سائر موانئ البحر المتوسط منعه وحصانة. وكان يحيط بالإسكندرية فى العصر البطلمى وطوال العصر الرومانى والبيزنطى سور مجرى عظيم مزود بأبراج ضخمة يفوق فى إمتداده أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سرقوصة وأثينا(٥٢)، واستمرت هذه الاسوار الحصينة التى اكسبت المدينة منعة وقوة إستراتيجية إلى أن فتحها العرب بعد حصار طويل تخللته مفاوضات انتهت بتسليم المدينة للمسلمين(٥٣).

وكان بالإسكندرية فى العصر البطلمى دار لصناعة السفن وهى نفس دار الصناعة التى اتخذها عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد تجديدها(٥٤) لصناعة السفن الإسلامية التى عهد إليه معاوية بن ابى سفيان بصناعتها ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم أنها هى نفسها دار الصناعة الغربية التى كانت تقع عند نهاية المطرق الغربى داخل سور الإسكندرية ويلصق السور، وقد توصل إلى هذا الرأى بعد اكتشافه لأثر له أهميته فى القطاع الغربى من الإسكندرية لصق سورها المصاقب للباب الأخضر ويتميز هذا الأثر بمدخل على هيئة الصرح المصرى القديم، ومن الواضح أنه قد تبقى من مدخل دار الصناعة البطلمية، ويؤدى إلى درج يفضى إلى باب إسلامى

ذى ممر منكسر تعلو مدخله فتحة طويلة ضيقة لعلها كانت مكانا يرتفع إليه المشط الحديدى الذى كان صلاح الدين خليل بن عرام نائب السلطنة بالإسكندرية قد دعم به تحصين هذا الباب سنة ٧٧٧ هـ عقب غارة القبارصة على المدينة سنة ٧٦٧هـ(٥٥).

ولعل هذه المكانة الرفيعة التى تبوأتها الإسكندرية والحصانة والمنعة التى اتسمت بها منذ نشأتها هى التى دفعت ولاة الإسكندرية منذ الفتح العربى وحتى نهاية العصر الأموى إلى تحصين سواحلها بالأربطة والنواظير، وكان خوف المسلمين على هذه المدينة من التعرض للاعتداءات البيزنطية البحرية الدافع الرئيسى وراء اعتبارهم لها منذ افتتاحها ثغرا من الثغور الإسلامية التى يفد إليها المرابطة بقصد الرباط وقد نزلت قبائل العرب بالإسكندرية منذ أيام عمرو بن العاص وانتجعوها للرباط والجهاد وقبل أن نستطرد فى الحديث عن وضعية الإسكندرية فى العصر الإسلامى كرباط وثغر للجهاد، نود أن نشير إلى أوجه التشابه فيما ذكرناه بينها وبين رباط الفتح.

إذن فقد كانت لكل من المدينتين مكانة إستراتيجية فى التاريخ القديم والوسيط أهلتها لتتبوأ المكانة المتميزة التى ظهرت بها فى العصر الإسلامى، وإذا كنا قد أشرنا إلى تحول مدينة الإسكندرية إلى ثغر ورباط عقب الفتح الإسلامى لمصر مباشرة فإن رباط الفتح منذ أن أسست قصبتها المسماة بالمهدية ومن عبد المؤمن بن على بنيت على هذا الأساس ولهذا الغرض لكى تكون رباطا يقصده الراغبون فى الجهاد. وقد اهتم كل من الخليفة أبى

يعقوب يوسف وأبى يوسف يعقوب المنصور باحاطة مدينة رباط الفتح باسوار قوية ومنيعة لاتقل فى المنعة والحصانة عن أسوار الإسكندرية البطلمية. وفيما يتعلق بصناعة السفن فإن دار صناعة سلا التى كان بابها مسامتا لجامع حسان كانت تقوم بهذه المهمة وكانت الرباط كما أثبتنا فى كتابنا عن مدينة رباط الفتح(*)، ميناء حربية وتجارية هامة طوال العصر الإسلامى.

ونتوقف قليلا للإشارة إلى نظام الرباط والأربطة قبل أن نسترسل فى الحديث عن المدينتين كربط إسلامية هامة.

المرابطة تعنى ملازمة ثغر العدو وتعنى أيضا المحافظة على أوقات الصلاة طبقا لتفسير الإمام أبى بكر الطرطوشى(٥٦) للآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»(٥٧). ومن ذلك يتبين أن الرباط يعنى المكان الذى يجتمع فيه الفرسان المجاهدون قبل الخروج إلى دار الحرب للجهاد وكان يجتمع فيه أيضا أهل الزهد والنسك والتصوف تقربا لله(٥٨).

وقد ارتبط الجهاد بالرباط والمرابطة فأصبح من أخص صفاتهما(٥٩). وقد استقى هذا المفهوم من الآية القرآنية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»(٦٠).

ويختلف المؤرخون فيما بينهم حول تحديد بداية ظهور الأربطة فى التاريخ الإسلامى، فبينما يرى كل من الدكتور السيد عبد العزيز سالم والدكتور محمد توفيق بليغ والدكتور محمد الأمين بلغيث أن الأربطة ظهرت

لأول مرة فى المشرق الإسلامى قبل بلاد المغرب وذلك عقب الفتوحات الإسلامية مباشرة لحماية المناطق الساحلية التى كانت فى حوزة المسلمين، فساحل الشام كله كان يعتبر رباطا بعد الفتح إذ تنتهى عنده الحدود الإسلامية وتبدأ الدولة البيزنطية، وتتناثر على تلك الحدود الثغور، وكانت ملازمة هذه الثغور أسمى ما يصل إليه المسلم من تقوى، وكان بناء الربط أو الأربطة وملازمة المسلمين ومرابطتهم فيها يرصع ثغور الشرق فى البر والبحر[٦١] وكذلك كان الحال فى مصر[٦٢] بعد الفتح الإسلامى حيث اعتبرت الإسكندرية ثغرا ورباطا فقد أرسل إليها عمرو بن العاص عقب الفتح قبائل العرب لسكناها وحراستها والمرابطة فيها فنزلت قبيلة لخم فى المكان المعروف بكوم الدكة وجذام ببركة حذام ونزلت كندة بالبراكل، ونزلت الازد بحارة الازدى وحضرموت بشارع الحضارمة بينما نزلت خزاعة والمزاغنة بناحية أبى قير شرقى الإسكندرية، وبدأت تنتشر الاحاديث النبوية فى فضل الإسكندرية والرباط فيها لتشجيع المرابطة والمشاغرة ومن هذه الأحاديث حديث عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول «المقيم بالإسكندرية ثلاثة أيام من غير رياء بمنزلة من عبد الله سبعين سنة ما بين الروم والعرب»[٦٣]. وحديث آخر عن سعد بن أبى وقاص ذكر فيها رسول الله أن الإسكندرية وعسقلان عروستان والإسكندرية أفضلهما ومن رابط بالإسكندرية أربعين يوما كتب الله له براءة من النار[٦٤]. أما بالنسبة لأربطة المغرب فقد اهتم الدكتور حسن محمود بإبراز دورها فى هذه البلاد المغربية دون الإشارة إلى دورها فى المشرق الإسلامى، وأوضح أن بداية ظهورها على سواحلها كان لرد الخطر البيزنطى عن الأراضى حديثة العهد بالإسلام،

وأن الربط فى المغرب كانت فى أوائل الأمر مجرد حصون تقام فى المناطق الأكثر تعرضا لغارات العدو، وأشار إلى أن القيروان تعتبر أول رباط كبير يتخذه العرب لصد غارات الروم مفسرا كلمة قيروان بأنها موضع اجتماع الجيش وقيل محط أثقاله وأشار تأكيدا ودعما لرأيه إلى النص الذى أورده الدباغ فى كتابه معالم الإيمان من أن عقبة بن نافع أراد ببنائه القيروان أن تكون محل رباط(٦٥).

كما أشار الدكتور حسن محمود إلى أن برقة اعتبرت رباطا وأشار إلى مرابطة زهير بن قيس البلوى بها عقب انسحابه من القيروان ثم مالبثت الأربطة أن تزايدت فى عصر دولة الأغالبة وعرفت آنذاك بالقصور والمصالح(٦٦).

ويذكر الدكتور فرحات الدشراوى بعد أن استعرض الخطر البيزنطى على السواحل العربية الإسلامية عقب الفتوحات الإسلامية للشام ومصر والمغرب أن اقدم رباط فى المغرب هو رباط سوسة الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٥ - ١٧١هـ) ويليه رباط المنستير الذى يرجع إلى عهد الوالى العباسى هرثمة بن أعين (١٧٩-١٨١هـ)(٦٧). وقد أشار كل من خايمى أوليفر أسين Jaine Oliver Asin ومانويلا مارين Manuela Marin إلى أن أقدم الأربطة التى ظهرت فى العالم الإسلامى هو رباط عبادان الذى أقيم فى جزيرة بين ذراعين من دجلة والفرات عند الخليج العربى(٦٨) .

ومن الجدير بالذكر أن الرباط فى المغرب الإسلامى عند نشأته، لم يتخذ طابعا عسكريا عدوانيا أو هجوميا حيث لم تنظم حملات عسكرية ضد المسيحيين فى تلك المرحلة البكرة، وإنما كانت مهمته الأساسية الحفاظ على المكاسب الإسلامية والدفاع عنها ضد أى عدوان يقوم بعد العدو(٦٩) .

أما نظام الحياة فى الرباط الإسلامى بوجه عام وفى المغرب الإسلامى على وجه الخصوص فقد اتسم بطابع دينى خالص، وإن كان بعض المرابطين يغادرون رباطهم أحيانا لفترات مؤقتة ثم يعودون إليها من جديد، ولكن جرت العادة أن يقضى المرابط عشرين أو ثلاثين عاما فى الرباط وربما حياته كلها حتى الوفاة، ولم يكن بقاؤه فى الرباط راجع إلى ضغط من أحد وإنما كان نابعا من رغبته الشخصية فحسب. وفى كثير من الأحيان كان المرابطون يلتزمون الزهد والتقشف الشديد فى الحياة(٧٠) . وقد أدى ذلك إلى ظهور حركة صوفية قوية بدأت فى أربطة المشرق الإسلامى فى القرن السادس الهجرى (١٢م) حولت الرباط إلى مقر دينى أو «ديرى» على حد تعبير أحد المستشرقين(٧١) . وقد انتقلت هذه الروح شيئا فشيئا إلى الرباط فى المغرب الإسلامى فظهرت طبقة كبيرة من الصلحاء والمريدين والمتصوفة فى عهد المرابطين والموحدين(٧٢) فى المغرب لاسيما فى المنطقة الغربية التى كانت فيما مضى مجالا لدولة برغواطة المنحرفة(*) وقد أفرد لهم ابن الزيات التادلى كتابا خاصا مسماه التشوف إلى رجال التصوف(٧٣) ونشير هناك إلى ازدهار حركة التصوف فى الإسكندرية أسوة بما حدث فى المغرب الأقصى ولعل أشهر هؤلاء الصوفية عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى

(ت٦١٢هـ)(٧٤) ولا عجب أن تزدهر حركة الصوفية فى الإسكندرية مثلما ازدهرت فى بلاد المغرب، فقد كانت ظاهرة التصوف فى القرن السادس الهجرى، ظاهرة عامة فى العالم الإسلامى كله وكان لزعماء الطرق الصوفية، المكانة المميزة فى الدعوة إلى الإسلام، واعادة المجتمعات الإسلامية إلى الطريق السليم(٧٥).

ولم تقتصر حركة التصوف فى هذا العصر (القرنين السادس والسابع الهجريين) على جماعة من الزهاد والمتصوفة بل عمت كافة الطبقات فى المجتمع المغربى. وقد حظى الصلحاء وأهل التصوف بمكانة مرموقة لدى الخليفة أبى يعقوب المنصور الموحدى الذى كان يستقبلهم بحفاوة عظيمة ويجزل عليهم العطاء(٧٦)، مما شجع كل طبقات المسلمين على الانخراط فى المرابطة وأصبح الرباط والجهاد فرض واجب على كل مسلم لا فرق بين قاض وفقيه وأديب وتاجر وصانع وفلاح(٧٧) .

ولعل هذا يذكرنا بالإجراء الذى اتخذه يعقوب المنصور لتشجيع التجار والصناع والفلاحين على الوفود إلى رباط الفتح والاستقرار فيها عندما أمر أن يمنح كل ساكن فيها تعويضا علاوة على ما تدر عليه مهنته اجتذابا لفئات مختلفة من الناس للمرابطة فى هذه المدينة، وقد فقدت الأربطة دورها العسكرى إلى حد كبير فى أواخر عصر المرابطين واصبحت مدرسة أو مؤسسة للتعليم والعبادة بعد ظهور حركة التصوف فى العصر الإسلامى(٧٨).

وكان وصف الرباط الإسلامى كمؤسسة جهادية وتعليمية دينية، مجالا

لدراسات عديدة لعل أشهرها الدراسة التى قام بها الدكتور محمد توفيق بلبع وتلك التى أصدرها Jaine Olive Asin [٧٩] وتلك التى قام بها الدكتور محمد الأمين بلغيث ومجموعة الأبحاث القيمة التى ساهم بها الأساتذة مانويلا مارين والدكتور فرحات الدشراوى والدكتور جمعة شيخة والدكتور ميكل دى أبالثا والدكتور مانويل اسبينار Manuel Espinar Moreno فى مؤتمر «الرباط الإسلامى» الذى عقد فى قطالونيا ١٩٨٩ بإسبانيا. وقد أشارت بعض هذه الدراسات الى أن الربط نوعان ربط للرجال، وربط للنساء، أما الرجال فكانت مهماتهم دينية وحربية فى حين كانت ربط النساء ذات طبيعة اجتماعية، فهذه الربط النسائية لم تكن تستخدم لمجرد التعبد وإنما كانت مجالا لإيواء النساء المطلقات أو الأرامل أى بمثابة ملاجئ لهن مثل رباط البغدادية فى القاهرة[٨٠] . ولم يكن وجود المرأة ملحوظا فى الفترة الأولى ولكن فيما بعد أصبحت النساء تؤلف جزءا من مجتمع المرابطين[٨١] لاسيما فى رباط صفاقس والمنستير وقصور طرابلس الغرب وفى رباط سلا (رباط الفتح). ويرى د. محمد الأمين بلغيث أن رباط سلا (نواة رباط الفتح) الذى ذكره ابن حوقل وأشار إلى أنه كان يحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف انسان وكان يضم رجالا ونساء أيضا حيث أن ١٠٠ ألف عدد كبير فى رأيه، وفى تصوره أن هذا العدد الضخم لم يكن قاصرا على الرجال خاصة وأن ابن حوقل لم يحدد نوع هؤلاء المرابطين وأنه لو أراد أن يعبر عن ذكورتهم لأضاف بعد الرقم كلمة رجلا كتمييز لجنس المرابطين فيه ولكنه عمم التمييز فاختار كلمة «إنسان»[٨٢] .

وعلى هذا النحو كانت كل من الإسكندرية ورباط الفتح دار رباط هامة[٨٣] وقد قيل فى فصل الرباط بالإسكندرية أقوالاً كثيرة وكتبت فى ذلك رسائل كثيرة منها على سبيل المثال «رسالة في فضائل الإسكندرية» وهى مخطوطة مجهولة المؤلف اشتملت على فتح الإسكندرية وفضل المرابطة فيها وذكر اسوارها وعدد مساجدها وهى محفوظة فى المكتبة التيمورية بالقاهرة[٨٤] وكتاب «الدرة السنية في تاريخ الإسكندرية». صنفه أبو مظفر منصور بن سليم السكندرى (ت ٦٧٣هـ)[٨٥] ومخطوط «فضائل الإسكندرية» لأبى على الحسن بن عمر بن أبى اسحاق المعروف بابن الصباغ[٨٦] .

وقد نزل الإسكندرية عدد كبير من الصحابة منهم سرق بن أسيد ويقال أسد الجهنى أو الديلمى أو الأنصارى، [٨٧] وعبد الله بن عمرو بن العاص[٨٨] وسفيان بن هانئ بن جبير ابو سالم الجيشانى الذى توفى بالإسكندرية فى إمارة عبد العزيز بن مروان[٨٩] وعلقمة بن يزيد المرادى الغطيفى الذى تولى رابطة الإسكندرية زمن معاوية بن أبى سفيان[٩٠] . كما نزلها من التابعين ثمامة بن شفى الهمذانى وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام[٩١] ، ومن تابعى التابعين سعيد بن يزيد الحيرى القتبانى الإسكندرانى وطلحة بن أبى سعيد الإسكندرانى والعلاء بن كثير الإسكندرانى[٩٢] ولم تكن الإسكندرية وحدها فى مصر دار رباط فقد انتشرت الحصون والمصالح والاربطة على طول ساحل الإسكندرية مما جعل ابن رسته يصف رباطات الإسكندرية ويسميها المحارس[٩٣] ولعل وجود هذه المحارس كان سببا فى تسمية الإسكندرية بالثغر المحروس[٩٤] .

واستمرت الإسكندرية طوال العصر الإسلامي مركزا بحريا قفاليا متميزا وتعرضت لغارات الصليبيين فى أواخر العصر الفاطمى، فقد ناصر أهلها القائد صلاح الدين يوسف بن أيوب ضد شاور الوزير الفاطمى الخائن وحلفائه من الصليبيين ووقف أبناء هذه المدينة المجاهدة وراء صلاح الدين الذى احتمى بها من أعدائه، وحاول شاور أن يغرى أهل الإسكندرية بكافة وسائل الإغراء لخذلانه، ولكن مساعيه باءت بالفشل وقد تعرضت الإسكندرية فى أوائل العصر الأيوبى لحملة بحرية قام بها وليم الثانى النورماندى ملك صقلية سنة ٥٦٩هـ، ولكن أهلها تصدوا لهذه الحملة وردوا هذا العدوان. وفى عام ٧٦٧ هـ تعرضت الإسكندرية لغزوة قام بها بطرس لوزينان على المدينة، وتعد هذه الحملة القبرصية إحدى الحملات الصليبية المتأخرة.

ونلاحظ أن الإسكندرية وحدها كانت تضم عددا كبيرا من الربط منذ عهد ابن رسته وحتى غزوة القبارصة، مما يؤكد على أهميتها الإستراتيجية . وكان منار الإسكندرية نفسه أحد هذه الأربطة وذلك قبيل بناء قلعة قايتباى على بقعته بعد تهدمه(٩٥) . وترجع أهم الأربطة التى أنشئت بمدينة الإسكندرية ووصلت إلينا أسماؤها فى المصادر العربية إلى القرنين السابع والثامن للهجرة. ومن أشهرها رباط الواسطى الذى كان يقع شرقى مسجد ابى العباس المرسى، وكان عبارة عن زاوية صغيرة تقوم في جهتها القبلية قبة صغيرة يتوسطها قبران، الشرقى منهما هو قبر منشئ الرباط الشيخ أطلكين شهاب الدين أبى على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبى الفتوح

نصر بن الشيخ أبى الفصل الواسطى، المتوفى سنة ٦٧٢[٩٦] . ومنها رباط سوار الذى كان يقع بظاهر الإسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبى حاليا أقام به نزيل الإسكندرية أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى [٩٧] المتوفى سنة ٦٧٢هـ. أما رباط الهكارى فقد انشأه محمد بن الأمير زين الدين أبى المفاخر بن عبد الله الهكارى (ت٦٨٣هـ) متولى ثغر الإسكندرية زمن السلطان المملوكى المنصور قلاوون، ودفن فى رباطه بخارج باب رشيد، وقد تولى ابنه حسام الدين ولاية الإسكندرية فى سلطنة الأشرف خليل[٩٨] . ومنها رباط ابن سلام الذى أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام خارج باب البحر بشبه جزيرة المنار قبل وقعة القبارصة سنة ٥٦٧ هـ بأكثر من سنة، وقد استشهد فيه أكثر من ثلاثين مجاهدا كانوا بأعلى الرباط عندما داهمهم القبارصة. أما رباط وتربة الأمير طغية فكان يقع فى شبه جزيرة المنار بالقرب من رباط ابن سلام وكان يقوم حوله عدد من الأضرحة، ومنها رباط قجباس الإسحاقى الذى عمره الامير قجماس الإسحاقى نائب سلطنة الإسكندرية فى أيام الاشرف قايتباى خارج باب البحر على شاطئ بحر السلسلة[٩٩] .

وفيما يتعلق بالمغرب الأقصى، فإن أول عهده بالربط يتمثل في رباط شاكر، وهذا الرباط نال شهرة كبيرة وأصبح مقصدا للأولياء والصوفية[١٠٠] . أما رباط نكور فقد بنى على ساحل البحر عند مصب نهرى نكور ونيس لتحصين هذه المنطقة وحمايتها من الاعتداءات البحرية على مدينة نكور نفسها التى تبعد خمسة أميال إلى الداخل، وقد تم بناؤه سنة ٢٦٣هـ

(٨٧٧م) على يد سعيد بن صالح. ويذكر الدكتور محمد توفيق بلبع أن غارات النورمانديين على سواحل الأندلس والعدوة وهجومهم على مدينة نكور وتغلبهم على أهلها وإقامتهم بها ثمانية أيام قبل ارتداهم عنها محملين بالغنائم والأسلاب، كان العامل الأساسى وراء بناء رباط نكور[١٠١] ، فى حين يرى جورج مارسيه، ويميل إلى الأخذ بوجهة نظره الدكتور محمد الامين بلغيث، أن رباط نكور إنما ابتنى هو ورباط شرشال ورباط وهران ورباط سلا (رباط الفتح) للقضاء على دولة برغواطة فى تامسنا[١٠٢] .

ومن الأربطة المغربية أيضا رباط قوز الذى أطلق عليه صاحب كتاب الاستبصار اسم «جوز»، ويعد من أشهر الأربطة المغربية، وقد أقيم على ساحل البحر المحيط عند مصب وادى تنسيفت الذى تقع مراكش على أحد روافده، وكان رباطا مخصصا لمجاهدة برغواطة الملحدة، كما كان مركزاً تجاريا هاما تقصده السفن من جميع البلاد وكان البحريون وأصحاب السفن يفضلون أن تكون أحوال البحر فى هذه المنطقة عند إبحارهم غير مستقرة حتى يضمنوا سلامتهم وحسن سير الرياح بعكس ما هو شائع ومعروف عن الملاحة البحرية[١٠٣] .

أما رباط الفتح فكانت رباطا تنطلق منه القوات الموحدية منذ أيام الخليفة عبد المؤمن بن على، وبعد ذلك القوات المرينية للجهاد فى الأندلس أو للقتال مع أعدائهم فى أنحاء بلاد المغرب المختلفة، بل أن اسمها فى حد ذاته يؤكد هذا الدور الذى اضطلعت به وكذلك الخاصية الإستراتيجية الجهادية لهذه المدينة.

واعتقد أن السر وراء اختيار الخليفة الموحدى الرشيد مدينة رباط الفتح دون غيرها من مدن المغرب لينزل فيها أهل شرق الأندلس الذين هجروا بلادهم بعد سقوطها فى أيدى الأرجونيين، يرجع إلى الدور الجهادى الذى تقوم به هذه المدينة وشخصيتها باعتبارها رباطا، فلعله أراد من الاندلسيين النازحين أن يقيموا فى رباط دائم ليتيح لهم الفرصة للخروج فى حملات للجهاد ضد الإسبان الذين انتزعوا مدنهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، وهذا ما حدث بالفعل فى الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى رباط الفتح فى القرن ١٧م، وكان هؤلاء الأندلسيين لا يترددون دوما فى المشاركة فى الحملات الموجهة ضد النصارى(١٠٤) .

كذلك تشابهت كل من المدينتين، الإسكندرية، ورباط الفتح، من حيث أوضاعهما الاقتصادية، فالإسكندرية اختارها البطالمة حاضرة لهم فى مصر لعبقرية الموقع الذى تشغله، فالبطالمة كانوا يفضل هذا الموقع ليتحكمون فى الطرق التجارية العالمية المختلفة باعتبار أن الإسكندرية كانت ملتقى طرق التجارة العالمية المختلفة أنذاك، وبالتالى أصبحت الإسكندرية المركز التجارى الأساسى فى شرقى البحر المتوسط(١٠٥) . واستمرت الإسكندرية طوال العصور القديمة، وفى العصر الإسلامى الوسيط حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب. ولم تفقد مكانتها التجارية فى العصر العباسى على الرغم من سيطرة بغداد على تجارة العالم الإسلامى وذلك يرجع أساسا إلى موقعها الرائع على البحر المتوسط، وإلى اتصالها بالنيل عن طريق خليجها، وأصبحت الإسكندرية الوسيط التجارى بين الشرقى الأقصى مصدر التوابل

والكارم عصب التجارة العالمية فى العصور الوسطى وبين الغرب الإسلامى والأوروبى(١٠٦)

وبلغت الإسكندرية فى عصر الدولة الأيوبية المعاصرة لدولة الموحدين فى المغرب، وفى الوقت الذى استكملت مدينة رباط الفتح تأسيسها، أوج نشاطها التجارى فكانت سوقا هائلة للتجارة العالمية وإليها كانت تتدفق معظم منتجات الشرق من طيب ويواقيت وعطور وتوابل مما أذهل بعض الرحالة الأوروبيين أمثال بنيامين التطيلى وبرغارد الذى زار مصر سفيرا للإمبراطور فريدريك برباروسة سنة ١١٧٥(١٠٧) رغم الحروب المتواصلة التى خاضتها مصر ضد الصليبيين.

ونتج عن ازدهار التجارة فى الإسكندرية أن كثر بها عدد تجار الافرنج، وقد اجتمع بالإسكندرية زمن الملك العادل وحده نحو ثلاثة آلاف تاجر اجنبى(١٠٨) كما أقامت الجمهوريات الإيطالية لها فنادق بالإسكندرية(١٠٩) .

ولسنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول الازدهار الاقتصادى لمدينة الإسكندرية فى العصور الإسلامية لأن ذلك كان مجالا لدراسات قيمة(١١٠) ، وإنما قصدنا من غرضنا هذا الإشارة إلى التشابه الكبير بين ما بلغته الإسكندرية من تألق اقتصادي واضح المعالم وما بلغته مدينة رباط الفتح من

ازدهار اقتصادى سبق أن أشرنا إليه فوفقا لما ذكره كل من ابن صاحب الصلاة وصاحب كتاب الاستبصار زخرت المدينة بالأسواق وأقيمت فيها قيسارية وعدة فنادق مما يعبر على نشاط واسع النطاق للحركة التجارية.

ولعل العثور على عملات أجنبية فى رباط الفتح زمن الخُليفة الناصر الموحدى يؤكد هذا الازدهار التجارى.

ونختتم دراستنا عن أوجه التشابه بين الإسكندرية ورباط الفتح بالتطرق إلى نقطة هامة أخيرة تتعلق بعلاقة كل من المدينتين بالأندلسيين المهاجرين من بلادهم، إما قبل سقوط مدنهم أو عقب سقوطها فى أيدى الإسبان مباشرة أو بعد الطرد الأخير.

فإذا كانت مدينة رباط الفتح عرفت فى التاريخ بأنها مدينة أندلسية خاصة بعد صدور ظهير الخليفة الرشيد الموحدى الذى سبق أن تحدثنا عنه بشئ من التفصيل فى القسم التاريخى من هذا البحث، وهو الظهير الذى بمقتضاه وهبت المدينة لأهالى شرق الأندلس المهاجرين بعد سقوط بلادهم فى أيدى الأرجونيين بحيث أصبحت منذ ذلك التاريخ منزلا لمهاجرى الأندلس الذين آثروا التوطن فيها باعتبارها رباطا ومنطلقا يجاهدون منه العدو الذى استولى على بلادهم، فإن الإسكندرية بدورها كانت طوال العصور الإسلامية وثيقة الصلة بالأندلس شأنها فى ذلك شأن مدينة رباط الفتح، وكان ارتباطها بالاندلس متعدد الجوانب فكان ارتباطا اجتماعيا وعلميا واقتصاديا مما دفع العديد من المؤرخين إلى الاعتقاد أن بحر الإسكندرية ينتهى(١١١) عند المحيط الاطلسى، وفيها استقر عدد من الأندلسيين الذين آثروا الاستقرار فى أرضها بعد سقوط مدنهم فى أيدى الإسبان المسيحيين، وفيها استقر عدد كبير من العلماء أمثال الشاطبى وأبى العباس المرسى والطرطوشى، وكان العامل الدينى أيضا أحد الأسباب التى أدت إلى تعميق الصلة بين

الإسكندرية وبين المغرب الإسلامى، فقد كان حجاج المغرب والأندلس يؤثرون الرحلة إلى الإسكندرية ومنهــا يرحلون إلى مكة ســواء عن طريق وادى العلاقى وعيذاب أو عن طريق سيناء وعدت لذلك باب المغرب، ولا ينبغى أن نغفل العامل العلمى فقد كان طلب العلم ببلاد المشرق الإسلامى هدفا رئيسيا لأهل المغرب والأندلس فكان طلاب العلم يتجشمون أخطار الرحلة ومتاعبها للالتقاء بشيوخ المشرق الإسلامى فى الإسكندرية والقاهرة والفسطاط وقوص وبغداد والكوفة ودمشق وحلب ومكة والمدينة خاصة مع امتزاج مفهوم التجارة بالعلم فى الإسلام(١١٢) .

ومن أشهر من زار مصر من علماء الأندلس ونزل بالإسكندرية واستقر بها محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسى الوادياشى الأندلسى الذى درس على عبد الرحمن بن مخلوف بها كما جال فى البلاد المشرقية وتوفى سنة ٧٤٩ هـ(١١٣) . وعلى بن أحمد بن حديدة الأندلسى الذى ولد فى حدود سنة ٦٦٥ هـ وعاش بالإسكندرية وعمر بها عدة زوايا وتوفى ببيت المقدس سنة ٧١٩هـ (١١٤) .

ومن العلماء الأندلسيين الذين زاروا الإسكندرية بعد سقوط مدنهم إبراهيم بن عبد الملك بن ابراهيم الجزامى اليرانتيشى نسبة إلى حصن برنتيش من غرب الأندلس من أعمال اشبونة التى سقطت سنة ٥٤٢هـ. وقد استقر هذا الأندلسى بالقاهرة ووصفه السخاوى بانه تاجر السلطان ثم انتقل للمعيشة فى الإسكندرية وبها توفى فى أول شعبان سنة ٨٨٠ هـ وكان من أصحاب الأشرف قايتباى. وقد أوصى قبيل وفاته بمعظم تركته لأهله

الذين كانوا لا يزالوا يعيشون فى برنتيش بالإشبونة فى ظل الحكم البرتغالى، وبعد وفاته وفد إلى مصر قريب له يكنى بأبى الفضل بن أبى عبد الله محمد البرنتيشى، وهو ابن عم والده، سعيا إلى الظفر بميراث قريبه، وقد استقر فى متجرها إلى أن توفى بالإسكندرية فى سنة ٨٩٢هـ(١١٥). غير أن مدينة رباط الفتح فاقت الإسكندرية فى اجتذاب أعدادا لا حصر لها من مهاجرى الأندلس لاسيما فى العصر الحديث عقب الطرد الأخير للموريسكيين، فهجرات الموريسكيين إلى الإسكندرية كانت محدودة إذا ما قورنت بما حدث فى حالة رباط الفتح وفاس ومدن تونسية مثل تستور وزغوان وتونس نفسها وكذلك الجزائر الحالية، ويرجع ذلك فى تصورى إلى العامل الذى سبق أن أشرت إليه وهو كونُ مدينة رباط الفتح رباطا للجهاد، مما يناسب وضع هؤلاء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ويلائم نفسيتهم ويسهل لهم الانتقام بالجهاد ضد النصارى، وكذلك بحكم كون رباط الفتح وباقى مدن المغرب الأقصى والأوسط، والأدنى أقرب إلى بلاد الأندلس من مصر.

ونود أن ننهى هذا البحث بأنه إذا كانت الإسكندرية قد حظيت فى العصور القديمة بشهرة تجاوزت الآفاق بفضل منارها الذى يعد من عجائب الدنيا السبع فإن مدينة رباط الفتح على حد قول المؤرخ بوجندار كانت فى حد ذاتها من الأعاجيب ويعبر عن ذلك بقوله «إن بناء الرباط هو من الأعجايب التى أجراها الله تعالى على يد هذا السلطان الأعظم الدالة على اتساع دائرة فكرته إذ قلما توجد مدينة على تلك الصفة إلا مواضعها رجل عظيم حكيم وقد أودع من بدائع الصنائع لديه»(١١٦).

الحواشى

١- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، جـ ٧، ص ٩.

٢- الناصرى السلاوى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٤ جـ٢، ص ١٨١ - وارجع كذلك إلى محمد بن على دنية، مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط، الرباط، ١٩٨٦، ص ٤٢.

٣- عبد الواحد المراكشى، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٢٦٦.

٤- يذكر بعض المؤرخين ومنهم الدكتور محمد الأمين بلغيث أن الخليفة المنصور الموحدى أراد ببنائه جامع حسان على غرار منار الإسكندرية واتمامه بناء المدينة على نفس نسق المدينة المصرية، منافسة مدينة الإسكندرية (محمد الامين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامى ودورها فى عصرى المرابطين والموحدين رسالة ماجستير، إشراف عبد الحميد حاجيات، الجزائر، معهد التاريخ ١٩٨٧، ص ٣١٧.

٥- قصبة الودايا هى موضع القصبة الأولى التى بناها الخليفة الموحدى عبد المؤمن به على أنقاض رباط تاشفين بن على.

٦- عن برغواطة ارجع إلى سحر سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ١ - ١٠٠.

٧- ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق د. عبد

الهادى التازى، بيروت، ١٩٦٤، ص ٤٤٧.

٨- عبد الواحد المراكشى، المعجب ، ص ٣٥٩.

٩- Henri Terrasse, L'Art Hispano-Mauresque Des Origines au XIIIe Siecle, Paris, P. 288.

وإن كانت الباحثة جانيت أبو لغد لا ترى أى تشابه بين المدينتين وتعتبر أن ما ذكره المؤرخون عن أوجه هذا الشبه إنما هو من قبيل الدعاية لمدينة رباط الفتح لتركيز الانظار عليها وعلى ما أقام بها المنصور الموحدى عندما اهتم ببنائها (Jante Abo Lughod, Rabats, Urban, Apartheid in Morocco, New Jersey, p. 56 - 57).

وفى تصورى أن ما أوردته الباحثه ابو لغد مبالغ فيه، ومجاف للحقيقة التاريخية فما جدوى ما يذكره ابن خلكان وهو مؤرخ مشرقى من تسليط الأضواء على مدينة رباط الفتح وتشبيهها بمدينة الإسكندرية اللهم إلا إذا كانت هناك أوجه تشابه بين المدينتين، وهذا ما سنحاول إبرازه وتوضيحه على الصفحات التالية.

١٠- زكى على ، الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية، ١٩٤٤، المجلد الثانى: ص ١٢١ - ١٢٢. محمد عواد حسين، مقال عن تخطيط المدينة فى كتاب محافظة الإسكندرية، ص ١٣ . السيد عبد العزيز سالم، تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها فى العصر الإسلامى، بيروت، ١٩٦٣، ص ٣٩. السيد عبد العزيز

سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٣. مصطفى العبادى، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الإسكندرية، ص ٢٠.

١١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ١٣.

١٢- Breccia, Alexandria ad Egyptum , Bergamo, 1922, P. 78.

(*) Jacques Caillé , La Ville De Rabat, Paris, 1945, vol I, p. 45.

١٣- لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى تاريخ مصر، عصر البطالمة الإسكندرية، ١٩٦٧، ص ٢٦٤.

١٤- Breccia, Alexandria, p. 72.

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢١.

١٥- Breccia, Alexandria, p. 74.

١٦- عن دفن الإسكندر ارجع إلى لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى تاريخ مصر، عصر البطالمة، ص ١٢٠. وهناك رأى أخذ به بل عن دفنه فى واحة سيوة Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest , p. 32.

وقد تردد هذا الرأى من جديد بعد اكتشاف مقبرة مقدونية كبيرة فى واحة

سيوة، رجحت رئيسة البعثة الأثريه اليونانية التى اكتشفتها أنها للإسكندر أو مقبرة وهمية له ولازال البحث جاريا لحسم هذه القضية، وإن كان أغلبيه العلماء يرجحون دفنه بالإسكندرية

١٧- لطفى عبد الوهاب، عصر البطالمة، ص ١٢٢ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٢

١٨- لطفى عبد الوهاب، نفسه، ص ١٢١ ، ١٢٢.

١٩- المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ، القاهرة، ١٩٥٨، تحقيق محى الدين عبد الحميد، جـ١، ص ٣٧٣

٢٠- ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١

٢١- رفض الخليفة عمر بن الخطاب أن يتخذ قائده عمرو بن العاص الإسكندرية عاصمة لمصر فى العصر الإسلامى لعدة اعتبارات منها أن الإسكندرية مدينة ساحلية والعرب كانوا لا يزالوا بعد حديثى عهد بالدفاع عن السواحل الإسلامية بوسائل بحرية كاستخدام السفن الحربية فى محاربة أساطيل الروم، وحرصا منه على القرب من المصريين الذين أحسنوا استقبال العرب الفاتحين، فلو اتخذ العرب الإسكندرية عاصمة لهم وهى التى كان ينظر إليها أبناء مصر على أنها عاصمة احتلال أجنبى، لاعتبر المصريون العرب حلقة جديدة من حلقات الاحتلال الأجنبى، وكذلك لاعتبار إدارى حيث إن الإسكندرية بعيدة عن الصعيد، فى حين أن موقع مدينة الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص واتخذها حاضرة لمصر يتيح لها أن تكون فى قلب

مصر فهى أفضل إداريا من الإسكندرية المتطرفة (لمزيد من الأسباب عن عدول العرب من اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر الإسلامية، ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٥٨ وما يليها).

٢٢- البيذق، أخبار المهدى بن تومرت، ص ١٣٢.

٢٣- عبد الواحد المراكشى، المعجب ، ص ٢٦٦.

٢٤- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٩.

٢٥- تتشابه كل من مدينتى القاهرة والمهدية مع رباط الفتح فى ذلك.

٢٦- Terrase, L'Art, p. 288, 289.

٢٧- البيذق، أخبار المهدى، ص ١٣٢.

٢٨- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٤٤٦.

٢٩- ابن أبى زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق تورنبرج، أويسالة، ١٨٤٣، ص ١٢٥.

٣٠- راجع ما ذكره ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ، ص ٤٤٦ - وما يليها.

٣١- الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول، الإسكندرية، ١٩٥٨، ص ١٤٠ - الحميرى، الروض المعطار، ص ٣١٩.

٣٢- الحلل الموشية، ص ١٥٧.

٣٣- ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٣١.

٣٤- الغبرينى، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية تحقيق عادل نويهض، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٨.

٣٥- محمد بوجندار، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، تحقيق، د. عبد الكريم كريم، الرباط، ١٩٨٧، ص ٣٩٧.

٣٦- ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالموحدين، ص ١٦٥.

٣٧- المصدر السابق، ص ١٧٢.

٣٨- ابن الخطيب، رقم الحلل، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

٣٩- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ١٠١ وما يليها - السيد عبد العزيز سالم بحوث إسلامية فى التاريخ والحضارة والآثار بحث بعنوان «تأثير منار الإسكندرية في عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس» بيروت، ١٩٩٢، جـ٢ ص ٤١٩. ولمزيد من التفاصيل عن الأوصاف العديدة التى وصلتنا عن هذا المنار ارجع إلى (اليعقوبى ، كتاب البلدان، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية، ليدن، ١٨٩١، ص ٣٣٨ - ابن الفقيه الهمذانى، مختصر كتاب البلدان، الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية، ليدن، ١٨٨٥، ص ٨٢ - المسعودى، مروج الذهب جـ١، ص ٣٧٥ - ابن حوقل، صورة الأرض ، تحقيق كرامرز، ليدن ١٩٣٢ - ياقوت، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥ - جـ١، ص ٤١ - ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن، ١٩٠٧، ص ٤١ - رحلة بنيامين التطيلى، مدريد، ١٩١٨، ص ١١٣ - الهروى الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل، دمشق

١٩٥٣، ص ٤٨ - ٤٩ - الاستبصار في عجائب الأمصار، ص ٩٦ - المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، ١٩٥٩، جـ١ ص ١٥٥ - بتلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٣٣، ص ٣٤٥.

٤٠- المسعودى، التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٥، ص ٤٧، المقريزى، الخطط، ١، ص ٢٧٧-٢٩ج

٤١- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٣١، السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامى فى مجال الفنون والعمارة والزخرفة من أبحاث كتاب «بحوث فى التاريخ والحضارة والآثار» جـ٢ ، ص ٤٣٣.

٤٢- المقريزى ، الخطط، جـ١، ص ١٥٧ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٣١.

٤٣- المسعودى، التنبيه والإشراف ، ص ٤٨.

٤٤- السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر ١٣٢١هـ جـ١، ص ١٧٨ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٣٢.

٤٥- رحلة ابن بطوطة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٠.

٤٦- وهذا الموضوع يتعلق بمناقشة قضية لم تحسم بعد بين علماء الآثار، وهى قضية التشابه العام بين شكل المآذن الإسلامية، وشكل المنار السكندرى مما دفع العالم تيرش Thiersch إلى الادلاء بنظريته التى ارجع فيها أصل

نظام المئذنة إلى منار الإسكندرية، وقد تبعه فى ذلك العالم الإسبانى فيليث أرناندث خيمينث (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى :

Felix Hernandez Gimenez, el minar de Abd-Rahman III en la Mezquita Mayor De Cordoba, Genesis y Repercusiones , Granada , 1975, p. 46, 133.

وقد عرض لهذه الآراء الدكتور السيد عبد العزيز سالم في بحثه عن تأثير منار الإسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس، ص ٤٢١، وما يليها ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ كريزويل اعترض على نظرية تيرش ورفض الأخذ بها وانتهى إلى القول بأن أصل نظام المآذن يتمثل فى الصوامع المسيحية التى كانت قائمة فى سوريا قبل الفتح الإسلامى Creswell, The evolution of the minaret, Burlington Magazine, Mars, Mai, Juin, 1926, p. 9.

وقد أيد لفيف من علماء الآثار العرب رأى كريسويل وعلى رأسهم الدكتور أحمد فكرى (المسجد الجامع بالقيروان، القاهرة، ١٩٣٦، ص ١١١، هامش٢) والدكتور السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، القاهرة، ١٩٥٩ ص ٨، والدكتور صالح بن قربة، المئذنة المغربية الأندلسية فى العصور الوسطى، ص ٦٩ حيث اعتبروا الأبراج السورية المصدر الذى استهلمت منه المئذنة الإسلامية بوجه عام نظامها المعمارى. أما الدكتور سعد زغلول عبد الحميد فقد ذهب إلى أن المنار كان له تأثير على بناء أبراج الكنائس فى مصر والشام، وأن هذه الأبراج أوحت إلى المسلمين بناء مآذن المساجد

(سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية منذ الفتح الإسلامى الى بداية العصر الفاطمى، من كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور الإسكندرية، ١٩٦٣، ص ٢٣٦). وعاد الدكتور عبد العزيز سالم إلى ترجيح تأثير منار الإسكندرية على بعض مآذن المغرب والأندلس، وسجل ذلك فى دراسته القيمة بعنوان تأثير منار الإسكندرية فى عمارة بعض مآذن المغرب والأندلس.

٤٧- السيد عبد العزيز سالم، تأثير منار الإسكندرية، ص ٤٢٣، وما يليها.

٤٨- المرجع السابق، ص ٤٢٥.

٤٩- Felix, Hernandez, op. cit.,p. 113 ويجعلها تيراس ١٦ متراً (Terrasse, L'Art Hispano, p. 321).

٥٠- Ibid, p. 172.

٥١- هنرى رياض وآخرون، دليل آثار الإسكندرية، الإسكندرية، ١٩٦٥، ص١٢ زكى على، الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة، مقالة بمجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلد الثانى ١٩٤٤، ص ١٦٠- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٠.

٥٢- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٥.

٥٣- المقريزى، الخطط، جـ١، ص ١٦٥.

٥٤- سيدة كاشف، مصر فى عصر الولاة منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٥٦.

٥٥- السيد عبد العزيز سالم، حول الكشف عن مدخل دار الصناعة الغربية بالإسكندرية بحث ألقى فى ندوة عن Europe and Egypt Co-operation in Archeology Symposium, 7 - 8 December, 1994.

٥٦- الطرطوشى، سراج الملوك، القاهرة، ١٢٨٩هـ، ص ٩٧ - حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٢٨ . محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين من مطبوعات جمعية الاثار بالإسكندرية، ١٩٦٨ ص ٢٧، ٢٨.

٥٧- أية ١٩٩ من سورة آل عمران.

٥٨- Manuela Marin, El Ribat en Al-Andalusy el Norte De Africa,

وهو أحد الأبحاث التى ألقيت فى ندوة.

La Ràpita Islamic : Historia Institucional i altres Estudis Regionals, 1 Congrés de la Rapitas de l'Estat Espanyol, 7 -10 Setermbre 1989, Sant Carles de la Rapita, Tarragona, Catalunya, Espanya,1989, p. 122.

٥٩- حسن محمود، قيام دولة المرابطين ، ص ١٢٨ - السيد عبد العزيز سالم تاريخ الإسكندرية، ص ٩١ - Manuela Marin, op. cit., p. 127.
ويذكر الإسكندرية، ميكل دى ابالثا «أن المسلمين الذين رسخت فى نفوسهم

الأهمية التى يوليها الإسلام للجهاد وما ينجم عنه من وعود بالجزاء بوصفه مسعى جماعيا للخلاص، كما تؤكد ذلك آيات قرآنية كثيرة وأحاديث نبوية، يشعرون بنوع من الإحباط بسبب عدم استطاعتهم إتمام جميع ما يسعون إلى تحقيقه من الواجبات الإسلامية عن طريق الجهاد، لذا مارس المسلمون المرابطة باعتبارها نشاطا معوضا لعدم إمكانية قيامهم بالجهاد....».

(ميكل دى أبالثا، الرباط والرابطات فى الأسماء والآثار الإسبانية، تعريب الحسين اليعقوبى، مجلة دراسات أندلسية، عدد ١٣، شعبان ١٤١٥/ بما نفى ١٩٩٥، ص ٧٩).

٦٠- آية ٦٠ من سورة الأنفال، كما أورد الدكتور محمد توفيق بلبع بعض الأحاديث النبوية عن رسول الله (ﷺ)تشيد بأهمية الخيل وفضائل الجهاد والمرابطة (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد توفيق بلبع، المرجع السابق، ص ٢٩).

٦١- محمد توفيق بلبع، نفسه، ٢٧، ٢٨، ٢٩ - محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامى ودورها فى عصرى المرابطين والموحدين، ص ٣٦.

٦٢- عرفت الاربطة فى مصر الإسلامية باسم «المواجين» وقد انتشرت على طول الساحل من العريش حتى الحدود الليبية وقد أشار الكندى فى كتاب الولاه والقضاة ص ٤١٨، ٤١٩ إلى هذه المواجيز (بلبع،. ص ٣٤).

٦٣- ابن الصباغ، فضائل الإسكندرية، نسخة مصورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية رقم

٧٧٩م، ص ٤ ب ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، طبعة بولاق، ١٣٠٩هـ، جـ ٥ ص ١١٦.

٦٤- ابن الصباغ، نفس المصدر، ص ٤ ب، ٥ أ. ولمزيد من هذه الأحاديث، ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٣ وما يليها.

٦٥- حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ١٢٩.

ويتفق كل من الدكتور محمد توفيق بلبع والدكتور محمد الأمين بلغيث مع الدكتور حسن محمود فى أن فجر الربط والمرابطة فى بلاد المغرب هى قصور طرابلس والقيروان التى كانت نقطة ارتكاز سارت منها الفتوحات الإسلامية (محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٤٤ - بلغيث، الربط بالمغرب الإسلامى ص ٩٩).

٦٦- حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ١٢٩ وما يليها.

٦٧- Ferhat Dachraoui, le Rôle des Ribats dans le Gihad Maritime en Ifriqya au Moyen âge, p. 179.

من ابحاث ندوة Sant Carles De la Rapita, 1989.

ويتفق الدكتور السيد عبد العزيز سالم مع الدكتور الدشراوى فى أن أول رباط أغلبى هو رباط سوسة (سالم، المغرب الكبير، بيروت، ١٩٨١، ٤٤٩) ولمزيد من التفاصيل عن رباطى سوسة والمنستير وتخطيطهما الداخلى ارجع إلى (بلبع نشأة الرباط - ص ٤٤ - ٥١ - والدكتور السيد عبد العزيز سالم المرجع السابق، ص ٤٤٩ وما يليها).

٦٨- Jaine Oliver Asin, Drigen Arabe De Rebato Arrobda ysus Homonimes, Madrid, 1928, p. 19 - Manuela Marin , Op.cit., p. 122. Manuela Marin, Ibid., p. 122.

٦٩- وقد ركزت مانويلا مارين فى بحثها على الأربطة فى تونس وعلى الأخص رباطى سوسة والمنستير، وإن كانت أشارت فى بعض مواضع من بحثها عن الرباط فى الأندلس ولم تشر إلى الأربطة فى المغرب الأقصى.

٧٠- Manuela, Marin, op.cit., p. 122- 123.

٧١- Jaine Oliver Asin, Drigen, Arabe, p. 17.

٧٢- راجع البحث القيم للدكتور جمعة شيخة عن الرباط فى كتب الطبقات

Jenae Cheikha les Ribâts d'après le livres de Tabaqât sant carles de la Rapid, 1984 - 1993.

أحد أبحاث مؤتمر الرباط الإسلامى من ٧ - ١٠ سبتمبر ١٩٨٩ - يطلونية - اسبانيا.

* سحر عبد العزيز سالم، من جديد حول برغواطة هراطقة المغرب الإسلامى الإسكندرية، ١٩٩٣، ص ٨٠ وما يليها - وكان المغرب الأقصى قبل ظهور المرابطين تتقاسمه أربعة قوى هى غمارة فى الشمال وقبائل برغواطة فى المغرب وزناتة تكون نطاقا حول هذه القبائل بعد سقوط الأدارسة، ثم طوائف الشيعة الرافضة والوثنيين فى الجنوب بتارودانت عاصمة السوس الأقصى (محمد الأمين بلغيث ، الربط بالمغرب الاسلامى، ص ١٤٣).

٧٣- هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلى، عرف بابن الزيات ويعتبر كتابه التشوف من أهم الكتب التى تدرس الحياة الدينية والتصوف فى عهد المرابطين والموحدين (انظر التادلى الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، نشر وتصحيح ادولف فور، مطبوعات أفريقيا الشمالية الرباط، ١٩٥٨، ص ١).

٧٤- السيوطى، جـ١، ص ٢١٥ - محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٤٢.

٧٥- محمد الأمين بلغيث ، الربط ، ص ٢٢٦.

٧٦- المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٧٧- نفسه، ص ٢٢٨.

٧٨- نفسه، ص ٢٢٩.

٧٩- يقول خايمى أوليفر آسين إن هذه الأربطة أو الحصون كانت تتكون عادة من فناء مركزى مع غرف للخلوة والتعبد محيطة بها، ومسجد أو بيت للصلاة وإقامة الخطب والمواعظ الدينية وبرج مرتفع أو منار للاتصال مع المناطق البعيدة ولإرسال إشارات إلى المراكز المماثلة على طول الساحل، كما يذكر أنها من الممكن أن تتخذ كدور لصناعة السفن وإعدادها للقتال البحرى مثلما كان الحال فى رباط سوسة. ويرجع خايمى أوليفر راسين أن المسلمين استخدموا في كثير من الأحيان القرى أو المبانى البيزنطية السابقة كأربطة (وارجع كذلك إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص ٣٠). وكان إنشاء الأربطة يعتبر من أعمال البر. وقد شارك الخلفاء والناس من مختلف الطبقات فى اعمال ترميم وصيانة الأربطة، وكانت الأربطة تتلقى المعونات

السخية من كل طبقات وفئات المسلمين، ووجدت فى كثير من الأحيان ببعض الاربطة شواهد وأضرحة لشخصيات إسلامية هامة فتحولت حينذاك إلى زوايا حيث يعيش هؤلاء المرابطون حول قبر أحد الأبطال المسلمين أو الصحابة وفى بعض هذه الزوايا كانت توجد قاعة تستخدم كمسجد، وقاعة ثانية لتدريس العلوم الدينية، وثالثة تتخذ كمدرسة أولية، ورابعة ليجلس فيها الطلاب لحفظ وإتقان دروسهم كما كانت توجد غرفة لاستقبال المسافرين الذين لا عائل لهم، كما كانت توجد مقبرة للأشخاص المتدينين وخان أو فندق يقيم فيه النزيل بالمجان.

Jaine Oliver Asin, Origen Arabe De Rebato,p.16-18.

وكان الدكتور محمد توفيق بلبع قد ذكر أنه لم تصل إلينا صورة واضحة لما كان عليه شكل الرباط وتخطيطه بالمشرق بعكس ما هو عليه الحال بالنسبة لأربطة المغرب، ولكنه استخلص من روايات المؤرخين عن وظيفة الأربطة ومعيشة أهلها أن الرباط أقيم غالبا على مساحة مربعة او مستطيلة الشكل، وكانت تتكون من صحن مركزى يحيط به من جوانبه الأربعة حجرات صغيرة منفصلة فى طابق أو أكثر، كما كان يحتوى على بيت للصلاة أو مسجد صغير ومنارة مرتفعة كما كانت أسواره الخارجية سميكة وعالية، وكان يشتمل على طاحون وخزان للمياه ومخازن للسلاح والمؤن لاستخدامها فى مقاومة الحصار (المرجع السابق ص ٣٠) كما اهتم الدكتور بلبع بتأكيد دور المنارات فى الأربطة الاسلامية كأبراج للمراقبة وإرسال إشارات التحذير حتى انتشر بناؤها وحدها فى كثير من الأحيان دون بقية أجزاء الرباط فى مناطق عديدة من الدولة الإسلامية وقد اقتبس المسلمون هذه المنارات من

أهل الهند واطلقوا عليها اسم «المناور» التى قامت بنفس دور المنارات فكان يخصص لها الحراس لمراقبة الأعداء وتحركاتهم بالنهار والليل لذلك عرفوا بالسمار (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى بلبع، المرجع السابق، ص ٣٢ وما يليها).

٨٠- كان رباط البغدادية من أكثر أربطة القاهرة شهرة، أمرت ببنائه الأميرة تذكار باى خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥م). وكان مخصصا لإقامة السيدات المطلقات أو اللاتى هجرهن أزواجهن، وكن يخضعن فيه لنظام صارم ودقيق تحت إشراف العالمة الفقيهة زينب بنت أبى البركات المعروفة بالبغدادية التى (نسب الرباط إليها) فكانت تلقى عليهن الدروس الدينية وتعرفهن بمبادئ وأصول الدين الإسلامى (لمزيد من التفاصيل عن هذا الرباط والخانقاوات والأربطة المخصصة لكبار السن ارجع إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الأربطة، ص ٦٤).

٨١- محمد الأمين بلغيث الربط، ص ٢٥٠ ، ٢٥١.

٨٢- المرجع السابق، ص ٢٥٣.

٨٣- اهتم ميكل دى ابالثا بدراسة الرباط كمؤسسة إسلامية فى الأندلس على وجه الخصوص على أساس أن المرابطة نشاط مكمل للجهاد، وقام بدراسة المسميات الإسبانية المختلفة المشتقة من كلمة الرباط العربية مثل Ràpita- Rapido - Rabita، كما قام بدراسة الهيئات والمؤسسات التي تشابهت فى وظائفها مع الرباط مثل المنستير وجمعها المنستيرات- Almosteres Almonachiles - Almonastires - Almonacides فى اللغتين

الإسبانية والبرتغالية، ويذكر أن أصل هذه الكلمة يونانى استعمل فى البداية للدلالة على المواقع التى يرابط فيها المسلمون باستمرار فى مجموعات يكثر عددها أو يقل، والزاوية فى الإسبانية القديمة Zaguias، وتدل فى رأيه على مصلى صغير للخلوة الروحية، والجامعة Algimia أو Aljama فى الاسبانية القديمة وهى مسجد يجتمع فيه الناس للصلاة. وقد فرق دي ابالثا فى دراسته هذه بين الجيوش النظامية للدولة الإسلامية فى العصور الوسطى ولاسيما منذ عصر المرابطين (٦هـ/ ١٢م) وبين حشود الزهاد المسلمين المصاحبين لهم، فالجنود يمضون إلى ساحة المعركة للقتال، والزهاد يذهبون للاستشهاد ، ولعل هذا يفسر من وجهة نظره الهزائم العسكرية التى تعرض لها الجيش الاسلامى فى مواقعة مسيحى الاندلس مثل موقعة كتندة Cutanda (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) التى أدت إلى ضياع وادى نهر أبرة، فقد أفسدت جماهير الصلحاء المسلمين الذين انضموا إلى صلب الجيش النظامى برغبتهم فى الاستشهاد، الخطة الدفاعية وكذلك الهجومية فى صفوف الجيش الإسلامى (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ميكل دى أبالثا الرباط والرابطات فى الأسماء والآثار الإسبانية، مجلة دراسات أندلسية العدد ١٣، يناير ١٩٩٥، ص ٦٩ – ٨٦). أما خايمى أوليفر آسين فقد اهتم بدوره بدراسة الأصل العربى للرباط وما اشتق من هذا الاسم من مسميات أخرى، وركز أيضا فى دراسته تلك على الأربطة فى الأندلس مشيرا إلى أن مصطلح الرباط وجد بكثرة فى لغة شبه جزيرة إيبيريا ففى البرتغال توجد كلمة rebato فى القطلانية rebat وباللغة الإسبانية arrebata و arre-bato, rebãta,rebato وبلهجة أهل بلنسية arrebat (لمزيد من

التفاصيل ارجع إلى {Jaine Oliver Asin, Origin arabe de Rebato, p. 6}

٨٤- حسن عبد الوهاب، الإسكندرية فى العصر الإسلامى، مجلة الكتاب، يناير ١٩٤٧، ص ٣٧٩ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٢.

٨٥- ويذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم أن هذا المخطوط كان محفوظا بمكتبة آيا صوفيا ولكنه فقد (تاريخ الإسكندرية، ص ٩٢).

٨٦- سالم، المرجع السابق، ص ٩٣ وهذا المخطوط صورة شمسية محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالإسكندرية تحت رقم ٧٧٩ م مصورة من النسخة المحفوظة فى المكتبة الظاهرية بدمشق.

٨٧- السيوطى، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبعة مصر ١٣٢١، جـ ١، ص ٩٧.

٨٨- ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف، القاهرة، ١٩٥٣، جـ١، ص ٥٥ . السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٥.

٨٩- السيوطى، حسن المحاضرة، جـ١، ص ٩٨.

٩٠- الكندى، كتاب الولاة وكتاب القضاة، بيروت، ١٩٠٨، تحقيق الأستاذ رفن حبست، ص ٣٦ . السيوطى ، حسن المحاضرة ، جـ١، ص ١٠٤.

٩١- السيوطى، المصدر السابق، جـ١، ص ١١٨، ص ١٢١.

٩٢- السيوطى المصدر السابق، جـ١، ص ١٢٤، ١٢٥ . سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٥، ٩٦.

٩٣- ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسية، ليدن، ١٨٨١، ص ١١٨.

٩٤- ابن بطوطة، الرحلة، بيروت، ١٩٦٠، ص ٢٠ . سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٩٦ . بلبع ، نشأة الرباط، ص ٣٤ - ٣٥.

٩٥- ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ١١٨ . بلبع، نشأة الرباط ، ص ٢٦.

٩٦- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨١.

٩٧- سحر عبد العزيز سالم، شاطبة الحصن الأمامى لشرق الأندلس فى العصر الإسلامى (التاريخ السياسى والحضارى)، الإسكندرية، ١٩٩٥، ص ٣٢٦، وما يليها.

٩٨- عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٤٨٢.

٩٩- المرجع السابق، ص ٤٨٣.

١٠٠- احمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٣ . محمد زنيبر كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس، دور السوس فى عهد الفتوح الأول، مجلة البحث العلمى، العدد ٢، السنة الأولى، المغرب، ١٩٦٤، ص ١١٩ . محمد الأمين بلغيث، الربط بالمغرب الاسلامى، ص ١٤٣.

١٠١- محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط وتطوره وأهمية نظام المرابطة فى تاريخ المسلمين، من مطبوعات الجمعية الأثرية بالإسكندرية، ص ٥٣).

١٠٢- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Marçais, Note sur les Ribats en Berberie (Melanges René Basset) edition Ernest leroux, Paris, 1925, p.8)

(محمد الأمين بلغيث، الربط، ص ١٤٤).

١٠٣- لمزيد من التفاصيل ارجع إلى محمد توفيق بلبع، نشأة الرباط، ص٥٤، ٥٥

١٠٤- هاجرت فى القرن ١٧م جماعات مختلفة من الموريسكيين إلى رباط الفتح من بلنسية وقشتالة واسترامادورة ولاسيما من المدينة التى تقع جنوبى شرقى ماردة ومن أرجون ومن قطلونيا ومن مرسية، وقد استقر مهاجرو Hornacho بقصبة الاودايا. وانضموا إلى الجاليات الاندلسية التى هاجرت إليها من قبل. وبمرور الوقت اشتدت شوكة هؤلاء المهاجرين الأندلسيين ولم تعد السلطة المركزية قادرة على إخضاعهم وكونوا ما عرف فى تاريخ المغرب بجمهوريات أبى رقراق، وبدأ هؤلاء المهاجرون فى مهاجمة الإسبان والبرتغاليين من رباط الفتح وسلا وتعدوهم إلى غيرهم من فرنسيين وإنجليز وهولنديين، وكانت أوروبا تلقبهم بالقراصنة ولصوص البحر. وكان الرواد فى هذا الجهاد البحرى هم الجماعة أندلسية الأصل المعروفة بالجرانشيين وهى كلمة محرفة من كلمة هرناشو نسبة إلى مدينة Hornacho الإسبانية . وكان الأندلسيون قبيل مجئ الحرناشيين يخضعون لسلطة القائد الذى تعينه الدولة ولكنهم بتحريض الحرناشيين خلعوا طاعته وتولوا الحكم بأنفسهم واختاروا عاملا من بينهم وكونوا مجلسا للحكم يعرف بالديوان نصف أعضائه من الرباط والنصف الآخر من سلا

وهكذا تشكلت جمهورية بحوض أبى رقراق ابتداء من سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى بوجندار مقدمة الفتح، ص ٥٤ وما يليها. عبد الله السويسى، تاريخ رباط الفتح الرباط، ١٩٧٩، ص ١٠٤ وما يليها.

١٠٥- لطفى عبد الوهاب يحيى، دراسات فى تاريخ مصر، عصر البطالمة، ص ٣١٨ وما يليها.

١٠٦- راشد البراوى حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٢٥٥ وما يليها - سحر عبد العزيز سالم، تجارة عمان فى الكارم وصداها على سياسة مصر حتى طليعة القرن السابع الهجرى، مسقط، ١٩٩١، ص٢.

١٠٧- Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen Age, t. I, Leipsig, 1923, p. 384.

١٠٨- المقريزى، المخطط، جـ١، ص ٣٠٦.

١٠٩- حدد بنيامين التطيلى أسماء دول كانت تتعامل مع الإسكندرية تجاريا وكان لكل منها فندق بالإسكندرية منها البندقية وطباردية وتسكانة واما الفى وصقلية وقلوية ورومانية وكازارية وهنغارية وبلغارية وراكوفية وكرواتية وروسيا وألمانيا سكسونية وايسلندا والنرويج. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى Viajes, De Benjamin De Tudela , Madrid, 1918, p. 115.

وكانت للبندقية بالإسكندرية جالية كبيرة يدير شئونها قنصل . وكان فى الحى البندقى فندقان وحمام ومخبز وكنيسة (شارل ديل، البندقية جمهورية ارسقراطية، ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٤٨ ص ٥٩) ولمزيد من التفاصيل عن مكانة الإسكندرية التجارية فى العصر الإسلامى ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية ص ٢٥٧ وما يليها، ص ٥١٥ وما يليها).

١١٠- ارجع إلى عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية، ص ٢٥٧ وما يليها.

١١١- Kruger, The Wars of Exchange in Speculum 12, 1973, p. 57 - Goitein, A Mediterranean Society, Vol I, Berkelley, 1967, p. 61,212,215-Goitein, Studies in Islamic History and Institutions, Leiden1966, p. 297.

١١٢- سحر عبد العزيز سالم، علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها من أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية، زغوان، ١٩٩٣، جـ٢، ص ٨٤.

١١٣- ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، طبعة القاهرة، جـ٤، ص ٣٣ ترجمة ٣٦١٨.

١١٤- المصدر السابق، جـ٣، ص ٨٠ ترجمة ٢٦٥١.

١١٥- السخاوى، الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع مجلد٤، جـ٨، ص ٢٨٩.

١١٦ - بوجندار ، مقدمة الفتح ، ص ٧٧.

رثاء الحيوانات عند الشعراء فى العصر السكندرى *

دكتورة

فكرية مصطفى صالح

دكتور

فكرية مصطفى صالح

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

من المألوف والمتعارف عليه أن يكون الرثاء فى الإنسان، إما أن يكون الرثاء فى الحيوان فهذا شئ يتطلب معرفة الدوافع إلى ذلك، خاصة وأن الرثاء يكون معبراً فى كثير من الأحيان عن معاناة حقيقية شديدة التأثر بمحنة الفقد.

وقد يظن البعض أن رثاء الحيوانات نوع من الترف الفكرى الذى لا طائل من ورائه، والأمر جدُ مختلف، فلشعراء العصر السكندرى أسبابهم ودوافعهم فى هذا، مما جعلهم لا يضنون على الحيوان بتلك المشاعر الرقيقة الفياضة.

نجد البداية فى الحديث عن الحيوانات برقة واهتمام عند الشاعر هوميروس، والذى لم يغفل التعبير عن متاعب الحيوانات، فهذا حصان أخيليوس يحمل اسماً كسائر البشر وهو كسانثوس ويعبر لسيده عن شعوره مقدماً بموته المرتقب وذلك بانحناءة شديدة تقترب بشعر عنقه بأكمله χαίτη
πέδα من الأرض، وكأنه يقول له إن موتك ليس ببعيد ἦμαρ ἐγγύθεν τοι
λοιγὸν جعل أخيليوس يسأله : لماذا تتنبأ بموتي(1)، μαντεύεαι
Ξάνθε, τί μοι θάνατον

وهذا كلب أوديسيوس العجوز يلقى اهتماماً بالغاً أيضاً من جانب هوميروس، فهو يرقد وحيداً حزيناً لغياب سيده، أما بعد أن عاد أوديسيوس

(1) Homer, the I liad Book XIXLL. 405, 409, 420.

نجده يهز ذيله فرحاً ويرخى أذنيه اطمئناناً وبعدها «تتلقفه الأيدى السوداء لهاديس»(١).

ولنستعرض الآن نتاج شعراء العصر السكندرى فى هذا المجال ولتكن بدايتنا بالشاعر ثيوكريتوس (القرن الثالث ق.م.) والذى ابتدع فناً صادقاً متمثلاً فى شعر الرعاة(٢)، فنجده يخاطب أحد الرعاة ويدعى ثيرسيس قائلاً له :

«لن يفيد انتحابك وأنت تذوب حزناً وتزرف الدمع من مقلتيك:

εἰ καταταξεῖς δάκρυσι διγλήνως

ἐς πᾶς ὀδυρόμενος,

لقد رحل (عنا) الجدىُ(٣) الصغير الجَميل :

Χίμαρος, τὸ καλὸν τέκος,

رحل إلى هاديس | ἐς Ἀΐδαν أنقض عليه الذئب الشرس بمخالبه

Τραχὺς γὰρ χαλαῖς ἀμφεπίαξε λύκος

الكلابُ تَعْوِى – ولكن – ما الفائدة الآن؟ لقد فنى عن آخره، ولم يبق منه عظم ولا رماد(٤). τέφρα λεῖπετ᾽ ἀποιχομένας.

(١) Homer, The odyss. VII L. 291 ff.

(٢) A,Dihle, Ahistory of Greek Literature , p. 274. cf.

(٣) التيس من الماعز إذا أتى عليه حول، وقبل الحول فهو جدى.

(٤) Theocritus, Greek Anth. IX 432.
cf also Idem (The Greek Bucolic poets) inscrip. VI (L. C.L.).

ἀνίκα τήνας εἶπον ...

فهنا يدعو ثيوكرثيوس الراعى ثيرسيس أن يصبر ويتماسك، فلا فائدة من البكاء والانتحاب على مصابه الأليم، فقد انتهى كل شئ، والتهم الذئب الجدى عن آخره. وقد عبر يثوكريتوس تعبير عما أصاب الراعى من شجن وأحزان، كما بين مدى تأثره بآلامه وتوجعه لفقده الجدى الصغير وقد علق أوجست كوا على هذه المقطوعة الشعرية قائلا ! :

إنها عبرت بشكل واضح عن مدى ما كان يتمتع به الراعى ثيرسيس من رقة المشاعر والأحاسيس المرهفة، كما استطاع ثيوكريتوس بدوره أن يعرض ذلك بحس شعرى بالغ التأثير[1].

وها هو «ليونيداس» من تارنتوم (حوالى ٢٧٤ ق.م.)، والذى أحب الريف وبرع فى تصوير الحياة البسيطة، فقد صور لنا سوء العاقبة التى ألمت بأحد الأسود لأنه افترس بقرة صغيرة إذ قال :

«قتل سوسوس – الذى يمتلك الكثير من الماشية ὁ Βουτάμων

الأسد، بسلخ جلده δέρμα أصفر اللون، والمشبع بالحمرة، حتى صار كلحاء الشجر φλοιῶσα التهامه لبقرة ذات ضرع وفير εὐθηλήμενα μόσχον فلن يعود مرة أخرى إلى الأدغال. وقد دفع (هذا) الوحش ثمن (فعلته)، فكان الدم بالدم αἷμα ἀνθ' αἵματος وياله من مصير محزن لاقته تلك البقرة»[2].

(١) cf. A. Couat, Alexandrian Poetry, p. 432 note.

(٢) Leonides , Greek Anth. VI. 263.

وفى مناسبة للتضحية بالثيران نجد «كاليماخوس» يظهر تعاطفاً واضحاً مع تلك الثيران فيقول :

«وتذهب الثيران فى الصباح فتتقطع (نياط)[1] قلوبها، إذ تبدو صورة السكين الحاد تعكسها أمامها صفحة الماء :

ἠῷοι μὲν ἔμελλον ἐν ὕδατι θυμόν
ἀμύξειν οἱ βόες ὀξεῖαν δερκόμενοι
δορίδα,| (٢)

ولعل هذا الاتجاه راجع إلى ضعف الوازع الدينى، والذى ساد فى العصر السكندرى، حتى صارت عملية التضحية من أجل الآلهة تمثل عذاباً للحيوان.

وفى الحصان قالت الشاعرة أنيتى (أوائل القرن الثالث ق.م.):

«أقام «داميس» هذا النصب التذكارى Μνᾶμα للفرس الوفى ἵππου μενεδαΐου بعد أن طعنه أريس فى صدره، وقد خضل الثرى دمه المنبعث من جرحه الفتاك، والذى كان يتدفق عبر جلده الغليظ: (٣) ταλαυρίνου διὰ χρωτός

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه.

(٢) Callim. Aetia, III.75

- الإشارة هنا إلى الثيران التى يُضحى بها فى الصباح السابق على الزفاف، وكانت هذه الثيران تربط إلى حوض ماء مقدس قبل ذبحها.

(٢) Anyte, Greek Anth. VII. 208.

فهنا نجد الشاعرة قد أبدعت فى وصف جرح الحصان، وما يتدفق من جسده من دم يخترق جلده، والذى وصفته وصفاً دقيقاً إن دل على شئ إنما يدل على مدى معرفتها بطبيعة التكوين الجسمانى لهذا الحيوان وكيفية تدفق الدم واختراقه لجلده الغليظ.

وفى موضع أخر نجد الشاعرة أنيتى تتحدث عن حب الإنسان، وصديق الشدة، ألا وهو الدولفين، إذ صورت لنا أحزان دولفين ألقته الأمواج على شاطئ البحر، ذلك المخلوق الذى كان يسبح ويمرح ويقفز قفزات رائعة فى الهواء ثم يهبط إلى الماء، ولكنه الآن وقد ألقته الأمواج على الشاطئ يندب حظه قائلاً :

«لم أعد أختال وسط من يجوبون البحار :

οὐκέτι δὴ πλωτοῖσιν ἀγαλλόμενος πελάγεσσιν.

لن أرفع رقبتى مندفعاً من الأعماق :

οὐχέν' ἀναρρίψω βυσσόθεν ὀρνύμενος

لم أعد ألفظ الماء حول حافات السفن رائعة الجمال، والتى تحمل صورة لى فى مقدماتها: لقد ألقتنى الأمواج الداكنة على شاطئ البحر، والآن أرقد هاهنا فوق هذا المكان الضيف[١].

---

(١) Idem, Greek Anth. VII 215.

– عن المزيد من الأمثلة الدالة على الرفق بالحيوان فى شعر أنيتى :
Cf. Anyte, Greek Anth. VI 312, IX 313.

وفي موضع أخر نجد الشاعر «مليا جروس» (القرن الأول ق.م.) يرثى أرنباً صغيراً، جاعلاً الحديث على لسان ذلك الحيوان فيقول :

«كنت أرنباً سريع الخطى ταχύπουν.... λαγών ولى أذنان طويلتان، وقد أخذت من بين أحضان أمى، وأنا لم أزل بعد صغيراً.

ἔτι παῖδα συναρπασθέντα τεκούσης

ἄρτι μ' ἀπὸ στέρνων

وقد قامت على رعايتى فاينون الجميلة، وغذتنى بنباتات الربيع المزهرة:

εἰαρινοῖς ἄνθεσι

لم أعد أتوق شوقاً لأمى :

οὐδέ με μητρὸς ἔτ' εἶχε πόθος

إذ أودت التخمة بحياتى :

θνήσκω δ' ὑπὸ θοίνης ἀπλήστου

بعد أن أصبحت بديناً بسبب كثرة الطعام

πολλῇ δαιτὶ παχυνόμενος

وقد قامت «فاينون» بدفنى بجوار مضجعها

μου πρὸς κλισίαις κρύψεν νέκυν

كى ترى قبرى دوماً فى أحلامها بجوار فراشها :

ὡς ἐν ὀνείροις αἰὲν ὁρᾶν κοίτης
γειτονέοντα τάφον.(١)

ففى تلك الأبيات نرى الشاعر «ملياخروس» يتحدث برقة وعذوبة عن حيوان صغير انتزع من بين أحضان أمه فلاقى حتفه.

ولعل هذه دعوة من قبل الشاعر بعدم حرمان صغار الحيوانات من رعاية أمهاتهن، كى يلقوا الرعاية الطبيعية وينجوا من الفناء.

وهذا شاعر آخر من ساريس ويدعى «بولاينوس» Polyaenus (القرن الأول ق.م.) قدم لنا صورة شعرية جميلة لرثاء ظبية قامت أفعى بلدغ ضرعها الممتلىء، فانتقل السم من الأم إلى ولدها، فمات الاثنان معاً، وقد قال فى ذلك :

«لدغت أفعى شرسة Πικρὸς ἔχις ضرع ظبية حديثة الوضع
Δορκάδος ἀρτιτόκοιο τιθηνητήριον
οὖθαρ فأرضعت ولدها ضرعاً أفسده السم :

νεβρὸς δ' ἰομιγῆ θηλὴν ἔσπασε

وامتص من الجرح المميت لبناً ملئ بالسم الزعاف، فانتقل الموت من الأم إلى رضيعها، يالقسوة القدر ... فقد هيأ الرحم للصغير نعمة الحياة،

(١) Meleager , Greek Anth. VII 207.

وحرمه إياها ضرع أمه :

Καὶ αὐτίκα νηλεῖ μοίρῃ ἣν ἔπορεν
καὶ τῆρ μαστὸς ἀφεῖλε χάριν (١)

ففى الأبيات السابقة قدم انا الشاعر صورة جميلة، فالأمهات دائماً وأبداً فيض من الحنان والسكينة ينهل منه الصغار الطمأنينة دون أدنى خوف أو عذر أو قسوة، فالأم تهيئ للرضيع سبل العيش دون تلمس جزاء سوى الإشباع الطبيعى لغريزة الأمومة، ولكنه القدر - على حد قول الشاعر- الذى حول الضرع من سبب لاستمرار حياة الرضيع إلى سبب لهلاكه دون قصد.

والآن وبعد أن استعرضنا العديد من الأمثلة على رثاء الحيوانات عند بعض شعراء العصر السكندرى نستطيع أن نقول إن الاتجاه الرومانسى، والذى أصبح سمة من سمات الأدب السكندرى، كان سبباً وراء ظهور هذا النوع من أنواع الرثاء، فالرومانسية تعبير عن الروح الفردية وعن الذات الإنسانية، وهى تفسح المجال لظهور العواطف الذاتية والنزعات الفردية، فهذه الرقة الزائدة من نتاج الرومانسية، تلك الرقة التى قد تبلغ حد التمادى فى العاطفة، وكما رأينا فقد امتد التعاطف فيها إلى الحيوانات، وقد يمتد ذلك أيضا إلى الحشرات، وقد عبرت الشاعرة أنيتى عن هذا الحب وهذا التعاطف مع الحشرات فقالت :

(١) Polyaenus, Greek Anth. IXI.

«أقامت ميرو قبراً للجراد Ἀκρίς عندليب الحقول κατ' ἄρουραν ἀηδόνι والجندب (٢). (زيز الحصاد) τέττιγι الذى يعيش فوق شجرة البلوط.

لقد نرفت هذه الفتاة دمعاً (غزيراً)

Παρθένιον ἔσταξεν κόρα δάκρυ

لأن هاديس الذى لا يرحم ὁ δυσπειθὴς Ἀΐδας

اختطف منها هذين(المخلوقين) المبهجين(٣) δοιὰ παίγνια

وقد امتدت أيضاً تلك المشاعر الرقيقة لرثاء الطيور، إذ نجد الشاعرة أنيتى تصف ديكاً وقع فى براثن ثعلب فتقول :

«لم تعد تستيقظ مبكراً لتوقظنى من فراشى عندما ترفرف بجناحيك السريعتين οὐκέτι μ' ὡς τὸ πάρος πυκιναῖς

πτερύγεσσιν ἐρέσσων ὄρσεις ἐξ εὐνῆς

ὄρθριος ἐγρόμενος·

لأن اللص (الثعلب) أخذك خلسة أثناء نومك، فقضى عليك بعد أن أمسك رقبتك بسرعة بمخالبه : ἦ γάρ σ' ὑπνώοντα σίνις

λαθρηδὸν ἐπελθὼν ἔκτεινεν λαιμῷ

ῥίμφα καθεὶς ὄνυχα· (٤)

---

(١) العندليب : قيل هو البلبل، وقيل هو كالعصفور يصوت ألوانا، وقيل طائر يقال له الهزار

(٢) الجندب : جراد صغير يعرف بالقبوط.

(٣) Anyte, Greek Anth. VII 190.

(٤) Ibid, VII 202.

ويضاف إلى الرومانسية كسبب فى اتجاه بعض شعراء العصر السكندرى إلى رثاء الحيوانات والحديث برقة وعذوبة عن بعض الحشرات والطيور، يضاف إلى هذا تطور فن الإبجراما Epigrammata فى ذلك العصر، حيث أصبحت قصيدة وصفية قادرة على التعبير عن مشاعر وأحاسيس متنوعة، هذا بالإضافة إلى ما وجد فى هذا العصر من نتاج شعرى خصب من الأشعار الرعوية

والميل الواضح نحو الريف والتغنى بما فيه من مظاهر الحياة البسيطة، مما أكسب شعراء ذلك العصر القدرة على التعبير وخلق الصور الرائعة.

المراجع

أولا : المصادر الأدبية :

- Anyte, Greek Anth. (L.C.L.)

- Callim. Aetia (L.C.L.)

- Homer, the Ibid, ed. M.M. Willcock, London, 1987.

The odyss. (L.C.L.)

- Leonidas, Greek Anth. (L.C.L.)

- Meleager, Greek Anth. (L.C.L.)

- Polyaenus, Greek Anth. (L.C.L.)

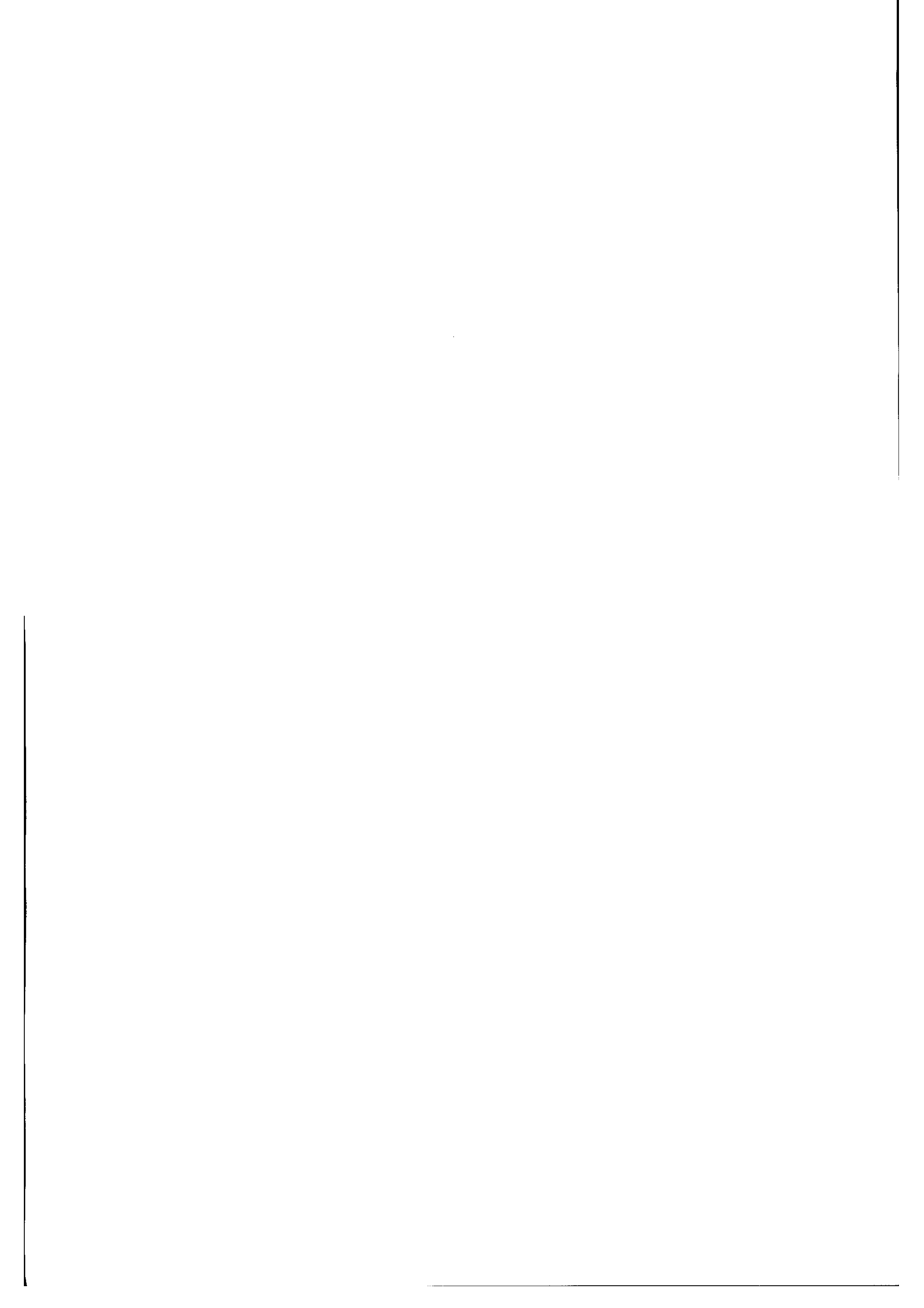
- Theocritus,Greek Anth. (L.C.L.)

The Greek Bucolic Poets (L.C.L.)

ثانيا : المصادر الأجنبية :

- A. Couat, Alexandrian Poetry under the First three Ptolemies, London, 1931.

- A. Dihle, AHistory of Greek Literature, London and New York, 1994.



قانون كركاللا ومذبحة الإسكندرية (خريف عام ٢١٥ م) وتبرئة كوكاللا أنه كان ضد الشعب المصرى صاحب الأرض *

دكتور

محمد بهجت قبيسى

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

هذا البحث هو جزء من كتاب عنوانه : (الكنعانيون والآراميون العرب فى الإمبراطورية الرومانية من القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادى).

لا أظن أن مدة عشرين دقيقة كافية لتبرئة إمبراطور لاكه بعض المؤرخين المغرضين أمثال (ديوكاسيسوس)، لكنى أرجو أن أوفق إلى ذلك.

وبداية لابد من الإشارة إلى الثوابت التالية :

الثابت ١ – لقد كُتب التاريخ القديم حسب الفكر التوراتى، أو الفكر الإغريقى، ولقى في الآونة الأخيرة تناغماً بين الفكرين عدا قلة قليلة أمثال دوبون سومير وأندرية بيجانيول. حيث يعترف الأول أن اللغة الآرامية هى أقرب للعربية الفصحى من العبرية، ويصف الثانى أن أسرة كرك اللا هى الأسرة العادلة بالإمبراطورية الرومانية.

الثابت ٢ – لقد قام بعض العرب المحدثين أصحاب الأرض ببعض القراءات المنهجية بعين عربية خالية من العصبية الشوفانية (نسبة إلى شوفان)، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء بدراسة أستاذنا الدكتور مصطفى العبادى فى تبرئة العرب من حريق مكتبة الإسكندرية. إنما لا تزال هذه الكتابات فى بداياتها.

وفى بحثنا عن قانون كرك اللا [الذى منح الهوية الرومانية لكافة

السكان الذين تظلهم سماء الإمبراطورية] والتى كانت حكراً على إيطاليا، وبعض سكان الإسكندرية، وبعض سكان دفنا/ إنطاكية، وآخرين قلائل. وأما باقى سكان الإمبراطورية فهم مستعمرون يعدون من طبقة العبيد. وجاء قانون كرك اللا ليحرر هؤلاء واستثنى المجرمين فقط.

فى بحثنا عن هذا القانون الذى يعتبر أساس مذبحة الإسكندرية، لابد لنا من دراسة ناحيتين هامتين :

الأولى : أصل هاتين الأسرتين المتصاهرتين العريقتين اللتين أنجبتا كرك اللا :

١- أسرة شمسى غرام العربية الآرامية التى سكنت مدينة حمص، ومنها والدة كرك اللا [جوليا دُمنا] ابنة كاهن معبد الشمس شمسى غرام.

٢- الأسرة العربية الكنعانية التى سكنت مدينة لبدا (فى ليبيا الآن)، والتى منها والد كرك اللا [سبطيم سفير] والتى عرفت بالأسرة السيفيرية أو ما نطلق عليه الأسرة السبطية أو السافرة نسبة إلى سبطيم سفير. وهى تضم أربعة أباطرة : سبطيم سفير، وكرك اللا، وإله الجبل، وأسكندر سفير.

إن دراسة هاتين العائلتين من الناحية الوطنية والثقافية، تكشف لنا مضامين القوانين السبطية، ومنها قانون كرك اللا.

والناحية الثانية هو التعرف على الجو الثقافى الذى جمع هاتين العائلتين ممثلا باتباعهما المدرسة الفلسفية الرواقية والتى أسسها زينون الكنعانى القبرصى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد الذى هاجر إلى أثنا وعلم تحت الرواق، وهى ما تعرف (Stoicism).

فأما عائلة شمسى غرام :

فقد اشتهرت بتاريخها الوطنى أثناء الحكم السلوقى فى بلاد الشام، فإذا قسمنا تاريخ الإغريق فى بلاد الشام إلى ثلاث فترات :

١- فترة الإسكندر المقدونى الأممية.

٢- فترة السلوقيين العنصرية (غير المعلنة) والتى بدأت بعد موت الإسكندر الأكبر وانتهت عام ١٧٠ ق.م.

٣- والفترة الثالثة فترة فرض الأغرقة التى بدأها أنطيوخس الرابع سنة ١٧٠ م أثناء احتفالات دفنا.

وهنا برزت المقاومة العربية (الكنعانية - الآرامية - النبطية - الأعرابية) بأجلى ضورها (١٧٠ -٦٥ ق.م.)، فقامت الثورات ضد الأغرقة، وكان على رأس هؤلاء الثوار عائلة شمسى غرام التى قضت على أنطيوخس الثالث عشر آخر ملوك السلوقيين، إلا أن بومبى لم يوف العرب حقهم واستبعد شمسى غرام وأكثر حكام الأقاليم وتجاهل طلباتهم الوطنية.

هذا من الناحية الوطنية. أما من الناحية الثقافية، فقد فتحت جوليا دمنا والدة كرك اللا (كرك الله) عيناها على التحرر والثقافة. فقد كانت جوليا دمنا فتاة شرقية آرامية متحضرة فى ثقافتها المميزة وحضارتها الشرقية الرفيعة عن بنات الغرب الرومانيات، فقد كانت تغشى المجالس العلمية[1]

(١) جود فرى تورتون ، ص ١٠٥.

التى كان جدها وأبوها يعقدانها للحجاج الذين يفدون إلى الشرق للتبرك والتنعم والتنبؤ(١)، وهى أمور لم تكن الفتيات الرومانيات يتمتعن بها، وعلى هذا فقد اتصفت هذه الفتاة بصفات لم يقدر لغيرها أن يحملنها(٢) (وهى والدة كرك اللا)، وأضافت إلى امتيازاتها فيما بعد، وفى نظر زوجها، أنها قد ولدت لسبطيم فى (ليون) لوج دونم سنة ١٨٨ ميلادية ابنها البكر الذى أطلقت عليه اسم (بأس يان) علي اسم جدة لأمه، لكنه عرف فيما بعد باسم آرامى أخر هو كرك اللا(٣) CARACALLA، ومعنى كرك اللا أى قدرة الله(٤) (كرك الله).

أما عائلة سبطيم سفير (والد كرك اللا) :

فتعود فى تاريخها إلى لوقا سبطيم قاتل بومبى عام ٤٨ ق.م.، والذى له مع سبطيم سفير صلة قربى بعيدة على ما تذكره جود فرى تورتون(٥)، وذلك رداً على عدم حصول أهالى المنطقة على ما كانوا يتوقعونه من القائد

(١) المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

Hebrew and English Lexicon of the Testment. P. 501.

هذا القاموس الذى سرق به درايفر Driver نقوش الأرض وكلماتها ليضيفها إلى قاموس جيزنيوس (١٨١٥) ليعتبرها عبرية. جاء فى القاموس ص ٥٠١ : كرك تعنى لفة، حزمة. أما فى اللغة الآكادية فتعنى مرحل أمبيق (ذو القدرة). وفى العاميات الزراعية لبلاد الشام نجد لفظ كركة تعنى أمبيق المستعملة فى استخراج ماء الزهر المقطر. والأمبيق يحمل معنى القوة والقدرة، وهذا فى فقه اللغة يعتبر مدلول. وكذلك مدينة الكرك فيلارون حاليا فهى ذات مدلول عسكرى يعنى القوة والقدرة.

(٤) جود فرى تورتون ، ص ١٠٥.

(٥) هز جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ص ٦٢.

الروماني بومبى[١] (وهنا يظهر لنا التناغم الوطنى الذى كان بين عائلة شمسى غرام الآرامية وعائلة سبطيم الكنعانية) فى موضوع بومبى.

وتشير المصادر إلى أن جد سبطيم سفير المباشر واسمه أيضا لوقا سبطيم سفير (٧٥م)، كان شخصية كبيرة فى مدينة لبدا الكنعانية الإفريقية. وقد أهدى إليه الشاعر (ستاس) واحدة من قصائده عندما رفعت المدينة إلى رتبة مستعمرة حوالى ١١٠م. فقد شغل لوقا سبطيم الجد مناصب متعددة. فقد كان قاضياً فى لبدا ثم حاكما قبل أن ينتقل إلى روما ليصبح أحد أعضاء مجلس التشريع وقاضياً فيها[٢] [لنلحظ ذلك : أن الجد كان فى مجلس التشريع وقاضياً فى روما ما دمنا نبحث فى مقدمات قانون كرك اللا (كرك الله)].

كما تشير المصادر أن والد سبطيم كان من مرتبة الفرسان ولهذا أقام سبطيم سفير بعد تسلمه السلطة فى روما تمثالا لأبيه فى لبدا سنة ٢٠١م.

أما سبطيم سفير، ولكون والده أحد الفرسان الميسورين[٣] ، فقد استطاع أن يتابع تعلم البلاغة والقانون حتى بلوغه سن الثامنة عشر على يد معلمين من قرطاجة ومادورا (MADAURE) فى افريقيا، ولم يك هؤلاء المعلمون يقلون فى شئ عن أندادهم فى روما[٤]

(١) J. Babelon, p. 60.

(٢) J. Babelon, p. 59.

(٣) جود فرى تورتون ص ٢٣-٢٤ + J. Babelon, p. 59-62.

(٤) راجع الملحق، رقم ١ + ٢ + ٣ + ٤.

كانت لغة عائلة سبطيم سفير البيتية هى العربية الكنعانية التى يتكلم بها أهالى قرطاجة، وتعلم سبطيم اللغتين اللاتينية واليونانية إلا أن لهجته الكنعانية ظلت مؤثرة عى لاتينيته حتى عندما أصبح إمبراطوراً فى روما، ويذكر المؤرخون أن لهجته كانت أسلم من لهجة أخته التى زارته فى روما مما أثار استهزاء وسخرية سكان روما[١](حسب أقوال المؤرخ ديوكاسيوس الذى كان يكره هذه الأسرة).

وأما فيما يتعلق بالاهتمام بالنسب فى المنطقة العربية فهذا ما يؤكده رينيه دسو فى كتابه تاريخ سورية قبل الإسلام[٢] .

بالإضافة إلى أن أول اتحاد نسائى قام فى روما أوجدته جوليا سواى مياس ابنة أخت جوليا دمنا[٣]، ناهيك عن المجالس الفلسفية التى كانت تعقدها جوليا دمنا فى كل روما ودفنا / أنطاكية.

هذا غيض من فيض عن الأسرتين وتاريخهما الوطنى والثقافى.

أما الفكر الإيديولوجى الذى جمع الأسرتين هو المدرسة الفلسفية الرواقية. وفى هذه العجالة نشير إلى ثلاث مدارس فلسفية كانت سائدة :

١- الأولى هى الرواقية، ونستطيع أن نشبهها إن جاز التعبير بأحد الأديان السماوية.

(١) جود فرى تورتون ص ٢٣-٢٤ + J. Babelon, p. 59.

(٢) دسو رينيه، تاريخ سورية قبل الإسلام، ص ٢٢.

(٣) جود فرى تورتون، ص ١٩٩-٢٠٠.

٢- الثانية هى الأبيقورية، ونستطيع أن نشبهها بفلسفة الغجر (النور) الجبسى للحياة.

٣- الثالثة هى الكلبية، ونستطيع تشبيهها بحياة الهيبيين اليوم.

المدرسة الرواقية :

مؤسسها زينون الكنعانى القبرصى، واسم زينون كاسم خلدون حيث الواو والنون هى لاحقة كنعانية، فأقول : قاسى = قاسيون - حرم = حرمون - كفر = كفرون - خالد = خلدون - زيد = زيدون - صيد = صيدون. نشر مدرسته سنة ٣٠٠ ق.م. فى أثنا تحت أحد الأروقة، لذا سميت بالرواقية. من تعاليمها:

- وحدة الجنس البشرى.
- المساواة بين الناس.
- عدالة الدولة.
- تساوى قيم الرجال والنساء.
- احترام حقوق الزوجة.
- الإحسان والحب والطهارة والتسامح والإحسان إلى الآخرين.
- الشعور الإنسانى حتى فى حالة الضرورة القاسية التى تقضى بمعاقبة المجرم بالإعدام. كل هذه وسواها تملأ كتب الرواقيين(١) .

(١) عيسى اليازجى، ص ١٤٧.

والمثير أن هذه المدرسة أصبحت عماد فكر كل صاحب عقيدة سياسية أو أخلاقية أو دينية[1] . حتى أن بعض فلاسفة الفكر الإسلامى مثل صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٦٤٠ م، أخذ من هذه المدرسة، وسماها الشيرازى ووصفها بالمدرسة الإشراقية ووصف أهلها بأنهم حكماء أصحاب نقاوة الأنواق وأهل الإشراق[2] .

قانون كرك اللا (كرك الله) :

لم يكن قانون كرك اللا (كرك الله) وليد ساعته، بل كان مهيئا من أيام أبيه سبطيم الذى كلف فقهاء القانون، معتنقى المدرسة الفلسفية الرواقية، وأهمهم :

- بابنيان الآرامى الحمصى.
- ألب يان الكنعانى الصورى (من مدينة صور).

ولم يكتب لفلسفة زينون الرواقية أن تخرج إلى حيز التطبيق إلا بعد ٥٠٠ عام على يد أبناء جلدته الكنعانيين السيفيريين لتصبح عالمية على مستوى الإمبراطورية.

قبل القوانين السبطية كان هناك قانونان :

الأول : وهو القانون الرومانى الأساسى، وكان موضوعا لمدينة معينة، ولفئة محدودة من المواطنين.

(١) عيسى اليازجى، مآثر سوريا فى العصر الرومانى، ط١ ، بيروت، ص ٢٤٧.

(٢) صدر الدين الشيرازى، الحكمة المتعالية، ج١، ايران ، قم ، ص ١٣ .

الثانى : الذى أضافوه وسموه قانون الشعوب[١] .

إلا أن كليهما لم يوفيا الغرض الذى أراده السبطيون السافرة.

والمعروف أن سبطيم سفير والد كرك اللا (كرك الله) كان أحد الأباطرة القلائل الذين درسوا القانون، وعندما تسلم السلطة لم يشأ أن يعمل على إحداث تغيير قانونى كامل ومفاجئ لأن ذلك سيؤدى إلى تغيير اجتماعى مفاجئ أيضاً، بما يصاحب ذلك من فوضى أمنية ضارة[٢] . وعندما بدأ بالتسلسل التدريجى أقام مجالس المدن الديمقراطية، ثم أكمل ابنه كرك اللا (كرك الله) تلك الخطوة بإصدار قانون الرعوية الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية. وبذلك تحققت المدرسة الفكرية الرواقية بتوحيد نظرة الدولة إلى كافة سكانها ومحاولة تحقيق المساواة ليس فقط بين الطبقات بل بين جنسى الطبيعة، وعلى هذا تساوى الرجال بالنساء، وهو أمر يتحقق لأول مرة فى روما بعصريها الجمهورى والإمبراطوري، وبرزت المرأة بصورة رسمية وقبلها الشعب منذ جوليا دمنا، وجوليا ميسا، وجوليا سواى مياس، وجوليا مامايا، وبت زباى/ زنوبيا.

وقامت القوانين على النظرة الإنسانية لبنى البشر التى يلفها الحب والطهارة والتسامح. فقانون كرك اللا (كرك الله) لم يعمل على تنزيل الطبقة الارستقراطية، بل رفع الطبقة الفقيرة والمستعبدة إلى تلك الطبقة.

---

(١) عيسى اليازجى، ص ١٤٩.

(٢) يمكن مع الفرق الشاسع طبعا إجراء مقارنة مع ما جرى فى الاتحاد السوفياتى المعاصر وضعت قوانين مفاجئة لتغيير واقع سياسى معين.

يقول المشرع الرواقى ألب يان أحد مشرعى هذه القوانين:

[العدالة اتجاه ثابت ملزم لإعطاء كل ذى حق حقه، وسنن القانون الوضعى تقضى بأن تحيا حياة شريفة وألا تسئ إلى أحد، وفقه التشريع هو علم الإحاطة بكل ما هو إنسانى وسماوى، هو علم التفريق بين ما هو حق وما هو باطل](١) .

ولعل أبرز الجديد فى قوانين السبطيين وبخاصة قانون كرك اللا (كرك الله) كان حق التصويت ، وحق تولى الحكم، وحق الاتجار، وحقوق الأبوة والوصية والميراث، وعدم جواز جلد المواطنين أو قتلهم إلا بعد تقديمهم للمحاكمة(٢) .

ومن الثابت أن مجموعة جوستنيان (٥٢٧ -٥٦٥م) القانونية الشهيرة اعتمدت فى صياغة أكثر موادها علي بابنيان الحمصى، وألب يان الصورى.

وهكذا كان عصر سبطيم سفير عصر التشريع الذهبى فى روما، كما كان عصر أغسطس بالنسبة للأدب(٣)، كما وصف روستفت زف القانون الرومانى زمن سبطيم سفير بقوله : [ظهر القانون الرومانى لآخر مرة فى أنبل مظاهره وأكثرها بهاءً]. ويضيف [ولا حاجة بنا إلى الإسهاب فى هذا الموضوع الذى شاع واشتهر](٤) .

(١) عيسى يازجى، ص ١٥١، عن : Roman Stoicism, CH 12 (197).

(٢) عيسى يازجى : ص ١١٩.

(٣) جود فرى تورتون ، ص ٩٦.

(٤) روستفت زف ، ص ٤٨٠.

مذبحة الإسكندرية خريف عام ٢١٥م، وعمر كرك اللا ٢٧ عاماً :

اختلف المؤرخون فى سرد أحداث المذبحة بين مبالغ ومقل مع أن بعضهم يشير إلى تأثير إصدار قانون الرعوية الرومانية (قانون كرك الله) فى تفجيرها. ويبدو أن إصدار القانون أدى إن نقمة الموسرين وكبار رجال السلطة الذين ساءهم أن يسوى القانون بينهم وبين عامة الشعب فى الحقوق والواجبات، ورأت المعارضة التى ناهضت سلطة كرك اللا (كرك الله) سابقا فى صدور القانون فرصة للتحرك، وبخاصة بعد نقل الفرقة العسكرية الرومانية من مصر إلى منطقة الراين[١].

وبدأ التمرد على شكل حملات بالسخرية من الإمبراطور بإصدار تماثيله على شكل تماثيل الإسكندر[٢]، وتطور التمرد ليصبح على شكل حركات سرية تسخر من المقدسات وتحرق المبانى الحكومية[٣]. ويبدو أن تسارع تفاقم المشكلة أعجز الحاكم الرومانى «هراكليتوس» عن القيام بأى عمل لإعادة النظام.

وصلت إلى الإمبراطور وهو فى حربه مع البارثيين على الفرات أنباء أقلقته فعلا، مع سلسلة من النكات الساخنة التى هزء بها الإسكندرانيون من إمبراطورهم (هذا عن رواية ديوكاسيوس) بشكل سافل، ومجموعة من الحكايات عن علاقة محرمة بين الإمبراطور ووالدته جوليا دمنا.

---

(١) جود فرى تورتون ، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) تورتون ، ص ١٦٤.

وكان كرك اللا (كرك الله) قبل سفره لمصر لإخماد الفتنة قد ترك والدته جوليا فى دفنا/ أنطاكية لتستلم التقارير من جميع أنحاء الإمبراطورية، وتستقبل المبعوثين، وتقتضى أوقات فراغها مع أصدقائها فى مناقشة موضوعات فلسفية وأدبية كانت تعقدها فى صالات ومنتجعات أنطاكية التى اشتهرت بمباهجها الروحية والمادية[(١)] .

وصل الإمبراطور إلى الإسكندرية خريف عام ٢١٥م، وادعى أنه أتى لزيارة قبر الإسكندر المقدونى وللاشتراك فى أعياد الإله سيرابيس. وقد صدقه الأهالى واحتفوا به بعد أن ملوا الفتن واشتاقوا لرؤية من يضع حدا لها، وهكذا ألقيت الزهور ونثرت العطور وعزفت الموسيقى فى شوارع المدينة لدى مروره[(٢)] ، وفى الليل أحاطت به وبموكبه المشاعل وأوصلته إلى هيكل الإله سرابيس حيث قدم القرابين وزار قبر الإسكندر.

وفى الصباح أعلن عن دعوته الشباب الأقوياء الأصحاء للتجمع فى الساحة حتى يختار منهم كتيبة تسمى كتيبة الإسكندر الكبير. وقد لبى كثير من شباب الأسر النبيلة تلك الدعوة للانخراط فى تلك الكتيبة، وحضر الآباء الفخورون بأبنائهم ليروا العرض العسكرى للأبناء الذين كانوا يرتدون أفخر الملابس العسكرية ويطوفون فى الشوارع، وكان الجميع يتوجهون بألسنة الشكر والمديح إلى الإمبراطور[(٣)] .

---

(١) تورنتون ، ص ١٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٥

وما أن تكامل توافد الجميع من أبناء الأسر النبيلة فى الإسكندرية مع عدد كبير من أبنائهم حتى انسحب الإمبراطور من مكان الاجتما ع بعد أن أصدر الأوامر بإبادة الجميع، وخلال لحظات رهيبة فقدت الإسكندرية زهرة شبابها، وعدداً كبيراً من رجالاتها وزعاماتها. وتذكر تورتون : [ولإتمام انتصاره ولمنع مجرد التفكير بالعصيان، بنى كرك اللا (كرك الله) سوراً عبر المدينة قطعها إلى نصفين وجعل على السور حرساً. وكانت راقود / الإسكندرية ثانى أكبر مدينة فى الإمبراطورية من حيث عدد السكان].

لقد ساوت قوانين السافرة السبطيين بين أهل الريف والمدن[1]، كذلك أعفى القانون الفقراء من أعباء البلدية إضافة إلى المجدين العاملين فى المدينة حتى لو كانوا من أصحاب الثروة[2].

الحالة الاجتماعية فى مصر :

لاشك أن الحالة الاجتماعية فى مصر كانت مزرية، فلا مكان للمواطنين المصريين أصحاب الأرض فى الحياة السياسية والاجتماعية.

ويذكر روستفت زف فى هذا الصدد : [شعر اليونانيون فى مصر بأنهم السادة والحكام، ولم يكن يطرأ على أذهانهم قط أن يشركوا السكان الأصليين المنبوذين فى الحقوق، إنما اعتبروها حقوقاً مكتسبة لهم بالفتح وحافظوا عليها بقوة السيف. ولو حاول الملوك أن يطبقوا مثل هذا الرأى، لاعتبر اليونانيون القاطنون بالبلاد هذا الاتجاه خيانة وإثماً وافتئاتا على

(١) روستفت زف، ص ٤٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٦.

حقوقهم المقدسة فى مصر. وقد عم هذا الشعور البطالمة وأباطرة الرومان، وقد بدأ البطالمة بالنظر إلى مصر على أنها ملك خاص لهم غنموه بحق الفتح، وأصبحت مصر لذلك (بيتهم) أو ضيعتهم الخاصة، فى الوقت الذى كان فيه السكان الأصليون رعايا أذلة، عليهم أن يكلفوا (بيت) مليكهم بأعمالهم وأموالهم](١) .

ويضيف ميخائيل روستفت زف بالقول : [وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر رأينا اليونانيين رفقاء الملك ينتمون إلى جنس الملك وينتسبون ربما إلى مدينته نفسها، ولهذا كان من الطبيعى أن يعهد إليهم الملك بإدارة (بيته) وألا يسمح قط للمصريين باعتلاء المناصب الإدارية العليا. لا جرم بعد أن قام المصريون بثورات فى المدة الأخيرة ساعد على اندلاعها ضعف الحكام. لقد حاول البطالمة أن يجدوا فى جيش مصرى وكهنة مصريين ما يحد من التطلع السياسى إلى الجيش اليونانى والسكان اليونانيين، ولكنهم لم يذهبوا قط إلى حد الاندماج فى المصريين والظهور حقا بمظهر ملوك مصر خلفاء الفراعنة(٢) . وعلى هذا فقد كانت أسمى الوظائف الرئيسية فى إدارة البطالمة موصدة الأبواب فى وجوه المصريين، إلا إذا تشبهوا تماماً باليونانيين (أى إذا تأغرقوا) واندمجوا فى عداد اليونانيين المقيمين].

وهناك بردية هامة ذكرها روستفت زف ص ٣٥٩ من رسالة أحد المصريين المتأغرقين لبعض الأخوة اليونانيين يقول فيها متودداً : [ربما

(١) روستفت زف، ص ٣٥٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٩.

نظرتم إلى يا أخوتى على أننى همجى أو مصرى ليس من بنى البشر] وكما قال عمر بن عبد العزيز : [رغبتك فى زاهد فيك ذل نفس، وزهدك فى راغب فيك قلة حظ].

هذه هى الحالة فى مصر عامة وفى الإسكندرية بخاصة، حيث لم يكن يسمح للمصرى إلا أن يكون تابعا ومن خلال ممارسته الأعمال الصناعية فقط[1]. فقد كانت الأعمال الصناعية بالنسبة لليونانى مذلة وتعتبر من الأعمال الدنيئة[2].

ومن خلال وصف مصادرنا للمذبحة، يمكن ملاحظة أن التمرد قام به بعض المواطنين الأغنياء[3] ولا وجود للفقراء فى هذا التمرد.

ويمكن ملاحظة أن كرك اللا (كرك الله) طلب فقط شباب الإسكندرية من الأسر النبيلة ومعظمهم من الإغريق والرومان للانخراط فى الكتيبة (الفخ)، وطلب آباءهم للاحتفال بهم، ولم يطلب شباباً من الطبقة الوسطى والفقراء ومعظمهم من المصريين. كل هذه الأمور تفسر لنا أن الحادثة كانت مدبرة للانتقام من أفراد الطبقات الأرستقراطية والمتأغرقين[4] الذين افتروا

(١) جود فرى توروتون ، ص ١٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٣.

(٣) جود فرى توروتون ، ص ١٦٤.

(٤) فى إحدى البرديات، كتاب (لأحد المصريين المتأغرقين) يذكر فيها : [ربما نظرتم إلى يا أخوتى على أننى همجى أو مصرى ليس من بنى البشر] . لقد كانت هذه الكتابة فى وقت متأخر فى القرن الثالث الميلادى، ونظن بفترة إسكندر سفير (٢٢٢-٢٣٥) أو بعده. المرجع : روستفت زف، ص ٣٥٩، ولا ننسى أن عملية الأغرقة عادت على يد آخر أباطرة السافرة اسكندر سفير.

على أنفسهم نتيجة الأنانية والشعور بالتفوق الطبقى فى بلد مارسوا فيه السيادة على أبناء البلد الأصليين الذين ساءهم أن يساويهم القانون بهم.

وعلى هذا فإن ما أشيع من أن كرك اللا (كرك الله) قام بهذه المذبحة لأنه كان يكره الشعب المصرى غير مقبول فى مناقشتنا لمجريات الحوادث، إلا إذا اعتبرنا الإغريق والرومان والمتأغرقين والمترومنين فقط هم الشعب المصرى. بل يمكن أن يقال العكس، إذ أن كرك اللا (كرك الله) كان صديقا ومحباً للشعب المصرى بدليل ما تذكر مصادرنا من أن حارس كرك اللا (كرك الله) الشخصى بعد المذبحة كان مصريا[1] اسمه سرأبيون، والذى بقى سنتين حارساً له حتى اغتيال الإمبراطور، وقد نبه المصرى سرأبيون كرك اللا (كرك الله) عن مؤامرة سمعها لاغتياله.

خلاصة القول فى تبرئة كرك اللا (كرك الله) من دم المصريين الأصلاء المستضعفين :

١- مقولة روستفت زف فى أن القانون الرومانى زمن السبطيين السافرة قد بلغ أنبل مظاهره.

٢- وصف أندرية بيجانيول الأسرة السبطية بأنها الإمبراطورية العادلة للسلالة السيفيرية (أى السافرة){L'Empire Egalitaire De La Dynastie Des Severes} بمعنى أن قانون كرك اللا (كرك الله) كان آخر تطور قانونى لجعل سكان الإمبراطورية سواسية فى الحقوق والواجبات ولأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية. وبذلك أصبح المصرى الريفى والمدنى حراً مساوياً للإغريق والرومان والمتأغرقين والمترومنين.

٣- أن حارس كرك اللا (كرك الله) الشخصى بعد المذبحة كان سرأبيون المصرى.

٤- إن إقامة السور الذى قسم الإسكندرية إلى قسمين يفسر لنا أمرين :

أ- أن فى كل جانب من السور فئة اجتماعية معينة، ومن المؤكد أن نصف الإسكندرية كان للمصريين أبناء الأرض. والنصف الثانى للمتاغرقين الذى نال أبناءهم نتائج المذبحة.

ب- من المرجح أيضا أن كرك اللا (كرك الله) أقام السور خوفاً على البقية الباقية المتأغرقة من غضب الشعب المصرى الأصيل.

ونتيجة لذلك، فإننا لا نبرئ كرك اللا (كرك الله) من مذبحة الإسكندرية، لكننا نبرئه من دم المصريين الأصلاء أصحاب الأرض المستضعفين، داحضين ما جاء به أكثر المؤرخين الذين اعتمدوا على ديوكاسيوس الحاقد على هذه الأسرة.

ومن نتائج توالى قانون كرك اللا (كرك الله) المتواترة حتى اليوم، أن كافة الشعوب غير الرومانية سميت بالروم بعد القانون، فالعربى الإرامى، والكنعانى رومى، والنبطى رومى، واليونانى رومى، والألمانى رومى. وهى مدلول لتعنى الحرية (التى أتى بها كرك اللا). وهكذا، امتد ذلك إلى المذاهب المسيحية أيضا. فنرى روم كاثوليك، روم أرثوذكس. حتى المسيحى اليونانى سمى روم أرثوذكس وروم كاثوليك[١]، [ذكرت لى الباحثة اليونانية Dr. Lil-

(١) J. Babelon, P. 197.

ian Karali المشتركة بالمؤتمر أن اليونان الكاثوليك فقط يسمون روم كاثوليك أما الأرثوذكس فيسمون اغريق أرثوذكس، وبعد مناقشتها مع زملاءها طلبت منى التريث فى إعلان رأيها لبحث ذلك ومراسلتى. إلا أنها اكدت بان فترة الحكم الرومانى اعتبرت اليونان روما. علما أن شارلمان (الجير مانى) سمى دولته بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما أن مقدم كتاب جيبن (اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية) يعرف الروم كما عرفناه بهذا البحث].

وأخيرا:

لقد وقع بأيدينا بعد إكمال دراستنا هذه حديث عن سعيد بن المسيب، جاء فى اللسان لابن منظور بمادة سفر : السافرة أمة من الروم(١) .

وجاء فى الحديث عن سعيد بن المسيب : «لولا أصوات السافرة لسمعتم وجبة الشمس».

وقال : «والسافرة أمة من الروم». كذا جاء متصلا بالحديث.

ووجبة الشمس : وقوعها إذا غربت. وأصل الوجوب السقوط. وجب الميت إذا سقط ومات. ويقال للقتيل واجب. والوجبة السقطة مع الهدّة. ووجب وجبة أى سقط إلى الأرض. والوجبة صوت السقوط(٢) .

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة سفر.

(٢) ابن منظور، لسان العرب مادة وجب.

والحديث يدل على أنه لولا عدالة السافرة لوقعت الشمس عند غروبها من كثرة الظلم (وهذه كناية).

نعود لنقول :

لولا عدالة السافرة، وهم أمة من الروم.

لوجبت الشمس عند مغربها، من كثرة الظلم..

المصادر والمراجع العربية العدنانية

١- د. إسماعيل فاروق، لغة نقوش الممالك الآرامية، دراسة مقارنة، رسالة ماجستير، حلب، ١٩٨٤.

٢- ر.هـ. بارو، الرومان، ترجمة عبد الرزاق يسرى وشهيرة القلماوى، مجموعة الألف كتاب، دار نهضة مصر، ١٩٦٨.

٣- تسيركين كوفيتش، الحضارة الفينيقية فى إسبانيا.

٤- تورتون جود فرى، أميرات سوريات حكمن روما، نقلها للعربية خالد أسعد عيسى وغسان أحمد سبانو، دار الريم للنشر والتوزيع، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٧.

٥- جونز. هـ، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس، عمان، ١٩٨٧.

٦- جيبن. أ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد على أبو دره وهاشم أحمد نجيب، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٧- ددلى دونالد، حضارة روما، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٧.

٨- روسى بيير ، مدينة إيزيس، التاريخ الحقيقى للعرب، ترجمة فريد جحا، وزارة التعليم العالى، دمشق، ١٩٨٠.

٩- زهدى بشير، فيليب العربى، ودورة فى الإمبراطورية الرومانية وسورية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٠.

١٠- طوير قاسم، أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام، تأليف مجموعة من علماء التاريخ والآثار، تعريب قاسم طوير، طبعة أولى، دمشق، ١٩٨٩.

١١- العابد مفيد رائف، دراسات فى الآثار الكلاسيكية، دمشق، ١٩٧٦.

١٢- العبادى مصطفى، العصر الهلنستى، مصر دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.

١٣- العبادى مصطفى، الإمبراطورية الرومانية، بيروت، ١٩٨١.

١٤- قاموس لسان العرب لإبن منظور.

١٥- محفل محمد ، الزين محمد ، دراسات فى تاريخ الرومان، دمشق، ١٩٨٥.

١٦- محفل محمد ، تاريخ الرومان، دمشق، ١٩٧٤.

١٧- سفر ومصطفى على، الحضر مدينة الشمس، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامة، بغداد، ١٩٧٤.

١٨- يازجى عيسى، مآثر سوريا فى العصر الروماني، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩١.

المصادر والمراجع الأجنبية

1- Babelon Jean, Imperatrices Syriennes, Edition Albin, Michel, Paris, 1957.

2- Corpus - Inscriptionum Semiticarum Paris, Secunda - Tomus, 111-1926.

3- The Oxford Classical Dictionary, Oxford, 1979.

4- Latin Dictionary, Latin/ English E.L., London, 1987.

5- Greek English-Lexicon, Oxford, 1986.

6- L.Costaz. S.J., Dictionnaire Syriaquc- Francis, Syriac-English Dictionary, قاموس سرياني - عربي ، بيروت

7- Hebrew and English Lexicon Dictionary.

8- Gibbon. E., The Deccline and Fall of the Roman Empire, New York,

9- Piganiol Andre, L'Histoire de Rome, Paris, 1954.

10- Rostovtzeff. M., The Social and Economic History of the Roman Empire, Oxford, Second Edition, 1957.

11- Suitonius 6, The Twelve Caeser , Translated by R. Graves, Penquin Book 6, Edition 1986.

ملحق (١)

شاهدة قبر فى جزر البليار (١٢٥ ق.م.)

ل ا د ن ل ا د س ك م ل ق ر ت م ك ن د

لادن لادسك ملقارت مكن د

حاط ندب اطار بر نعو (نعة)

رن برجد بنت طالب نحال

القراءة : لإذن لأدسك ملقارت (تلك القرية)

مكن دَ، حاط، ندب، أطار ، بر النَعْوَه.

رن (أى قبر) برجد بنت طالب نحان.

ملحق (٢)

الأمثلة الكنعانية :

شاهدة قبر كنعاني في جزر البليار : ١٢٥ ق.م.

غرب إيطاليا وشرق إسبانيا .

فعل ، وندر ، وحصد زنو ء شده ينعم

ويسعد جوارك ، منك تعزج (نعجز) رعاك

ويهواكن لدركي صن ، لك بنت و أبدت

والحد نجعل ، وينج ، وجوب تم

اللفظ : فعل وندر وحصد زيناً، شدةٌ ينعم، ويسعد جوارك

(أيها الإله) منك تعزج (نعجز) رعاك، ويهواكن.

لدركي (لطريقي) صن، لك بنتَ وأبدت.

والحد نجعل، وينج، وجوب تم.

ملحق (٣)

نقش البرازيل : ١٢٥ ق.م. (كنعانى)

هـ ع ن ا ب ن ي ك ن ع ن ه

هـــ حـــنـــا بـــنـــى كـــنـــعـــن

نقش بيض هلك

ق ر ذ ب ن ي ك ن ع

قـــر ذا بـــنـــى كـــنـــع

السطر الأول : ها نحن بنى كنعان

السطر الثانى : قلعة (قر) من المقر) الحصن ذا بنى كنع (كنعان)

لاحظ : أن الكنعانيين سموا انفسهم بنى كنعان، وليس فينيقى وهنا جزء من نقشين مختلفين.

ملحق (٤)

الأمثلة الآرامية

نص التعرفة الجمركية التدمرية

من الرسوم المفروضة على بضائع اليهود :

ا ف   ي ع ب ا   م ك س ا   م ن   ر ن ي ه ا

أوف   يجبى   مكسا   من   رانيحتا

م ن   م ن   ه ي   ه ذ ل ا

من   من   هى   هذا ..

ي ث ي ر   (أو)   ي ث ي ر   ش غ ل ا

يثير   (أو)   يثير   شغلا

ح د   م ن   ا ت ي ت ا

حد   من   أتيتا

أوف بمعنى أيضاً وهى باقية فى التراث الغنائى العربى حق اليوم

مكسا : بمعنى المكس (الرسم) والألف بآخر الكلمة هى أداة التعريف العربية الآرامية.

يثير: يزيد وهى من التعناو، جاء فى القرآن الكريم أو يتركم أعمالكم بمعنى ينقصكم

شغلا : بمعنى شغلها   حد : بمعنى واحد   أتيتا : بمعنى الأتية هذا العمل.

الزواج السياسى فى مصر الهللينسيتية
من عصر الإسكندر الأكبر حتى نهاية دولة البطالمة*

دكتــور

هابيل فهمى عبد الملك

* صدرت هذه المقالة فى مجلة كلية الاداب جامعة الإسكندرية العدد 50 عام 2000

لعب الزواج السياسى دورا هاما فى تحريك الأحداث على المسرح السياسى فى العصر الهللينستى بصفة عامة، وفى مصر بصفة خاصة وانعكس ذلك على الحياة السياسية فى مصر منذ عام ٣٣٢ ق.م. وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام ٣٠ ق.م.(١).

فبعد بزوغ نجم الإسكندر وتوحيده المدن الإغريقية تحت زعامة مقدونيا، قاد حملته نحو الشرق لإخضاع الإمبراطورية الفارسية تحت زعامته، بعدها واصل فتوحاته إلى مصر (٣٣٢)، ثم شرقا حتى وصل إلى الهند (٣٢٧-٣٢٤).

كان هدف الإسكندر من وراء ذلك إيجاد إمبراطورية موحدة تضم الشرق والغرب فى إطار هللينى، يتمتع فيه الجميع بالمساواة والانسجام الفكرى والعاطفى وهو ما أسماه بالوئام لأن الناس جميعاً فى نظره أبناء لأب واحد مهما اختلفت عناصرهم وقومياتهم.

ولتحقيق هذا الهدف النبيل اتخذ الإسكندر الزواج السياسى طريقاً وأسلوباً لتأكيد فكرة الوحدة والانسجام، وليكون قدوة لغيره من القواد يحتذوا به لإيجاد نوع من التطبيع يحقق آماله المنشودة إلى جانب أساليب ووسائل أخرى كتجنيد الفرسان الأسيويين فى صفوف كتائب الفرسان المقدونيين وقبول بعض الشباب من نبلاء الفرس فى قوات الحرس الملكى إلى

جانب ارتدائه الزى الفارسى وممارسة العادات الفارسية.

أثارت الأساليب التى اتخذها الإسكندر لتحقيق أهدافه ردود فعل غاضبة من جانب الكثير من القادة والجنود المقدونيين لشعورهم بأن قائدهم بدأ يتخلى عن جنسيته المقدونية ولولا تدخل القدر الذى عجل بموت الإسكندر وموت أهدافه النبيلة لربما وقعت أحداث أدت إلى انقسام صفوف الجيش المقدونى لأن فكرة الوحدة والوئام لا تعنيهم بقدر ما يعنيهم تحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم الشخصية ودليلنا على ذلك أنه بعد مؤتمر بابل (يونيو ٣٢٣) نجد أن خلفاء الإسكندر وبخاصة البطالمة فى مصر يتخذون الزواج السياسى طريقاً ليس لتحقيق المساواة والوحدة والوئام كما كان يذهب الإسكندر بل طريقا لتحقيق مآربهم السياسية وأطماعهم الشخصية. وهذا ما يوضحه هذا البحث.

وضع الإسكندر اللبنة الأولى فى صرح الزواج السياسى فى العصر الهللينستى، ليكون قدوة لغيره من القادة المقدونيين، فتراه فى عام ٣٢٧ يتزوج من الفارسية «روكسانه» Roxane إبة «أوكسيارتيس» Oxyartes أحد أمراء «باكتيرياBactria»(١). الذين قاوموا الإسكندر عند غزوه لهم وانجب منها ابنه «الإسكندر الرابع» بعد وفاته.

وفى عام ٣٢٤ يتزوج الإسكندر من فارسية أخرى تدعى «ستاتيرا إبنه الملك (دارا) وبهذه المناسبة أقام حفلا كبيراً فى العاصمة الفارسية (سوسا - Sosa) دعا إليه ضباطه لحضور الاحتفال وحثهم على الزواج من فارسيات من الطبقة الارستقراطية لإيجاد نوع من التطبيع يحقق أماله

المنشودة وقدم لهم هدايا مناسبة، وكان عددهم يبلغ عشرة آلاف وفقا لرواية أريانوس (٣) وتسعة آلاف وفقا لرواية بلوتارخوس(٤).

وقد أثار زواجه الثاني غيرة «روكسانه» مع أن «ستاتيرا» لم تنجب منه وقتلتها عقب وفاة الإسكندر(٥) وكذلك أثار زواجه من شرقيات ردود فعل غاضبة من جانب الجنود المقدونيين خصوصا بعد تجنيد الإسكندر للفرسان الأسيويين فى صفوف كتائب الفرسان المقدونيين، ودخول بعض الشبان من الفرس فى قوات الحرس الملكى إلى جانب ارتداء الإسكندر الزى الفارسى وتقليده العادات الفارسية مما جعلهم يشعرون بأن مليكهم لم يعد لهم وحدهم بل صار ملكا شرقيا أسيويا(٥).

لذلك نرى أنه عقب وفاته أنكر الكثيرون من خلفائه المجتمعين فى بابل فى يونيو ٣٢٣ جنين روكسانه الذى مازالت حاملاً فيه فى شهرها السادس باعتبارها شرقية ولا يحق للمولود منها التربع على عرش الامبراطورية المقدونية (٦).

ويبدو أن البعض أذعن لرغبة الإسكندر ليس اقتناعاً بوجهة نظره وإنما إرضاء له مثل بطلميوس بن لاجوس أحد قادة الإسكندر المقربين إليه فقد تزوج من «أرتاكاما» Artacama ابنة الوالى الفارسى «أرتابازوس»Artabazus عام ٣٢٤.

وعندما حط بطلميوس رحاله فى مصر بعد مؤتمر بابل أطلق سراح زوجته الفارسية وتزوج بأخرى مصرية من السلالة الملكية ليعطى لنفسه الحق فى إرث عرش مصر لأنه كان يدرك ببصيرته السياسية أن بقاء

الإمبراطورية المقدونية موحدة أمرا لن يستمر طويلاً، ولذلك تزوج سيدة من سلالة «نختانبو» ليصبغ حكمه بصبغة شرعية فى نظر المصريين ويشير أثينايوس Athenaus أن بطلميوس تزوج من هذه السيدة وانجب منها ابنا واحداً على الأقل يدعى (ليونتسكوس) وإبنة تدعى (إيرينى) تزوجت من ملك (سولى) بجزيرة قبرص(٧).

وحوالى عام ٣٢٢ عقد بطلميوس بن لاجوس مصاهرة سياسية مع القائد (أنتيبا تروس) Antipatros المشرف على بلاد الإغريق إذ تزوج من ابنته (يوروديكى) Eurydike وكان السبب وراء ذلك الزواج الأحداث التالية:

بعد أن فتح (برديكاس) Perdiccas آسيا الصغرى حيث أخضع أرمينيا وبسيديا وكبادوكيا(٨) صار مركزه قوياً حتى أنه أقام نفسه وصيا على الملكين فيليب أرهيدايوس - الأخ غير الشقيق للإسكندر والذى أنجبه فيليب من إحدى محظياته - والإسكندر (الرابع) الذى أنجبه الإسكندر الأكبر من روكسانه.

أثار وضع برديكاس هذا قلق (أنتيباتروس) مما حدا ببرديكاس إلى تهدئة ثائره أنتيباتروس بالزواج من ابنته (نيكايا) Nicaea عام ٣٢٢، لكن (أولمبياس) Olumpias والدة الإسكندر والخصم اللدود لأنتيباتروس صممت على إفشال هذا الزواج فعرضت على برديكاس الزواج من ابنتها (كليوباترة) ونجحت فى ذلك حيث طلق برديكاس (نيكايا) مما أثار غضب (أنتياتروس) عليه لأنه ظن أن برديكاس يطمع فى عرش بلاد الإغريق(٩).

ماذا كان رد فعل أنتيباتروس على تصرفات برديكاس؟

عـقـد أنـتـيـبـاتروس تحـالفـا مع أعـداء برديكاس وهـم أنتـيـجـونوس Antigonos وكـراتوروس Cratorus وطلب إلى بطليـمـوس بن لاجـوس الانضـمـام إليـهم [١٠] ولتـدعـيم هذا التـحـالف زوج أنتـيـبـاتروس ابنتـه (فيلا) Phila لكراتوروس، وابنته (يوروديكى) لبطليموس وابنته (نيكايا) التى تزوجها برديكاس من قبل - للوسيماخوس مقابل وقوفه على الحياد.

كان السبب وراء انضمام بطليموس لهذا التحالف وقبول الزواج من يوروديكى إبنة أنتيباتروس هو التطلع إلى عرش مصر ليستقل بها مستغلا الانحلال داخل الإمبراطورية، والصراعات والانقسامات التى تدب بين أفراد الأسرة المالكة، ولذلك بمجرد مقتل برديكاس عام ٣٢٢/٣٢١، اجتمع القادة فى (تريباراديسوس) Treparadesus على نهر العاصى بسوريا عام ٣٢١ لإعادة تقسيم ولايات الإمبراطور فاختير أنتيباتروس وصيا عاما على الإمبراطورية epimeletes autocrator، والاعتراف بمركز بطليموس بن لاجوس فى مصر وتعيين ولاة جدد مكان أصدقاء برديكاس وتعيين سلوقس واليا على بابل، واحتفاظ أنتيجونوس بولاية آسيا مع تعينه قائدا عاماً للجيش الملكى فى آسيا[١١]، ولكى يدعم أنتيباتروس صلته بأنتيجونوس زوج ابنته (فيلا) Phila أرملة كـراتوروس إلى (ديمتـريوس)Demetrius بـن أنتيجونوس[١٢].

وحوالى عام ٣١٦ تزوج بطليموس والى مصر للمرة الثالثة ليس بدافع سياسى وإنما بدافع الحب من سيدة مقدونية أتت إلى مصر فى حاشية

(يوروديكى) تدعى (برنيكى) Berenike وأنجبت له طفلين هما : (أرسينوى) Arsinoe وبطليموس Ptolemy - الذى أصبح فيما بعد بطليموس الثانى فيلادلفوس(١٣) ولا نعرف هل طلق بطليموس يوروديكى قبل زواجه من برنيكى أم لا؟ فالمصادر القديمة لم تدل بدلوها فى هذا الشأن.

وفى عام ٣٠٨ فكر بطليموس فى الزواج من كليوباترة الأولى شقيقة الإسكندر ليقوى مركز مصر بعد فتور العلاقات مع (كاسندروس) ابن أنتيباتروس لكن هذه الصفقة السياسية لم تتم لأن أنتيجونوس دبر قتل كليوباترة (١٤).

يعتبر عام ٣٠١ بداية عهد جديد فقد انحلت إمبراطورية الإسكندر، وأصبح يقتسم عالم بحر إيجه خمس شخصيات عظيمة هى :

١- كاسندروس : فى مقدونيا وبعض بلاد الإغريق.

٢- لوسيماخوس : فى تراقيا وآسيا الصغرى.

٣- سلوقس : فى بابل وسوريا وآسيا الصغرى.

٤- بطليموس : فى مصر وجوف سوريا وقورينائية.

٥- ديمتريوس بن أنتيجونوس : عصبة كورنثة وعصبة جزر الكيكلاديس وقبرص وبعض المدن الإغريقية فى بلاد الإغريق وآسيا الصغرى وفينيقيا(١٥).

ورغم هذا التقسيم إلا أن الأطماع الشخصية سيطرت على كل منهم

فسلوقس يطمع فى جوف سوريا التى صارت مطمعا ليس لسلوقس فقط بل وبقية الحلفاء، وإزاء ذلك بحث كل منهم عن حلفاء له ولا سبيل لذلك إلا عن طريق المصاهرات السياسية فبطليموس يتقرب إلى كاسندروس وينجح فى تزويج ابنته (لوساندرا) Lysandra من يوروديكى - إلى الإسكندر ابن كاسندروس، كما يتقرب من لوسيما خوس ويزوجه ابنته الثانية (أرسينوى) - من برنيكى - رغم صغر سنها، ويرد سلوقس على بطليموس بنفس الطريقة فرغم العداء القديم بينه وبين ديمتروس بن أنتيجونوس إلا أنه يخطب ابنته (ستراتونيكى) Stratonice عام ٣٠٠[١٦]، وانتهز ديمتريوس هذه الخطوة ليضع يده فى يد سلوقس لأنه كان يتطلع لتأسيس دولة أسيوية[١٧].

وفى سنى حكم بطليموس الأول الأخيرة عانى كثيراً من تبعات زواجه من يوروديكى وبرنيكى، وصار السؤال الذى يقلق مضجعه هو : هل يخلفه ابنه الأكبر بطليموس الصاعقة من يوروديكى أم ابنه المحبب لديه بطليموس (فيلادلفوس) من برنيكى؟ ولكنه فضل أن يشرك معه ابنه المحبب بطليموس عام ٢٨٥، ونتيجة لذلك التجأ بطليموس الصاعقة إلي لوسيماخوس ثم إلى سلوقس لمعاونته فى الوصول إلى عرش مصر أو الفوز ببعض ممتلكاتها الخارجية.

وبعد أن انفرد فيلادلفوس بعرش مصر تزوج من ابنة لوسيماخوس أرسينوى الأولى (وهى ابنة أخته فى نفس الوقت)، وكان هدف فيلادلفوس من وراء هذا الزواج طرد أخيه بطليموس الصاعقة من بلاد لوسيماخوس،

بعد ذلك خدمت الظروف فيلادلفوس فقد انهارات إمبراطورية لوسيماخوس وقد لعبت زوجته أرسينوى الثانية دورا هاما فى انهيارها بهدف احتكار السلطة لنفسها لذلك أوغرت صدر زوجها ضد ابنه الأكبر (أجاثوكليس) من نيكايا ابنة أنتيباتروس - الذى اتهمته بتدبير مؤامرة لاغتيال أبيه انتهت بإعدامه[١٨] وفرار زوجته لوساندرا إلى سلوقس وفرار الصاعقة إلى سلوقس أيضا[١٩].

بعد مقتل لوسيماخوس عام ٢٨١[٢٠] نجح بطليموس الصاعقة فى قتل سلوقس ونودى به ملكاً على مقدونيا[٢١] فلم تضيع أرسينوى الثانية أرملة لوسيماخوس الفرصة فتزوجت من أخيها الصاعقة لتضمن لنفسها ولأولادها، من لوسيماخوس عرش مقدونيا لكن الصاعقة انتقم منها بقتل اثنين من أولادها، أما ابنها الثالث بطليموس فنجا من الموت لعدم وجوده أثناء المأساة ففرت أرسينوى وابنها بطليموس إلى أفيسوس أواخر عام ٢٨٠[٢٢].

والملاحظ أن ملك مصر بطليموس فيلادلفوس لم يحرك ساكنا ضد أخيه غير الشقيق بطليموس الصاعقة تجاه تصرفاته مع ارسنيوى الثانية - أخت فيلادلفوس أيضا - ولعل السبب وراء ذلك أن مصر كانت فى ذلك الوقت فى حرب مع أنطيوخوس[٢٣].

وإذا كان ملك مصر لم يحرك ساكنا، فقد تحركت أرسينوى الداهية من جانبها حيث نجحت فى عام ٢٧٦ من الزواج من أخيها فيلادلفوس بعد أن أبعدت ابنتها - أرسنيوى الأولى وزوجة فيلادلفوس - إلى قفط بتهمة

التآمر ضد الملك(٢٤).

إن الأطماع السياسية تعمى بصيرة الإنسان وتجعله ميكيافيللى النزعة ضاربا بالقيم والأخلاق والتقاليد عرض الحائط، فلا يخجل من استخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة فى سبيل الفوز بالسلطان وهذا ما لمسناه وسوف نلمسه خلال بحثنا هذا.

وقد لعب التملق من جانب الشعراء دوره فى إنجاح هذا الزواج فشاعر البلاط ثيوكريتوس Theocritos مجد هذا الزواج(٢٥) وهذا يدل على أن الملك البطلمى كان يهيئ الجو العام لقبول مثل هذا الزواج لدى الإغريق الذين كانوا يعتبرون أن زواج الأخ من أخته يعتبر فسقا لذلك نرى بطليموس فيلادلفوس يقف بحزم ضد شاعر الهجاء (سوتاديس) Sotades الذى ندد بهذا الزواج فكان جزاؤه الموت وفقا لرواية أثينايوس(٢٦).

يحدثنا باوسانياس بأن أرسينوى الثانية توفيت دون أن تنجب أبناء من فيلادلفوس وإنها تبنت أولاد فيلادلفوس من زوجته الأولى (أرسنيوى الأولى وهى ابنة ارسنيوى الثانية فى نفس الوقت) حيث كان أكبرهم سنا بطليموس الثالث الذى زوجه أبوه من (برنيكى) ابنة (ماجاس) الأخ غير الشقيق لفيلادلفوس وحاكم قورينائية وكان هذا الزواج سببا فى إنهاء الخصومة بين الأخوين والتى استمرت مدة خمسة عشر عاماً وبهذا الزواج ضمن ماجاس لابنته ليس عرش قورينائية فحسب بل وعرش مصر أيضاً(٢٧).

أثناء الحرب السورية الثانية بين فيلادلفوس وأنطيوخوس الثانى نجح

(جوناتاس) بن ديمتريوس فى القضاء على سيطرة البطالمة البحرية عام ٢٥٨ أو ٢٥٦ [٢٨]. وقد ساعده على ذلك تحالفة مع انطيوخوس الثانى وذلك بزواجه من (إستراتونيكى) شقيقة أنطيوخوس[٢٩].

وانتقاماً من جوناتاس سعى فيلادلفوس لضرب التحالف القائم بين جوناتاس وانطيوخوس الثانى حتى لا يحرض جوناتاس انطيوخوس على محاربة فيلادلفوس لاستعادة جوف سوريا، وليتفرغ بعد ذلك لجوناتاس نفسه، ورأى فيلادلفوس أن السبيل إلى ذلك التقرب لأنطيوخوس وكسب وده عن طريق المصاهرة ونجح فى ذلك فى أواخر عام ٢٥٣ مستغلا سوء العلاقة بين انطيوخوس وزوجته (لاوديكى) Loadice (ابنة عمه) بسبب تسلطها وقوتها [٣٠]. فحرضه على سراحها والزواج من ابنته (برنيكى) من زوجته أرسنيوى الأولى – ومنحه صداقا كبيراً بشرط أن يكون عرش انطيوخوس لأبنائه من زوجته الجديدة[٣١].

وفعلاً أبعد انطيوخوس لاوديكى وأبناءها إلى أفيسوس، وفى أبريل عام ٢٥٢ رافق فيلادلفوس ابنته حتى (بلوزيون)، ثم رافقها أبوللونيوس وزير ماليته حتى صيدا[٣٢].

ومن الظريف أن (برنيكى) حملت ضمن متاعها ماء النيل وذلك للاعتقاد أن مياه النيل تضمن الحمل[٣٣]. لذلك كان أبوها فيلادلفوس يتابع إرسال مياه النيل إليها كما يشير بولبيوس نقلاً عن أثينايوس[٣٤].

بعد وفاة بطليموس الثانى فيلادلفوس تولى عرش مصر ابنة بطليموس الثالث يورجتيس فى ٢٧ من يناير سنة ٢٤٦ ق.م.[٣٥]. وقد أسلفنا أنه تزوج

من (برنيكى) ابنة عمه ماجاس عندما كان وليا للعهد. ومع بداية حكمه انشغل بتبعات النزاع بين أخته برنيكى زوجة أنطيوخوس ولاوديكى زوجة أنطيوخوس الأولى ذلك النزاع الذى أدى إلى نشوب الحرب السورية الثالثة والمعروفة بحرب لاوديكى(٣٦) وقد ناشدت برنيكى بطليموس الثالث فى دخول سلوقية وأنطاكية. وانتهى الصراع بين لاوديكى وبرنيكى بخطف الأخيرة وابنها وإعدامهما عام ٢٤٥ تقريبا.

لم يلعب الزواج السياسى دورا واضحا فى حياة هذا الملك مثلما لاحظنا فى عهد أبيه فيلادلفوس رغم سياسته الخارجية الواسعة التى أدت إلى السيطرة على الطرق البحرية المؤدية إلى مصر وبلوغ دولة البطالمة فى عهده أوج مجدها.

الزواج السياسى فى عهد البطالمة الأواخر:

وفى عام ٢٢١ آل عرش مصر إلي بطليموس الرابع (فيلوباتور) وكان يبلغ من العمر الثانية والعشرين، وهذا الشاب العابث الماجن كان سببا فى انحدار الأحوال فى مصر حتى بلغت من الضعف والمهانة حدا لم تستطع النهوض منه لتتبوأ مكانتها التى كانت عليها فى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل.

فى العام السادس من حكمه تزوج بأخته أرسينوى الثالثة وعرفا معا باسم «الإلهين فيلو باتروس» أى المحبين لأبيهما(٣٧).

وقد أنجبت أرسنيوى ولى العهد فى ٩ أكتوبر (٣٠ مسرى) عام ٢٠٩ وقد أشركه أبوه معه فى الملك وهو ما يزال فى المهد (قبل ٦ يونيو عام ٢٠٨)

ورغم ما عرف من شجاعة أرسينوى والتى وضحت خلال معركة رفح إلا أنها لم تستطع حماية زوجها من بطانة السوء المحيطة به وعلى رأسها (أجاثوكليس) Agathocles وحظيته (أجاثوكليا)Agathoclea وأمها (أوينانثى) Oenanthe فاعتكفت عن الحياة ووجدت سلوتها فى مخالطة العلماء(٣٨). وبعد وفاة زوجها قتلها (فيلامون) Philamon الذى كافأة أجاثوكليس بتعينه حاكما علي ليبيا.

بعد وفاة بطليموس الرابع وزوجته أرسينوى الثالثة تركا طفلا صغيرا فى السادسة من عمره دون وصاية عليه من أحد لكن فى ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٣ دعا أجاثوكليس وسوسيبيوس رجال الحرس الملكى وأفراد الحاشية وضباط المشاة والفرسان وأعلنا نبأ وفاة الملك والملكة وناديا بالطفل الصغير ملكا وتوليا الوصاية عليه، ويبدو أن سوسيبيوس توفى بعد ذلك بقليل فانفرد أجاثوكليس بالوصاية وسارع إلى كسب ود الجنود بإعطائهم مرتب شهرين واستحلفهم يمين الولاء(٣٩) ولكى يقوى مركزه فى مصر بدأ يفكر فى عقد معاهدة تحالف مع مقدونيا أساسها الزواج السياسى وبيان ذلك أنه عهد إلى بطليموس بن سوسيبيوس بأن يعقد مع فيليب الخامس معاهدة تتضمن زواج ابنته من بطليموس الخامس والحصول على مساعدة فيليب ضد انطيوخوس(٤٠) لكن هذه المعاهدة لم يكتب لها النجاح لقيام تحالف بين أنطيوخوس وفيليب عام ٢٠٣/ ٢٠٢ لتقسيم ممتلكات مصر.

ونتيجة لتدخل روما فى شئون مصر حدث تقارب سريع بين أنطيوخوس وأرستومينيس الوصى على عرش مصر لإنقاذ مصر من براثن

روما وأساس هذا التقارب زواج إبنة أنطيوخوس (كليوباترة) من بطليموس الخامس (أبيفانيس).

وفى أثناء عام ١٩٤/١٩٣ احتفل بزواج بطليموس الخامس من كليوباترة الأولى فى رفح[٤١] وكانت هدية عرس كليوباترة لزوجها «جوف سوريا»[٤٢].

ويقول (ديودوروس) أن مصر خيبت آمال أنطيوخوس بانحيازها إلى روما بعد أن تولى (پولوكرايتس) بدلا من (أريستومينيس)[٤٣] وانتهت الأمور بهزيمة روما لانطيوخوس فى موقعة ماجنيسيا Magnesia عام ١٨٩ وانتهت بذلك الدولة السلوقية فى حين أن روما اكتسبت احترام الإغريق فى آسيا الصغرى وبسطت نفوذها على المنطقة بأكملها فيما بعد[٤٤].

وبعد معاهدة (أباميا) Apamea عام ١٨٨ أصبحت روما صاحبة النفوذ والكلمة العليا فى شرق البحر المتوسط ولم تعد المصاهرات السياسية ذات تأثير كبير فى رسم السياسة الداخلية والخارجية كما كان الأمر لأن روما كانت تترقب العلاقات وتتدخل فى الوقت المناسب إذا رأت أن هذه العلاقات تشكل خطراً عليها.

توفى بطليموس الخامس (أبيفانيس) عام ١٨٠ وترك ولدين وبنتا كان أكبرهم بطليموس السادس (فيلوميتور) ويبلغ من العمر حوالى السابعة فتولت الوصاية عليه أمه كليوباترة الأولى وبفضلها بقيت العلاقات بين مصر والدولة السلوقية خلال مدة وصايتها. وبعد أن بلغ فيلوميتور (١٤ سنة) تزوج من أخته (كليوباترة الثانية) وخلال حكمه تعرضت مصر لغزو أنطيوخوس

مرتين (عام ١٧٢، ١٦٨) ولكن روما أرغمته على الانسحاب للحفاظ على سياسة توازن القوى فى شرق البحر المتوسط .

بعد ذلك نشب صراع بين فيلوميتور وأخيه الأصغر بطليموس استغلته روما لتقطيع أوصال دولة البطالمة . ففى عام ١٦٣ عقدت روما اتفاقاً بين الأخوين تقرر بمقتضاه تقسيم المملكة بينهما بحيث تكون مصر وقبرص من نصيب فيلوميتور، وفورينائية من نصيب بطليموس الصغير(٤٥) ولكن بطليموس الصغير ظل يطالب بالحصول على قبرص وساعدته روما فى ذلك(٤٦) لكن فيلوميتور شن حربا على أخيه وهزمه ورغم ذلك كان فيلوميتور كريماً معه إذ سمح له بالعودة إلى قورينائية ووعده بتزويجه من أبنته عام ١٥٤(٤٧) ليقطع خط الرجعة على تدخل روما وفى عام ١٤٩/١٥٠ تزوج بالاس ابن أنطيوخوس - فيما يبدو- من كليوباترة ثيا Thea إبنة فيلوميتور وقد بارك فليوميتور هذا الزواج ليثأر لنفسه من ديمتريوس الابن الأكبر لسلوقس الرابع والذى كان مقيماً فى روما وعاد إلى سوريا بعد وفاة عمه أنطيوخوس الرابع مطالباً بالعرش، وقد أمد فليوميتور (بالاس) زوج ابنته بجيش بطلمى بقيادة (جالايستيس) (Galaestes) ، الذى نجح فى قتل ديمتريوس فى ميدان القتال(٤٨) وبذلك آل إلى Balas عرش الدولة السلوقية.

لكن سرعان ما أثبت (بالاس) أنه لم يكن جديراً بعرش سوريا حيث انصرف إلى العبث والمجون تاركا لوزيرة (أمنيوس) Ammonios حرية التصرف فى شئون الدولة (٤٩).

فى ربيع عام ١٤٧ عاد ديمتريوس بن ديمتريوس الأول والملقب بالثانى مطالباً بعرش أبيه ، فاستغاث (بالاس) ليهب فيلومتيور لنجدته وبالفعل خف فليوميتور إلى سوريا على رأس جيش وأسطول لمساعدة زوج ابنته(٥٠).

استقبلت المدن السورية الملك البطلمى استقبالاً حافلاً مما أفزع كلا من بالاس ووزيره أمنيوس وظنا أنه قادم للاستيلاء على عرش البلاد لذلك دبرا اغتياله ولما اكتشف الأمر عزا الملك ذلك إلى أمنيوس فطلب من بالاس تسليمه، فرفض بالاس ذلك مما دفع فيلوميتور إلى التأكد من اشتراك زوج ابنته فى المؤامرة، فنفض يده من محالفة (بالاس) وانضم إلى جانب ديمتريوس الثانى واعداً إياه بعرش سوريا وبابل ويد أبنته (كليوباترة ثيا) زوجة (بالاس) لقاء النزول لمصر عن جوف سوريا (٥١).

لكن بالاس الذى كان قد هرب إلى كيليكيا جمع جيشاً وزحف إلى سوريا والتقى بقوات فيلوميتور وديمتريوس على ضفاف نهر Oenoparas فى صيف ١٤٥ ورغم هزيمة بالاس إلا أن فيلوميتور أصيب إصابة قاتلة(٥٢).

بموت فيلوميتور صار عرش مصر فى يد أرملته كليوباترة الثانية وولى عهده بطليموس السابع (نيوس فيلوباتور) لكن بطليموس الصغير - أخ فيلوميتور - وملك قورينائية وعميل روما تزوج عام ١٤٤ من أرملة أخيه - وأخته فى نفس الوقت - كليوباترة الثانية ليحقق حلمه القديم فى التربع على عرش مصر وأتفقا على أن يحكما سوريا بالاشتراك مع ابنها (نيوس فيلوباتور).

أصبح بطليموس ملك قورينائية ثامن ملوك البطالمة وعرف باسم «يورجتيس الثانى» ويحدثنا (يوستينوس) أن هذا الملك قتل ابن أخيه (نيوس فيلوباتور) وهو فى أحضان أمه ليلة الزفاف[٥٣]، والغريب أن كليوباترة لم تحرك ساكناً فهل دفعها إلى ذلك الخوف من بطش زوجها ؟ أم رغبتها فى البقاء ملكة بأى ثمن ؟

لقد كان حب السلطة عند النساء المقدونيات الطموحات يغلب على العاطفة الطبيعية فنجد ابنة كليوباترة الثانية المدعوة (كليوباترة ثيا) ملكة سوريا وزوجة بالاس ابن أنطيوخوس الرابع تغلب حب السلطة عندها على كل عاطفة إنسانية إذ دبرت مقتل أحد أبنائها وهو (سلوقس الخامس) لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها، كما حاولت قتل ابنها الآخر عندما وقف فى ضد أطماعها، فإذا عرفنا ما كان من أمر الابنة فإننا لا ندهش لما كان من أمر الأم التى تغلب عندها شهوة الحكم فوق كل اعتبارات إنسانية .

ورغم إنجابهاإبنا من بطليموس الثامن لقب بالممفيس Mem-phites[٥٤]. - حيث أنجبته كليوباترة أثناء تتويج زوجها فرعونا فى منف عام ١٤٤- إلا أن الصراع على السلطة كان محتدماً بينهما وبين زوجها حتى ساءت العلاقة بينهما مما دفع بطليموس الثامن للزواج من ابنتها كليوباترة الثالثة عام ١٤٢ ليحد من أطماعها[٥٥]. ولا نعرف إذ كان قد طلق كليوباترة الثانية أم لا، لكن الوثائق تشير إلى أنها ظلت تحكم معه بلقب « الملكة كليوباترة الأخت » بينما لقبت ابنتها كليوباترة الثالثة « الملكة كليوباترة الزوجة »[٥٦].

وإزاء زواج بطليموس الثامن من كليوباترة الثالثة ، لم تحرك كليوباتره الثانية ساكنا حتى عام ١٣١ ربما حتى تهدأ شوكة بطليموس الثامن وتتجلى الأمور وتكون فى مركز يسمح لها بالوقوف فى وجه زوجها.

فى عام ١٣١ نجحت كليوباتره الثانية فى تحريض الإسكندرانيين عليه ففر بطليموس الثامن وزوجته كليوباترة الثالثة إلى قبرص، وأعتبرت ذلك العام بداية لحكمها منفردة ولقبت نفسهابالإلهة « فيلوميتورسوتيرا » (٥٧).

وانتقاما من كليوباترة الثانية قتل يورجيتس الثانى ابنها «ممفيتس» الذى كان قد أخذه معه إلى المنفى ومزقه إربا إربا ووضع أشلاءه فى صندوق بعث به إلى كليوباترة فى الإسكندرية كهدية عيد ميلادها(٥٨).

فى عام ١٢٧ عاد يورجتيس الثانى من منفاه بالقوة المسلحة وطرد كليوباترة الثانية فلجأت إلى زوج ابنتها ديمتريوس ملك سوريا فى أنطاكيا وحرضته على غزو مصر لكنه فشل فى تحقيق ذلك لتصدى يورجتيس الثانى له عند بلوزيون (٥٩).

حوالى عام ١٢٤ عاد الوئام بين كليوباترة الثانية ويورجيتيس الثانى مما أعاد الهدوء إلى داخل البلاد كما أعاد الكنوز التى كانت كليوباترة الثانية قد هربتها خارج مصر .

أسلفنا أن كليوباترة ثيا- ابنة كليوباتره الثانية - ملكة سوريا دبرت قتل ابنها الأكبر سلوقس الخامس لأنه اتخذ لقب ملك دون استئذانها وأشركت معها فى الحكم أبنها الآخر أنطيوخوس الثامن جرويوس

(Grypos) الذى نجح يورجتيس الثانى فى تزويجه من ابنته كليوباترة تروفاينا (Tryphaena) – ابنة كليوباترة الثالثة(٦٠) فى ٢٨ يونيو عام ١١٦ توفى يورجتيس الثانى بعد أن ترك لزوجته كليوباترة الثالثة حرية اختيار من يشركها فى حكم مصر ، أما بالنسبة لقورينائية فقد أوصى بها لابنه غير الشرعى بطليموس أبيون(٦١).

كان أمام كليوباترة الثالثة أحد خيارين لمن يشركها فى حكم مصر إما إبنها الأكبر بطليموس التاسع (سوتير الثانى) أو ابنها الأصغر بطليموس العاشر (الإسكندر الأول) لكنها فضلت ابنها الأصغر على ابنها الأكبر، ربما لأنه كان أضعف من أن يحد سلطتها لكن الاسكندريون ارغموها على اسناد العرش لابنها الأكبر لأنه صاحب العرش الشرعى(٦٢). والذى لقب باسم «فيلوميتور سوتير» وذهب أخوه الإسكندر إلى قبرص للإقامة فيها.

كان بطليموس التاسع متزوجا من أخته كليوباترة الرابعة وكانت شديدة المراس فخشيت أمه كليوباترة الثالثة أن تفقد سيطرتها على ابنها فأرغمته على طلاقها رغم حبه لها وتزوج بأخته الصغرى كليوباترة الخامسة سيلينى (Selene) (٦٣).

كان هدف كليوباترة الثالثة من وراء ذلك إخضاع ابنها لإرادتها وتجنب نفسها متاعب تستسلم لاقتها أمها على يديها لكن كليوباترة الرابعة لم تستسلم بل صممت على مواجهة أمها فذهبت إلى قبرص وتقابلت مع أخيها الإسكندر وفاتحته فى الزواج منها والتعاون لارتقاء العرش سويا(٦٤).

لكن كيد النساء لم يتوقف فقد نجحت كليوباترة الأم فى كسب ود ابنها الإسكندر بتعيينه حاكما لقبرص، فتوجهت كليوباترة الرابعة إلى سوريا لتعرض يدها وجيشها على أنطيوخوس التاسع كوزيكينوس (Cyzicenos) ابن كليوباترة ثيا - خالتها فى نفس الوقت - لكنها قتلت هناك عام ١١٢[٦٥].

ويبدو أن الأم (كليوباترة الثالثة) لم تزل غير راضية عن ابنها بطليموس التاسع ومازال قلبها يحن نحو ابنها الأصغر الإسكندر حاكم قبرص فقد أشاعت فى الإسكندرية عن طريق خصيانها أن الملك بطليموس التاسع أراد قتلها ونجحت فى ذلك إلى حد بعيد إذ التهبت مشاعر الإسكندرين حبا تجاهها وكرها تجاه الملك الذى فر هاربا تاركا زوجته وابنه عام ١٠٧[٦٦] فاستدعت كليوباترة الثالثة ابنها الإسكندر بطليموس العاشر وأشركته معها فى الحكم[٦٧].

وفى أكتوبر عام ١٠١ توفيت كليوباترة الثالثة وبوفاتها أصبح بطليموس العاشر ملك مصر اسما وفعلا واستمر يحكم حتى عام ٨٩ حيث ثار الإسكندريون عليه وطردوه بسبب ضياع قورينائية وذهب إلى لوكيا ومعه زوجته (برنيكى الثالثة) وابنته لكنه لقى حتفه فى معركة بحرية وبوفاته خلا الجو لأخيه الأكبر بطليموس التاسع الذى استدعاه الإسكندريون ليتولى عرش مصر وقبرص[٦٨].

ولما كان بطليموس التاسع قد بلغ الرابعة والخمسين من العمر تقريبا، فإنه وفاء بمقتضيات التقاليد التى كانت تحتم وجود زوجين على العرش، لم

يفكر بطليموس فى الزواج من جديد وإنما استدعى ابنته (برنيكى) وهى التى كانت زوجة بطليموس العاشر وأشركها معه فى الحكم وعرفا سويا باسم «الإلهين فيلادلفوى فيلوميتوروس سوتيرس».

وعندما توفى بطليموس التاسع آل عرش مصر إلى ابنته برنيكى الثالثة لعدم وجود أحد الأبناء من سلالته الشرعية.

وجدت روما الفرصة متاحة لها لمزيد من التدخل فى الشئون الداخلية لمصر فأرسلت الإسكندر الثانى بن بطليموس العاشر - الذى كان قد لجأ إلى روما من قبل - إلى مصر حيث نودى به ملكا وتزوج من برنيكى الثالثة (زوجة أبيه وابنة عمه) عام ٨٠ وعرف هذا الملك باسم بطليموس الحادى عشر.

لكن ما هى الدوافع التى جعلت برنيكى الثالثة توافق على هذا الزواج غير المتكافئ؟

إنه كما أسلفنا حب السلطة وشهوة الحكم التى تملكت النساء البطلميات فقد وافقت برنيكى على هذا الزواج لاعتقادها بأنه يمكنها السيطرة على الملك الصغير وتستطيع من خلاله أن تحقق ما تريد لكن لم يمكنها الملك الصغير من ذلك فسرعان ما ضاق بها وقتلها بعد تسعة عشر يوما من الزواج منها مما أثار غضب الإسكندريين عليه وقتلوه فى الجمنازيوم بعد حكم دام تسعة عشر يوما(٦٩).

تولى الحكم بعد ذلك بطليموس الثانى عشر الملقب بالزمار (Auletes) وزوجته كليوباترة تروفاينا Tryphaena وقد لقبا بلقب «الإلهين فيلوباتروس فيلا دلفوى Theoi Philopartros Philadelphoi [٧٠].

ونتيجة تذمر الإسكندريين على الزمار بسبب ضياع قبرص طردوه خارج البلاد وأقاموا مكانه على العرش ابنته (برنيكى الرابعة)[٧١]. التى تزوجت من شخص يدعى (سلوقس) كان يدعى أنه من سلالة ملوك سوريا وأشركته معها على العرش[٧٢].

ولخشونة طباعه لم تطق برنيكى معاشرته إلا بضعة أيام لقى بعدها حتفه خنقا ثم تزوجت من (أرخيلاوس) Archelaos فيما بين ٧ مارس، ١٦ أبريل عام ٥٦ وتربع على العرش[٧٣]، لكن سرعان ما عاد الزمار إلى عرش مصر بمساعدة (جابنيوس) حاكم سوريا فى ربيع عام ٥٥، وأعدم ابنته برنيكى الرابعة وأنصارها وأشرك معه فى الحكم أكبر بناته وهى كليوباترة السابعة وابنه بطليموس الثالث عشر [٧٤].

توفى الزمار عام ٥١ تاركا خلفه ولدين هما بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر، وابنتين هما كليوباترة السابعة وأرسينوى ويحدثنا (ديون كاسيوس) بأن الزمار قد أوصى بأن يخلفه على عرش مصر أكبر ولديه (بطليموس الثالث عشر) على أن يتزوج أخته الكبرى كليوباترة السابعة[٧٥].

صار بطليموس الثالث عشر ألعوبة فى يد زوجته كليوباترة السابعة

لقوة شخصيتها وشدة بأسها وطموحها السياسى وحب السلطة الجارف الذى تملك عليها حتى إنها اتخذت من بعض الشخصيات الرومانية أداة لتنفيذ أغراضها، فنجحت بفضل جمالها وذكائها أن تقف مع بومبى فى صراعه ضد قيصر لعله ينتصر عليه تحقق أهدافها ولما هزم قيصر بومبى نجحت فى الاستيلاء على قلب قيصر وانجبت منه ابنها (قيصرون) وجعلته يتدخل شخصيا للتوثيق بينها وبين أخيها وزوجها بطليموس الثالث عشر.

وبعد حرب الإسكندرية وانتصار قيصر ومقتل بطليموس الثالث عشر غرقاً أصبح قيصر الإسكندرية فأقام بطليموس الرابع عشر مكان أخيه ليشارك كليوباترة السابعة الحكم [٧٦].

وبعد مقتل قيصر على يد الجمهوريين تبددت أحلام كليوباترة فعادت من روما فى أوائل شهر أبريل وأشركت معها ابنها فى الملك وسعت على أن تعترف به روما ، ولذلك بدأت تنسج شباكها حول أنطونيوس أحد أعضاء الحكومة الثلاثية الثانية المكونة من أكتافيوس وأنطونيوس وليبيدوس طمعا فى تحقيق أحلامها السياسية[٧٧] وبالفعل نجحت كليوباترة فى الاستيلاء على قلب أنطونيوس فوقع أسير هواها[٧٨] حتى أنجبت منه تؤمين هما الإسكندر هليوس وكليوباترة سلينى[٧٩] وقد استثمرت كليوباترة علاقتها بأنطونيوس إلى أبعد حد ، فبمناسبة زواجها طلبت منه أن تكون هدية الزواج إعادة بناء إمبراطورية البطالمة فمنحها العديد من الممتلكات فى منطقة جوف سوريا ، وقبرص وفلسطين وفينيقيا ، ولم تكتف بذلك فبعد عودة أنطونيوس من غزوه أرمينيا عام ٣٤ واحتفالات النصر التى أقيمت

بالإسكندرية طلبت منه توزيع الهدايا والممتلكات على أبنائها منه [٨٠] ثم أوغرت صدره لمحاربة أوكتافيوس لتحقيق حلمها القديم وهو السيطرة على العالم الرومانى ولكن نجح أوكتافيوس فى تبديد أحلامها فى معركة أكتيوم ٣١ حيث هزم أوكتافيوس أنطونيوس وواصل زحفه إلى مصر مما دفع أنطونيوس إلى الانتحار ثم انتحرت كليوباترة أيضاً بسم الكوبرا واحتلت روما مصر فى أول أغسطس عام ٣٠ .

وهكذا يتضح لنا مدى الدور الذى لعبه الزواج السياسى على مسرح الأحداث فى مصر الهللينسية منذ عام ٣٣٢ ق.م وحتى سقوط مصر فى يد الرومان عام ٣٠ ق.م ذلك الدور الذى بدأ يأخذ طابعاً مثالياً فى عهد الإسكندر بهدف تحقيق الوحدة والانسجام والمساواة ولكن على يد الملوك البطالمة بصفة عامة ونسائهم بصفة خاصة صار الزواج السياسى طريقاً وأسلوباً لتحقيق الأطماع الشخصية والمآرب السياسية فلاحظنا :-

١- أن حب السلطة وشهوة الحكم تغلب على أى أعتبارات إنسانية أخرى .

٢- أن الأطماع السياسية والأهداف الشخصية أعمت بصيرة الكثيرين وجعلتهم يضربون بالقيم والأخلاق والتقاليد عرض الحائط .

٣- أن الملكات البطلميات كانت لهن اليد الطولى فى الشطر الثانى من العصر البطلمى واستغلوا فكرة الزواج السياسى إلى أبعد حد لتحقيق أطماعهن الشخصية ، وساعدهن على ذلك قوة شخصياتهن على حساب ضعف شخصية الملوك البطالمة .

٤- وسط كل هذا تاهت على المسرح السياسى عبارات الإسكندرية الرنانة حول التوافق والانسجام الفكرى والعاطفى والعنصرى أو ما أسماه هو بالوئام لأن الناس جميعا فى نظره أبناء لأب واحد مهما اختلفت عناصرهم وقومياتهم .

والله ولى التوفيق ،

د. هابيل فهمى عبد الملك
مدرس التاريخ اليونانى الرومانى
كلية الآداب - جامعة المنوفية
يناير ١٩٩٦.

(حواشى البحث)

(١) كل التواريخ الواردة فى لبحث قبل الميلاد إلا فيما ينص على غير ذلك.

(٢) باكتريا - Bactria إقليم يقع بين نهر جيحون وجبال هندكوش فى شرق إيران القديمة ويتبع الآن جزء من أفغانستان وجزء آخر من تركستان الروسية. وعاصمته باكترا (Bactra) وهى بلخ فى أفغانستان (غرب نهر جيحون). انظر : هـ. آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، نقله الى العربية وأضاف إليه عبد اللطيف أحمد على (١٩٦٨) ص ٤٢، حاشية (٢).

(3) Arrian, VII, 4-9.

(4) Plut. Alex. 70.2

(5) Bouché - Leclerq, Histoire des Lagides, Vol.I, Paris (1903), p. 8.

(٥) سيد أحمد على الناصرى : الإغريق تاريخهم وحضارتهم (من عصر البرونز حتى إمبراطورية الإسكندر الأكبر)، القاهرة، (١٩٧٤)، ص ٤٣٥.

(6) CAH, VI, P. 461.

(7) Athen. XII, 576; CF. Bouché - Leclerq, op. cit. pp. 26-7; Bevan (E.R.), A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty , London (1927) PP. 52-3; Cary,Greek World from 323-146 B.C., (1951) pp. 2ff.

(8) Jouguet, L'Eg. Ptolemaique dans Histoire de la Nation Eg. 3 ed., Paris (1933), pp. 11-12.

(9) Cary, Op. Cit., P. 12.

(10) CAH, VI, PP. 466-8.

(11) Diod. XVIII, 38-39.

(١٢) إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة، الجزء الأول ، الطبعة السادسة، القاهرة، (١٩٨٤) ص ٦٩.

(13) OCD^2, S.V. Berenike.

(14) Diod. XX. 37.

(15) CAH, VI, PP. 502-3.

(16) Plut. Demetr. 31-2.

(١٧) استولى ديمتريوس على أيونيا من لوسيماخوس، وعلى شاطئ أسيا الصغرى من پلايستارخوس شقيق كاسندروس، ثم استولى على سماريا Samaria من بطليموس وربما جنوب سوريا أيضا لولا تدخل سلوقس حيث عقد صلحا بين ديمتريوس وبطليموس عام ٢٩٩/٢٩٨ انظر : Plut. Demetr. 31-2.

(18) Justin. XVII, 1.4; Appian, Syr. 64.

(20) Bouché - Leclerq, I pp. 144ff.

(21) Justin, XVII, 2, 5-6, cf. Pais I 16.2, X. 19.7, App. Syr. 62.

(22) Justin. XXV.

(23) Jouguet, op. cit. p. 45.

(24) Cary, op. cit., p. 84; Tarn, Hellenistic Civilisation, 3ed. (1952) p. 13.

(25) Theocr. XVII, 128.

(26) Athen. XIV, 621 a.

(27) Paus, 17.3.

(28) Justin XXVI, 3.2.

- عندما خطبت برنيكى لولى عهد مصر بطليموس الثالث (يورجتيس) توفى والدها ماجاس فتعاونت أمها (أباما) مع انطيوخوس الثانى فى تعطيل زواج ابنتها للاحتفاظ بعرش قورينايئه ثم تقربت إلى (جوناتاس) بن ديمتريوس عدو فيلادلفوس لتزوج ابنتها من ديمتريوس أخيه غير الشقيق، ومن المحتمل أن جوناتاس رحب بتلك الفكرة نكاية فى فيلادلفوس لكن ديمتريوس رفض مشروع الزواج هذا لأنه وقع فى غرام (أباما) نفسها مما دفع برنيكى إلى قتله وهو فى فراش أمها أنظر : Justin, XXVI. 3.

(29) Athen. V 209; cf. CAH. VII. p. 862.

(٣٠) يرى البعض أن لاوديكى كانت أخت انطيوخوس وليست ابنة عمه راجع:

Bouche - Leclerq. I. p. 211, n. 2.

(31) Cary, op. cit., p. 403.

(32) P. Cair Zen. 59251.

(33) Seneca, Quaetiones Naturales (=QN) III, 25; cf Mahaffy, the Empire of the ptolemaiec, London (1895) p. 171.

(34) Polyb. apud Athen. II, 45, b-c.

(35) OGIS, 56, 15 -16.

(36) CIG, 2905.

(37) Bevan, Op. Cit., PP. 338 ff.

(38) Bevan, Op. Cit., PP. 336; Jouget, Nat. Eg. p. 62.

(39) Polyb. XV, 25, 3-11.

(40) Polyb. XV, 25, 12-19.

(41) Liv, XXXXV, 13.4; CAH. VIII, pp. 135 ff.

(42) Joseph. Ant. Jud. XII, 154; App. Syr. 5.

(43) Diod. XXVIII, 14.

(44) CAH VIII, pp. 185 ff; Jouguet, op. cit. pp. 131-2.

(45) Wilcken, UPZ, IP. 180.

(46) Polyb. XXXI. 10.

(47). Polyb. XXXIX. 7; Diod. XXXI, 33.

(48) Diod. XXXIII, 20; Joseph., Ant Hud. XIII, 43-61.

(49) Athen. V, 211.

(50) Diod. XXXII, 9 c.

(51) Joseph., Ant. Jud XIII, 4.

(52) Joseph, XIII, 120.

(53) Justin, XXXVIII, 8.4; Bevan, op.cit. p. 307 n.1

(54) Diod. XXX, 13; cf. Bevan pp. 308-9.

(٥٥) كليوباترة الثالثة هى ابنة كليوباترة الثانية - التى انجبتها من أخيها وزوجها فيلوميتور، وقد أنجب يورجتيس الثانى من كليوباترة الثالثة أبناء من بينهم كليوباترة الملقبة بكليوباترة تروفاينا وكليوباترة (الرابعة) وكليوباترة سيلينى هذا

عدا من أنجبهم من محظياته مثل (إيريني Eirene. (وبطليموس أبيون) الذى أقامه ملكا على قورينائة (ومكانها الآن بلدة الشحات فى برقة) راجع : الملحق القيم الذى أضافه عبد اللطيف أحمد على لكتاب هـ. أيدرس بل «مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربي، القاهرة (١٩٦٨) ص ٤-٢ حاشية (١٠).

(56) P. Dem. Berlin, 1138.

(57) P. Tebt. 72. 45. cf. Wilcken, Archiv, IV, pp. 224, 265.

(58) OGIS, 130, 144;

(59) Justin, XXXVIII, 9.1, XXXIX, 1.2 ff.

(60) App. Syr. 69.

(61) Justin, XXXIX, 5.2.

(62) Justin, XXXIX, 3.2.

(63) Justin, XXXIX, 3.2.

(64) Bouché - Leclerq II pp. 9-3.

(65) Justin, XXXIX, 3.3-12.

(66) Paus. 19.2; Justin. XXXIX, 4.

(67) CAH VIII, pp. 532-3; cf. Bevan, p. 329; Jouguet, Nat. Eg. Pp. 161-2; Bouche- Leclerq, op. cit., pp. 93-5.

(68) Bouche - Leclerq, II, pp. 109-111.

(69) OCD2 S.V. Ptolemy IX; XI.

(70) CAH, IX, p. 388.

(71) Dio Cassius, XXXIX, 13.

(72) SB, 6156 = W. Chrest. 70 (56 B.C.) = p. Gren f. II 38 (56 B.C.).

(74) BGU, 1002.

(75) Dio Cassius XIII, 35. 4.

(76) Dio Cassius, XIII, 34.

(77) CAH, X, 35.

(78) Plut. Anton. 25-27.

(79) Plut. Anton. 36; Dio Cassius, XIIX, 22.

(٨٠) يقول بلوتارخ حول مهرجان الهبات السكندرية : جلس أنطونيوس وكليوباترة على عرشين من الذهب وإلى جانب عرشيهما أقيمت أربعة عروش أخرى على مستوى منخفض لكل من أبناها بطليموس الخامس عشر قيصر (قيصرون) (١٢ سنة) ولابنائها الثلاثة من أنطونيوس وهم الاسكندر هيليوس (٦ سنوات) وأخته التوأم كليوباترة (سيلينى) ثم بطليموس فيلادلفوس ابن السنتين وأعلن أنطونيوس فى هذا المحفل الاسكندر هليوس ملكا على أرمينيا وسيدا على ميديا وكل الأراضى شرق الفرات حتى بلاد الهند، وبطليموس فيلادلفوس ملكا على سوريا وسيد آسيا الصغرى من غرب الفرات وحتى الدردنيل، وكليوباترة سيلينى على جزر كريت وقورينه فى ليبيا أما بطليموس الخامس عشر قيصرون فلقب بملك الملوك انظر : Plut, Anton. 54, 2 -6